اعلام العرب

١٠٩

إسماعيل صبري باشا
شيخ الشعراء

نجيب توفيق



هذا الكتاب

يتضمن تاريخ الشاعر الوطنى والقاضى النزيه إسماعيل صبرى ، أحد أقطاب المدرسة التقليدية للشعر العربى الحديث ، التى قامت بزعامة الشاعر محمود سامى البارودى . وقد غمرت الأحداث تاريخه وآثاره الأدبية فكان لزاما أن تظفر المكتبة العربية بسفر يحوى حياته وآثاره الأدبية والاجتماعية ، لتعريف الجيل الحاضر له .

وقد امتاز إسماعيل صبرى بأنه الشاعر الوطنى الذى آزر الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل ، ولم يحل منصبه القضائى الكبير ـ وكيل وزارة الحقانية ـ أن يؤيده علانية ويدعو إليه ويشيد بذكره ، لازمه منذ ظهور بواعث الوطنية الأولى حتى غدا نجما ساطعا فى سماء الجهاد السياسى الوطنى .

وقد أثرى إسماعيل صبرى الشعر العربى الحديث بنفحاته الخالدة فى ميادين الوطنية والغزل والشعر الصوفى . كما أسهم بنشاطه فى الميادين الاجتماعية والأدبية والوطنية فى عصره .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٣٥ قرشا

اعـــلام العرب

١٠٩

إسماعيل صبري باشا

شيخ الشعراء

حياته وأثره في الأدب وفي عصره

١٨٥٤ - ١٩٢٣

بقلم

نجيب توفيق



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٥

مقدمـــة

فى هذا الكتاب نرجع الى عهد مضى ، من أزخر العهود الأدبية فى مصر فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر حتى قبيل ســنة ١٩١٩ ، ذلك العهد الذى كان يعج بكثير من الشعراء والأدباء وعلى رأسهم شاعرنا اسماعيل صبرى ، أحـــد فرسان الشعر الحـديث الخمسة الذين اضطلعوا بارساء قواعده ، واقامة دعائمه وهم محمود سامى البارودى وأحمد شوقى وخليل مطران وحافظ ابراهيم وسوف نعيش معــه متأملين حيـــاته المليئة بالمواقف المشرفة التى لم تشرف صاحبها فحسب بل شرفت تاريخ الأمة العربية بأسرها .

والغرض من هذا الكتاب استكمال النقص بالمكتبة العربية التى لا تضم سفرا كاملا عن حياة هذا الشاعر الكبير ، وما أداه للشعر وللمجتمع العربى الذى عاصره حيث أن زملاءه الأربعة قد شـــاع ذكرهم والمكتبة العربية حافلة بالعديد من الكتب عن حياة وآثار كل منهم ، فقد تناولها كثير من الأدباء والكتاب فى شتى أنحاء الوطن العربى وحتى الوطن المهجرى ، أما شخصية اسماعيل صبرى فكادت أن تغمرها الأحداث ، ولولا نبذ بسيطة عنــه ، تأتى عرضـــا فى

ما تنشره الكتب المدرسية عن بعض أشعاره لنسيناه نسيانا تاما ، لذلك كان لزاما على المهتمين بقضايا الشعر الحديث أن يعرضوا على الملأ بحثا تفصيليا عنه ، لينال حقه من التعريف به وبآثاره ٠

ولم يكن اسماعيل صبرى محتفلا بجمع شعره ابان حياته ، حتى لقد ضاع الكثير منه ولم تجمع أشعاره الا بعد مماته بأكثر من عشر سنوات ، وربما نسبت بعض أشعاره الى غيره من الشعراء ، كما لم يكن شاعرا متفرغا للشعر كلفا به ، يعانى فى سبيله المشاق ويود ان يكون مبرزا ومتفوقا على غيره فيه ، (وقد يكون عمله فى سلك القضاء ، حيث قد وصل فيه الى أعلى المناصب سببا لذلك) — بل كان الشعر عنده نوعا من أنواع الترف الأدبى يقضى فيـــه أوقات فراغه لا سيما وقد كان من طبقة أرستوقراطية لها تقاليدها الخاصة ونظرتها الخاصة لأمور الحياة ، ورغم ذلك فقد أدمن قراءة شعر الأقدمين وكان حفيا ومقدرا لشعر المعاصرين ٠ حتى لقد جعل من قصره منتدى أدبيا وسوقا للشعر يعرض فيه الشعراء الناشئون ما جادت به قرائحهم ، وأخصبت به مواهبهم ، وأثرى به معينهم، حتى لقد كان الشاعر منهم يرى فى انشاد شعره فى هذا الصالون أمام العلية من القوم وعلى مسمع منهم : جائزة وأى جائزة ، تساوى ما بذل من جهد وعانى من نصب فى صياغة شعره ٠

ولا عجب بعد ذلك ، اذا قرأنا فى البحوث التى تناولت تلك الحقبة بالدراسة أنه كان يلقب « بشيخ الشعراء » حينا وامامهم حينا آخر ، ولم يكن ذلك لتفوقه فى مضمار الشعر عنهم ولا بوصوله شأوا فى ميدان القريض دونهم ، ولكن باعتبار مركزه الأدبى ولقبه الرفيع ومستواه الاجتماعى الممتاز وقد اعترف له الشعراء جميعـــا بالصدارة ، لمـا أغدقه عليهم من تشجيع ، وأولاهم من تكريم ومـد لهم من أيادى كانت كفيلة أن تشحذ ملكاتهم وتبرز أغلى ما يكمن أن تجود به قرائحهم ، ولذلك قلنا أن اسماعيل صبرى ولو أنه لم يكن

من أعاظم الشعراء ، ولكن كان ذا أثر خطير فى الشعر المعاصر بصفة عامـــة .

ولا يضير اسماعيل صبرى أن كان مقلا فى شعره وقصير النفس فى قصائده ، ومقلدا أكثر منه مبتكرا فحسبه أنه كان شاعرا بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى ؟؟ أجاد فى ميادين الوطنية والغزل والشعر الفلسفى وقصر فيما دون ذلك ...

ولن ينسى التاريخ القومى اسماعيل صبرى كشاعر من شعراء الوطنية ، وصاحب صولات مشرفة فى مجال الانشاء القومى فيمـــا سمح به مركزه القضـــائى الدقيق ، وصاحب دعوات مشرفة لنهضة بلاده ، وكان أخا أكبر ، وعنصرا متينا للزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل ، جاهر بحبه له واعتناقه مبادئه رغم منصبة الحكومى الخطير ، ولمـا مات الزعيم فى ريعان شبابه ، كان على رأس الهيئة الموكلـــة لانشاء أول تمثال يقيمه الشعب المصرى منذ آلاف السنين تخليدا لذكرى مجاهد مخلص من بنيه .

ويعد اسماعيل صبرى من الشعراء القلائل الذين كانت لهم مواقف فذة ، فى موكب التقدم الاجتماعى والوطنى فى البلاد ، وأحد الرجالات الذين أسهموا فى دعم الوحدة الوطنية بين عنصرى الأمة (مسلمين ومسيحيين) وساندوا المصلح الاجتماعى قاسم أمين فى دعوته الجريئة لتحرير المرأة .

وقد أرسى بذلك أقوى دعائم التقدم والنهوض بالمجتمع المصرى الحديث .

نجيب توفيق

الباب الأول

حياة اسماعيل صبرى

- الشعر ، نشاته وتطوره
- بعض المذاهب الغربية فى فهم الشعر
- الشعر العربى فى العهد الحديث
- حالة الشعر بعد البارودى
- عصر اسماعيل صبرى
  الحركة السياسية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر
  التطور الاجتماعى فى مصر فى عهد الشاعر
- تاريخ حياة الشاعر
  المراثى التى قيلت فى ذكراه
- فنه الشعرى

الشعر نشأته وتطوره

ينقسم الأدب الى شعر ونثر ، والشعر من أقدم ضروب الأدب جميعا ، وليس معنى هذا أن أول كلام نطق به الانسان كان شعرا ، بل معناه أن أقدم الآثار الأدبية التي خلفها الانسان هي الشعر وأما الأدب المنثور فهو أحدث من الشعر كثيرا •

فاذا تأملنا تاريخ الأدب في أمة من الأمم رأينا أن الشعر سابق لسائر الفنون الأدبية فعند اليونان كانت قصائد « هوميروس » تنشد ويتغنى بها قبل أن يؤلف كتاب أو يظهر نثر فني •

وفي الأدب العربي نرى الشعر قبل الاسلام ينشد في المجامع والمحافل ، وتتداوله الرواة وتتناقله الأفواه ، وله في الحياة الاجتماعية آثار واضحة قوية ، ثم نبحث عن النثر الجاهلي نفسه فلا نكاد نجد له أثرا ، فاذا أمعنا في البحث ، ألفينا نتفا من سجع الكهنة والحكماء يشك كثيرا في صحة نسبتها اليهم ، ثم هي ــ فوق ذلك ــ ليست بالأثر الأدبي الخطير •

ونضرب مثلا ثالثا بأدب حديث ، وليكن الأدب الانجليزي ، فاننا نرى أقدم الآثار الأدبية عند الانجليز القدماء ، القصائد التي تصف أعمال بيولف (Beowlf) وهي ترجع الى القرن السادس أو السابع الميلاد ، وعند الانجليز المحدثين (أي بعد

الفتح النورمندى) نرى أجل الآثار الأدبية قصائد الشاعر تشوسر (Chaucer) الذى عاش فى القرن الرابع عشر وهى القصائد المسماه قصص كنتربرى (Canterbury Tales) ولا تزال من الآثار الخالدة في الأدب الانجليزى .

ونحن نرى من هذه الأمثلة ، التى تمثل العصور التاريخية الثلاثة : القديم ـ المتوسط ـ الحديث ـ سبق الشعر للنثر ـ وقد يبدو هذا غريبا لأول وهله ـ ظاهرة واضحة كل الوضوح ، وأن الأمم ظلت زمنا طويلا تتمتع بأدب الشعر قبل أن ينشأ فيها أدب النثر .

ومن تمام هذه الظاهرة أننا نرى كثرة الشعراء فى العهد الأول لأدب أمة من الأمم وزيادتهم زيادة بينة على كتاب النثر ، ففى صدر الاسلام مثلا نجد الى جانب جرير والفرزدق والأخطل كثيرا من الشعراء المعاصرين لهم ، على حين لا نرى كتابا كثيرين فى ذلك العصر ، وكذلك اذا عددنا الشعراء في عصر شكسبير ألفيناهم يربون كثيرا على كتاب النثر ، فالى جانب شكسبير أدمند سبنسر مؤلف ملكة الجن وكرستوف مارلو مؤلف المسرحيات الشعرية وبن جونسون الشاعر الثائر وبومنت وفلتشر والى جانب هؤلاء عدد كبير من الغنائيين وأما كتاب النثر الفنى فعددهم قليل ، ولعل أشهرهم فرنسيس بيكون الذى كان جل كتابته (باللاتينية) .

ومن أقوى الأسباب التى قدمت نشأة الشعر على النثر ، أن الأدب المنثور يتطلب معرفة بالكتابة ، والكتابة اختراع متأخر فى تاريخ كل أمة ، فقصائد هوميروس انتشرت وذاعت وتناقلها الناس قبل أن تذيع الكتابة .

وكذلك روى الرواة الشعر العربى القديم قبل أن تشيع الكتابة العربية ، ومنشيء الأدب المنثور لابد له من تدوين ما يخطر له ،

ورواية الكلام المنثور شفاها ليست بالشيء المستحيل ولكنها أمر لا يمكن الاعتماد عليه • وفى آداب الأمم كثير من الآثار الشعرية التى وصلت الينا بالرواية وبعضها لا يعرف ناظمه ، ومعظم الشعر الجاهلى بل بعض الشعر فى صدر الاسلام ظل يروى زمنا طويلا قبل أن يدون ، وأشعار اليونان فى عهدهم الأول كانت أيضا تروى وتنشر ولا تكتب ، والقصائد الجرمانية المسماه (Nibelungen) ( ) التى تسرد أعمال بعض الأبطال الجرمانيين القدماء وصلت الينا بالرواية أيضا •

فان كان الشعر أول مظهر للأدب فى كل أمة ، فلابد لنا أن نعتبره الأساس الذى بنى عليه الأدب كله منظومه ومنثوره ، على مدى العصور ، ومن الأمم من تقدم شعرها وسما سموا عظيما ومع ذلك ظل نثرها ضعيفا قليل الخطر اذا قورن الى شعرها ، والأدب الفارسى من الأمثلة الواضحة فى هذا بل فى الأدب العربى نفسه نجد أن الشعراء عامة أجل خطرا من الكتاب ، ومن الجائز أيضا أن يوجد الشعر والنثر وكلاهما فى حالة تقدم وقوة •

على أننا نجد أصل الأدب كله فى تلك الأشعار ، التى كان يتغنى بها قديما فى تمجيد الأبطال أو فى الاعراب عن العواطف ، أو ترتيل صلاة أو دعاء ، من هذه النواة الصغيرة نمت دوحة الأدب الهائلة وطالت فروعها وأغصانها •

لماذا قيل الشعر : ؟

الشعر اذن قديم فى حياة المجتمع البشرى ، وقد نطق به الانسان وهو فى حالة الفطرة ولهذا نرى فى الأشعار الأولى مسحة من السذاجة ، تختلف كثيرا عما نراه فى العهود التالية ، حين تعقدت مظاهر الحياة وأخذ المنطق سبيله الى العقول •

لماذا ـ اذن ـ نطق الانسان بالشعر وهو لا يزال فى عهد الفطرة والحياة خالية من كل تعقيد ؟ لقد كان الانسان فى ذلك العهد ـ الذى نسميه الأدب الجاهلى يتحدث فى مختلف شئونه بكلمات منثورة معتادة ، لا تختلف كثيرا عما يتحدث به عامة الناس الذين يعيشون عيشة أدنى الى الفطرة فى زمننا هذا • فلماذا اذن خرج عن طورة المألوف ونطق بعبارة لها صيغة وشكل غير مألوف ؟

السبب فى هذا يرجع الى أن الانسان حين نطق الشعر كان متأثرا تأثرا خاصا بأمر من الأمور التى ليست من شئون الحياة المألوفة ، والتى من شأنها أن تؤثر فى النفس أثرا قويا ممتازا عن كل احساس أو تأثر آخر ولهذا عبر عنها بعبارة غير مألوفة أيضا تظهر فيها قوة التأثر الذى بعثها •

ومن العبث أن نتساءل هل كان للناس فى عهدهم الأول غرض خاص للنطق بالشعر ، فان وجود الغرض المرسوم يتنافى مع مظهر الفطرة ، والحقيقة أن الناس نطقوا بالشعر فى أول الأمر دون أن يتكلفوا الشعر تكلفا أو يحتفلوا له احتفالا أو يستعدوا للنطق به وانما انبعث الكلام بالشعر حين تهيأت الظروف التى دعت اليه •

والظروف التى يجوز أن تكون قد استفزت الانسان فى عهد الفطرة كثيرة وقد لا تكون فى جوهرها مختلفة كثيرا عن الظروف التى ينظم فيها الشعراء فى عصرنا هذا •

وأقدم القصائد التى وصلت الينا ـ فى أدب كثير من الأمم ـ قصائد تسرد قصص الأبطال وأعمالهم المجيدة • وهذا الضرب من الموضوعات كان له شأن خطير فى ذلك العهد وليس من الضرورى أن تكون هذه الموضوعات هى أول شىء نظم فيه الشعر • بل من الجائز أن يسبقها أناشيد فى موضوعات شتى من حب أو شوق أو فخر أو رثاء ، أو مظهر من مظاهر الطبيعة ، وأناشيد تعبر عن احساس

دينى ، ولكن قصص الأبطال المنظومة أسهل فى التداول والرواية ، وربما كان هذا من أهم الأسباب فى حفظها وعدم اندثارها الى أن جاء الوقت الذى دونت فيه وكتبت ٠

على كل حال تأثر الانسان لأمر ما تأثرا خاصا ، استفزه الى النطق بكلام خاص ، غير كلامه المألوف ، ثم جعل ينشد هذا الكلام الخاص لغيره ليتأثر به أصحابه كما تأثر ، لأن من خلق الانسان أن يرغب فى أن يشاركه غيره فيما يحسه ويتأثر به وهذا ما يعبر عنه علماء النفس بالمشاركة الوجدانية ٠

وقد وجد الناس لهذا الكلام الخاص لذة وطربا يرفعه عن مستوى الكلام المعتاد ، فأخذوا يتناقلونه ويتداولونه ٠

واذا أردنا ان نبحث الصفات التى ميزت هذا الكلام عن سواه، فاننا مضطرون لأن نلجأ الى ما بأيدينا اليوم من أشعار ، اذ ليس لدينا أشعار فى أية لغة من اللغات نستطيع ان نقول عنها ، بشىء من التأكيد ــ ان هذه أول أشعار قيلت فى هذا اللسان أو ذاك ــ فان الاشعار القديمة التى بقيت لنا من أدب أية أمة هى أشياء ناضجة ، وقد سبقها من غير شك عهد نمو وتطور ، لا نستطيع ان نقطع برأى فى الخطوات التى خطاها الشعر فيه حتى اتخذ صورته الكاملة الناضجة ٠

ومع جهلنا بأطوار الشعر الأول في تاريخ آداب الأمم المعروفة ، نستطيع أن نفترض أن خصائص الشعر الأساسية كانت موجودة ولو الى حد ما ، حتى فى أقدم الاشعار ، **وهذه الخصائص هى :**

أولا : ان الأشعار كانت دائما تعبر عن احساسات قوية وتأثرات عميقة ٠

ثانيا : ان الألفاظ المستخدمة فى الشعر منتقاة ٠

ثالثا : ان الألفاظ مرتبة ترتيبا موسيقيا خاصا ، وهذا ما يعبر عنه بالوزن ·

رابعا : ان الشعر العربى التزمت فيه قيود لفظية خاصة وهى القافية ولا ريب انها قديمة جدا ·

علاقة الشعر بالغناء :

كان هنالك دائما ارتباطا شديد بين الشعر والغناء ، ومن المشاهد ان الغناء شيء مألوف عند جميع الشعوب مهما بعدت المسافة وانقطعت الصلات بينهم ، ومهما كان نصيبهم من الحضارة أو البداوة ، وأيا كانت حالتهم الاقتصادية والاجتماعية ، ولا يعرف على وجه الأرض شعب يجهل الغناء ، لهذا لا مفر لنا من أن نحكم بأن الغناء ظاهرة فطرية فى الانسان ، شأنه كشأن سائر الاعمال التى يصدر فيها الانسان عن الغريزة والميول الفطرية ، لا فرق فى هذا بين متقدم ومتأخر وقديم وحديث ومتمدين ومتوحش ·

ولئن كان الانسان قد لجأ الى الغناء عن غريزة وميل فطرى فليس من الضرورى ولا من المهم أن نتساءل عن الأسباب التى دفعته الى هذا العمل ، وانما نستطيع أن نقرر أن الظروف التى كانت تتطلب الغناء مشابهة جدا للظروف التى كانت تتطلب التطور بالشعر والصلة شديدة جدا بين الاثنين، فالشعر يشتمل على موسيقى الألفاظ والغناء يشتمل على موسيقى الألحان ، ومن الجائز أن يتغنى الانسان بالكلام المنثور ولكنه لن يلبث حتى يبدو له أن الكلام الموزون أليق بالغناء وألصق ، لأن الجمع بين الشعر والغناء الى درجة عدم التفرق بينهما أمر ظاهر فى أقوال الأدباء وكتاباتهم ، حتى فى الأزمنة التى كان فيها الشعر ينشد لنفسه دون أن يتغنى به ، **فالمتنبى يخاطب سيف الدولة ويقول له :**

اجزنى اذا انشدت شعرا فانما — بشعرى أتاك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتى فاننى — أنا الطائر المحكى والآخر الصدى
وما الدهر الا من رواة قصائدى — اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير مشمرا — وغنى به من لا يغنى مغردا

فنحن نرى فى هذه القطعة كيف يمزج الشاعر بين القاء الشعر والتغنى به وبين أنه شاعر وأنه طائر غرد .

وليس من شك في أن كثيرا من الشعراء القدماء كانوا يتغنون بشعرهم وهوميروس الذى تنسب اليه الالياذة لم يكن يلقى أشعاره القاء بل كان يتغنى بما يحفظه من قصص الأبطال ، أى أنه كان شاعرا بالمعنى العصرى المعروف .

ونحن لا نستطيع أن نقطع كيف كان العرب في الزمن الجاهلى يلقون أشعارهم وهل كانوا يلقونها القاء معتادا ، أو فى صورة غناء. ولكن الارجح أن الأشعار كانت تلقى على كلا الوجهين حسب مقتضيات الظروف ، واستعداد الشاعر أو الراوى ومن المشهور أن شعر الأعشى كان يتغنى به .

تطور الشعر :

بعد أن انتقل الناس من عهد الفطرة الى عهد الحضارة ، وأخذت مظاهر الحياة تتعدد وتتعقد ، لم يكن بد من أن يظهر أثر هذا فى الشعر ، وأن ينتقل هو أيضا من طور الى طور ، ونحن نلاحظ فى تطور الشعر الاتجاهات الآتية :

أولا : بعد أن أخذ الناس يتقدمون فى طرق الحضارة ، أصبح الشعر فنا مقصودا متعمدا وأصبح الذين يمارسونه طائفة من الفنانين ، ممتازين عن سواهم من الناس ، وبالرغم من انهم كانوا

ينطقون بالشعر عن هيئة فطرية ، وسليقة مغروسة فى نفوسهم، فانهم مع هذا كانوا يتعمدون الاتقان والابتكار ،ويتنافسون فيفنهم هذا ، **ومن الغريب أننا نسمع حتى فى العصر الجاهلى شاعرا مثـــل عنترة يقول :**

« هل غادر الشعراء من متردم ؟ »

كأنما الشعراء ـ حتى فى زمن الجاهلية ـ قد ألموا بكثير من نواحى القريض وقلبوا الكلام على وجوهه بقدر ما اتسع له أفقهم وبيئتهم ٠

ثانيا : بعد أن أصبح الشعر مستقلا ، له سننه وطرائقه ، وله قيوده التى لا ينبغى للشاعر مهما اخترع وابتدع أن ينقضها ويخرج عليها ، نرى أن الشعر لم يكد يحس لنفسه وجـودا مستقلا حتى انفصل عن الغناء وأصبح له مكانه الخاص ٠ فان التغنى بالأشعار كان معناه الجمع بين فنين مختلفين ، الأول فن تأليف الكلام والثانى فن تلحين الألحان ، ولئن جـاز فى العهـــود الأولى الجمـــع بين الصناعتين ، كما كان الرجل يجمع بين الحرفتين فان طبيعة التقدم قضت باقتسام العمل ، وانفراد بعض النـــاس بالتأليف الشعرى والآخر بالتلحين ، وأصبح الشعراء طائفة من الناس ورجال التأليف الموسيقى طائفة أخرى ٠

ثالثا : وبعد أن انفصل الشعر تماما عن الغناء ، أخذ الشعراء يعنون بتأليف اشعارهم عناية خاصة ، واهتموا بأن يكون للشعر موسيقاه الخاصة ، وهى موسيقى قائمة على حسن وقع الألفاظ فى السمع ، من غير استعانة بآلات وألحان ٠ وفى العهـــد الأول كان الكلام الركيك قد يحسنه التلحين البارع ، فأما وقد حرم هـــذا الثوب الجميل واضطر الى الانفراد بنفســـه ، فلم يكن بد من أن يسمو ويجمل بنفسه لكى يعوض ما فاته من جمال الألحان ٠

رابعا : وكذلك أخذ الشعراء يسلكون بأشعارهم طرقا جديدة ، فالى جانب الشعر الذى يصلح للغناء ــ وهو ما يطلق عليه اليوم الشعر الغنائى ــ وجدت هناك أنواع جديدة تتناول موضوعات خاصة من حكمة ،وهزل ووصف وفلسفة ، وشعر مسرحى وغير هذا من الأنواع التى يمكن أن ينعم بها الانسان لذاتها ، من غير الاستعانة بألحان ونغمات موسيقية .

والخلاصة أن الشعر من حيث هو فن مستقل أخذ يتطور فى اتجاهين مختلفين : الأول فى بنيته من حيث الأوزان والقوافى ، والمحسنات اللفظية والصيغ الشعرية الخاصة والاتجاه الثانى هو فى الموضوعات وتنويعها بحيث تتناول كل ما اتسع له الافق الشعرى الذى يوشك ألا تكون له حدود .

بعض المذاهب الغربية فى فهم الشعر

أراد الناقد الفرنسى Thierry Moulinier تيبرى مولينيه أن يصور يوما الشعر الفرنسى كله فى الصورة التى يجب أن يظل فى اطارها ، فجمع أشتاتا من الأبيات والمقطوعات والقصائد لكثير من الشعراء الفرنسيين منذ أقدم العصور حتى الآن ، وأخرج كتابا يضم دراساته فيها سماه « المدخل الى الشعر الفرنسى »
Introduction à là poisie Francaise

ويرى مولينيه فى هذا الكتاب أن الشعر يأبى أن يدخل فى حدود التعريف لأنه يأبى الا أن يكون جوهرا ، ولأن هذا الجوهر يستمد وجوده من صميم الأشياء التى لا توصف ، وكل توضيح للشــعر يقتل الشــعر ، يقتله بمنطق العقل ، ويقتله بالحبس بين جدران الألفاظ ويقتله بالنأى عن مداه الحيوى ، ولعل الشعر من بين جميع ما يمد العقل اليه يده باللمس والدرس ــ أكثر الأعراض نفورا منه وبعدا عنه ــ وهو يفلت من بين أنامل العقل كما تفلت الحياة من بين أنامل التحليل الكيماوى ٠

ومع أن الشعر يتمثل لك سويا قويا فى أكبر الآثار العقلية ، فانه ليبدو روحها أو مصدرها تارة ، ونداها الرطب تارة أخرى ،

حقيقة سيالة متمردة بأكثر مما تكون الأخيلة والأشباح من السيولة والتمرد .

وهي ترفض اللغة التي تريد أن تقنصها رفضا قد يصل الى درجة التعالى والتجاوز والاستشراف ولعل اللغة ـ اذ تحاول القبض على الشعر انما تطفيء نوره ، وتخنق روحه ، وتجمد رعشته واذا بدأ أن الشعر ليس الا مظهرا من مظاهر الثراء فى اللغة أو قوة من قواها الخاصة ، فان اللغة لا تستجيب له الا بالتفوق على طبيعتها والاستزادة من الحياة النابضة .

وملاحظة مولينيه هذه صحيحة جدا ، فانظر الى لفظ من الألفاظ يحدد معناه المعجم أو تعبث به الألسن ، تجده لجموده لا يسفر فى ذاته عن شيء كثير ، لا سيما ما يتصل بالمعانى النفسية كما تعتلج طى الصدور ، وما تقوى هذه اللفظة الجامدة المبتسرة الا اذا انتظمت مع غيرها من الألفاظ وفق جرس موسيقى ، أو وقعت فى مكانها من الجملة ، أو ارتسمت فى بعض الصور والظلال فكأنما هى تسمو على نفسها حين تصير كلاما منظوما

فهذه لفظة « هواء » تسمعها هكذا على انفراد ، فتتصور ضربا من الريح على نحو خاص ، كما تتصور شيئا جامدا ، لا تفيض فيه الحياة ، **فاذا قرأت قول شوقى :**

فاتقوا الله فى قلوب العـــذارى فالعذارى قلوبهن هـــــــواء

تمثلت موكبا من العواطف الناعمة الخفيفة البريئة ، تزخر كلها وتزدحم فى شفافية رائعة محببة ، فتلك هى الكلمة التى تفوقت بالشعر على طبيعتها ، واستزادت من الحياة كما قال مولينيه .

ويقول مولينيه أيضا :

« أن الباحث في الشعر سوف يبتعد عن غايته التي ينشدها كلما حاول أن يحد الشعر في تعريف شامل واسع ، فاذا مهمته تغدو عبثا لا خير فيه ، وجهدا لا فائدة منه ، واذا القصد من الدراسة يستطيل ويتمدد ، ليضيع آخر الأمر في خضم التوسع والشمول .

ولو أنك حاولت أن تظفر بأعم الخصـــائص للشعر العربي لوجدت نفسك أمام عمل فيه النصب والمشقة مع ضآلة الجدوى ، وتبقى بعد ذلك المشكلة قائمة ، وهي أن تعرف كيف يتمثل الشعر قائما واضحا في لفظة لشوقي أو أبيـات لاسماعيل صبري ، أو قصيدة لحافظ . والظاهر أن المشكلة ليست على قرب من مواقع الحل أو ليست على استعداد لأن تحل . فمادام الشعر قوة « أخرى » من قوى الكلام يتسامى بطبيعته على التوضيح والتحليل ، فليس من الممكن ولا من المستطاع أن يسمح لنا باختزاله وتركيزه في تعابير من الكلام الواضح والتعريف الجامع ، والعجيب من أمر الصلة التي تربط الشعر بالشاعر ، أنها تلائم أنقى وأخلد أشكال اللغة التي انتظمت في سياق القصيدة ، فظفرت بالقوة التي تزيد من قوتها ، وتلك مطابقة في الوجـود بين النشـاط الداخلي الخصب والبيان المنعقد الى درجة يبقى معها منعقدا بالعدد والأوزان ، حتى في المواضع التي تنعدم فيها معاني الألفاظ ، ومن أجل هذا رأى بعض النقاد أن الشاعر لا يبدع في حقيقة الأمر الا البيان ، وذلك لأنه يخترق حدود اللغة المرسومة ، ثم يضطرها بوسائل خاصة الى أن تحمل في ذاتها هذا الجانب الساحر الذي لا يوصف من الحياة .

واذا كان البيان هو موضع الابداع عند الشـــاعر ، فأنت تستطيع أن تطلع على أقوى صورة من هذا البيان في قصيدة « دمعة

وابتسامة » لشوقى ، وقد نظمها فى عودة أم المحسنين الى مصر ، **وتعزيتها فى حفيدها الأمير عبد القادر ومطلع القصيدة :**

ارفعى الستر وحيى بالجـبين وأرينا فلق الصبـح المبـين

ومنها هذا البيت الخالد الذى يلخص الحياة والناس فى أدق ما لهما من الخصائص وأعنى الألم :

انما الدنيـا شـجون تلتقـى وحزين يتأسـى بحـزين

ونستطيع أيضا أن نطلع على صورة أخرى قوية من البيان فى رثاء حافظ ابراهيم للزعيم مصطفى كامل :

انى أرى ـ وفؤادى ليس يكذبنى
روحا يحف به الاكبار والعظـم

ارى جلالا ، ارى نورا ، ارى ملكا
أرى محيـا يحيينا ويبتسـم

الله أكبر هـذا الوجـه أعرفـه
هذا فتى النيل ، هذا المفرد العلم

غضـوا العيون وحيوه تحيتـه
من القلوب اذا لم تسعد الكلـم

فهنا الابداع واضـح فى وصف (الجانب السـاحر الذى لا يوصف) من حياة الزعيم مصطفى كامل ، وهو العظمة وأثر هذه العظمة فى نفوس الجماهير ـ ونفس حافظ منها فى الصميم . وهنا أيضا تأتلف الألفاظ الفخمة التى تمتلىء بها الفم ، وتنفرج لها الشفاة فيكون من ائتلافها المنغوم هذا البيان الرائع الجزل الذى عرف به حافظ ، والذى يصور شخص الزعيم واعجاب الشاعر به

وحزنه الشديد لوفاته · وعندي أن الأبيات من أوابد الشعر العربي في العصر الحديث ·

ولا يعني مولينيه بالبيان هنا التسلسل على نغم موقع من الجرس اللفظي فحسب ، بل ضربا من سحر الكلام ، أو مفتاحا من ذهب يفتح لكل انسان مغاليق عالمه الذاتي المتمنع ، كأنما البيان سبيل الى أن يتدسس المرء الى أخفى ألغاز شخصيته ، وقد قال بهذا بول فاليري كما قال بهذا جان دي ولاكروا ·

ثم ها هو ذا مولينيه يصل الى تعريف للشعر جميل ، هو أنه : وجه من أخصب وجوه البيان وليلة ذات ألف ميلاد وألف صباح ، ومظهر رفيع لا ضريع له · فالشعر هو الصفاء المفعم بشتى امكانيات التكييف ، أو هو العدسة البلورية التي يجد فيها كل انسان على نحو ما وجها كان يجهله من نفسه ، أو قل هو الماس الذي يضيء به الواحد منا أنجمه الخابية وكذلك يولد الشعر في النفوس بحيوات مختلفة أو تولد نفوس الناس فيه بحيوات مختلفة ·

واذا كان تعريف الشعر على هذا النحو صحيحا وجميلا ، فان مولينيه ليحذر قراءه بعد ذلك من أن يدخل بهم هذا التعريف في القضية « الكلاسيكية » المعروفة بقضية (المبنى والمعنى) فما تعرف عملية الابداع الشعري الا قضية واحدة ، ليست هي قضية المبنى والمعنى ، ولا هي قضية التزاوج بين المبنى والمعنى وانما هي قضية اللغة ·

فالأثر الفني اذا تولد في ذهن خالقه ، فانما يتولد أول الأمر كمبنى فحسب ، الا أن هذا المبنى من الأصالة والعفوية والابتدائية

بحيث يجب أن يتناوله صاحبه بالعمل والتنقيح والاصلاح ، ليتركه بعد ذلك متمكنا من نفسه ، فليست بداية الفنان منبثقة من مادة من هذه المواد التى لا تنتهى ، والتى يستمد منها صوره وأخيلته انما بدايته من مخطط مؤقت ، لا ينسحب عليه الزمان الا ريثما يستحيل الى حياة تامة الأجزاء ، مكتملة التكوين ·

ويسوقنا هذا الكلام الى أن لا نرى فى الجهد المنصب على الأسلوب وسيلة لاشادة الأثر الفنى فوق مادته ، بل وسيلة لوضع ما يجب أن يوضع داخل الأثر الفنى · وينشأ عن هذه أن الشكل الذى لا خطر له لا جمال فيه ، وأن الأثر من الآثار كلما زخر بالأسلوب زخر بالمعنى وذلك لأن عملية الأسلوب ليست الا العملية التى تثقل متن اللغة بالمعانى · واذا كان ذلك صحيحا ، فمن التخليط الواضح هذه الأسطورة التى ينحلونها الرومانطيقيون وهى عفوية الوحى ·· فليس من عفوى فى فن الشعر غير الكلام !!

ولقد كان اسماعيل صبرى معنيا بحسن الصياغة وتقليب البيان على وجوهه ، ومعنيا باللفظة باعتبارها أداة تصوير ، وباللغة باعتبارها مظهرا للحس ، وبالموسيقى باعتبارها جوا للفكرة فالشكل عند الشاعر سبيل الى الجمال الفنى ، وليس غاية فى ذاته ، ولا هو منتهى ما يصل اليه ، فهو يؤمن بقول مولينيه : **أن الشكل الذى لا خطر له ، لا جمال فيه وان الأثر من الآثار كلما زخر بالأسلوب زخر بالمعنى ·**

من أجل ذلك كان اسماعيل صبرى يعيد النظر فى شعره ويبدل لفظة بأخرى ويقدم ويؤخر ، لأن عملية الأسلوب عنده ـ كما يقول مولينيه ـ ليست الا العملية التى تثقل متن اللغة بالمعانى · **ومن أجل ذلك نسمع اسماعيل صبرى يقول :**

شعر الفتى عرضه الثاني فأحربـه

ألا يشـــوه بالأقــــذار والوضر

فانقد كلامك قبل الناقدين تحـط

ثاني النفيسين من لغو ومن هـذر

وقد التزم الشاعر بهذه النصيحة وطبقها على نفسه في شعره الى أبعد مدى ، فهو يدير الألفاظ ويقلبها ، ويخاف العثار ، ويرهب النقد . ويتحرج أن يأتي بغير ما هو الأولى وأن يصدر عنه ما ليس بالأعلى ، دعاه ذلك الى أن يتريث في شعره ويتمهل في صوغـــه والغوص على المعاني ، كالغوص على اللآلىء ، ثم لا يقنع بأية لؤلؤة ، بل لا يرضى بها الا أن تكون غاية القصد ، وواسطة العقد ، فاذا عثر عليها وضعها في الموضع اللائق لها حتى يعجب بها الذوق الراقي ٠

لقد تتسامى الألفاظ بين يدى الشاعر من مهمتها المألوفة في الحياة العملية الى مهمة عليا مصدرها تسلسل المعـــاني فيها عـلى ائتلاف وتزاوج ، كأنما الشاعر اذ يرسل الألفاظ انما يرسلهـــا رقى وتعاويذ تأسر الحياة بقواها الساحرة وطاقات نورها المتجددة ، فما كان لشاعر أن يتناول الألفاظ الا وفق ما تهدف له معانيهـــا وقواها أيضا ، حتى تكون للغة الشعر على الحياة سيطرة كسيطرة المنطق والسحر معا ٠ واذا كان الشعر مضطرا الى أن يؤدى هذه الرسالة المزدوجة رسالة المنطق ورسالة السحر ، فمن الواضح أنه اذا تخلى عنها فقد تخلى عن كيانه كله من حيث هو شعر ، فانمـا طبيعة الشعر الفارقة قائمة على ذلك الازدواج في الرسالـة ، فما يكون الشاعر شاعرا حين يضحى بالقوة في الكلمة الشـعرية من

أجل المعنى اللغوى الدارج ، أو يضحي بهذا المعنى من أجل تلك القوة السحرية ، وأنت لا تجد شعرا الا حيث تجد لحم الحياة مصورا في مادة الصنيع الفنى والا حيث تجد الكلمة مالكة ناصية الحياة من وراء القدرة المحدودة لمعناها . فلو أن شاعرا شاء أن لا يجول الا فى دنيا المنطق أو فى دنيا السحر ، لما كان شاعرا البتة ، وانما كان نظام بحور وأوزان على طريقة تلاميذ المدارس أو كان صاحب تمائم وطلاسم على طريقة المشعوذين .... ليس الخلق الشعرى حلما من الأحلام ، ولكنه يقظة قبل كل شيء ويقظة عميقة الى حد بعيد ، والرسالة التى يضطلع بها الشعر هى تمثيل الجانب المستكن فى الشيء المسمى ، أو تصوير الذى لا يصور من الأشياء . يجرى الى ذلك بوسائله من الألفاظ والعبارات وتبدو الأعمال الشعرية من خلال هذه الرسالة كأحسن أسلوب لتوضيح كل ما من طبعه فى هذا الوجود أن يأبى الدخول فى حيز اللغة ، فهى تحمل كل كلمة من كلمات اللغة المستعملة على أن تقول ما لم تقل ، وعلى أن تبلغ مداها أقصى الحدود .

فكأنما الأعمال الشعرية توسع من اطار شعورنا بالوجود ، ان لم نقل انها تعيننا على السيطرة عليه سيطرة آسرة محكمة .

فالشعر يحرر اللغة من هذه الحواجز العالية التى يختنق بها الكلام الدارج لينطلق فى فسحة الكون ، على نقلة بين صدى وصدى ، حتى يلامس آخر جوانب الدنيا. وحرى بنا ـ وهذا شأن الشعر ـ أن لا نسميه (فن الكلام) بل (فن السكوت) الذى يسمو باللغة الى موضع الجلال والجمال والمعرفة ؟ .... هنا يقول مولينيه : عد الى نفسك اذا خلوت وحدك ، ترى خلجات واضحة وخلجات معتمة ، ثم انظر الى الحياة من حولك تعرف شيئا وتجهل أشياء ... أنوارا تحف بها ظلمات ، ونهارا يمحوه

ليل • أنت تهتدى حينا ، وتضل أحيانا وما تزال تتأرجح بين الهدى والضلال ، حتى ترى آخر الأمر معرفة تسلك بك سبيل الفهم لنفسك وحياتك خيرا من هذا الضرب من المعرفة : الشعر •

واضحك اذن من القائلين بأن مادة الشعر سوف تنفد فى يوم من الأيام ان الشعر مستراد لأنفسنا نستمد منه متعا تتجـــدد ما بقيت الحياة عذراء ، قل أن الشعر أسمى ضروب المعرفة ، أو قل أن الشعر يعلمنا ما نجهل من الحياة •• لقد آن الأوان لانقاذ الشعر من جملة المضحكات التى دسه فيها الخيال العامى وبعض الشعراء فليس بين الشعر ، وبين الجنون ، أو أضـــغاث الاحــلام ، صلة ولا قرابة •

ولو قدر لنا أن نعترف بخطورة المعرفـــة الشعريـة ، كما نعترف بخطورة المعرفة العلمية والمعرفة الفلسفية ، لتبوأ الشعر مكانه الأول ، وهو الاضطلاع بتزويدنا من الحياة بأوفى مادة وأجمل صورة •

الشعر العربى فى العصر الحديث

يدين الشعر الحديث للبارودى ، بأنه النموذج الرائع الذى نسج الشعراء على منواله من بعده ، وساروا على نهجه فى أسلوبه وأغراضه . وذلك لأنه أتى بشعر جزل رائق الديباجة عذب النغم ، فى حقبة غلب فيها على الشعر الضعف والصنعة وضحالة المعنى وعقم الخيال .

ثم أنه مثل عصره أتم تمثيل ، وكان صدى لحوادث بيئته ، فكان قدوة لمن جاء على أثره فى التجديد .

أضف الى ذلك ، أنه علمهم كيف يتجهون الى الأدب العربى فى أزهى عصوره يعبون من نبعه الثر ، ويغترفون من ذخائره مع احتفاظهم باستقلالهم وشخصيتهم فيما ينظمون من شعر ، فيقوى أسلوبهم وتشرق ديباجتهم ويبتعدون عن الحلى المتكلفة وبذلك سار الشعر من بعده الى الامام ولم يرجع أبدا الى عصور الضعف والركاكة .

وقد عرف البارودى كيف يعيد للشعر العربى الحديث ديباجته القوية ، وينهض به نهضة فارعة ، تخطت عدة قرون الى الخلف حتى رجعت الى عهود القوة والنضارة متجنبة الزخرف

والطلاء الغث والركاكة ، والتقليد لعصور الضعف والعجمة ، ثم نهضت البلاد نهضات قوية فى التعليم وأحياء التراث العربى القديم ، وأخذت المطبعة تزيد المتأدبين بنفائس الأدب العربى فى أبهى عصوره ، وكان من الطبيعى أن يحذو الشعراء حذوه فى أول الأمر ، فقلدوا الشعر العربى القديم فى أوج عزته كما فعل ، ولم يهتموا الا نادرا بما تخلف عن عصور الضعف ، من حلى وزخارف ومحسنات وتاريخ شعرى ·

ويعد البارودى بحق زعيما ورائدا لما يطلق عليه · المدرسة التقليدية الحديثة ·

خصائص هذه المدرسة :

متانة الأسلوب والعناية به عناية فائقة ، فقلما نجد خروجا على قواعد اللغة أو خطأ أو ركاكة ، وانما نجد شعرا مصقولا متينا ، مشرق الديباجة نجد هذا عند صبرى وحافظ والبكرى ومحرم والكاشف ونسيم ومن على شاكلتهم على اختلاف بينهم فى تقليدهم الشعراء الأقدمين الذين تأثروا بهم ، فمنهم من راقه شعراء العصر العباسى والشعر فى ازدهاره ، فقلدوا أبا نواس والبحترى والمتنبى وأبا العلاء وابن الرومى وعارضوهم فى قصائدهم ونسجوا على منوال أسلوبهم ، جزالة فى رقة الحضارة وعذوبة المدنية القديمة وولع بالتشبيهات والاستعارات وأنواع المجاز ·

ومنهم من رجع الى الخلف أكثر من هذا فتوعر قليلا وحاكى شعراء العصر الأموى أو الجاهلى ، وجاء شعره بدوى النسج ، متين التركيب ، عليه سيماء الفتوة العربية قبل أن ترققها الحضارة مثل عبد المطلب ·

ومن خصائص تلك المدرسة أيضا استخدام القصيدة بمظهرها المعروف ، ذات الروى الواحد ، والقافية الواحدة ، والوزن الواحد ، وكثيرا ما ابتدءوا تلك القصيدة بالنسيب كما كان يفعل شعراء العرب الأقدمون أو تركوا النسيب كما فعل ذلك من قبلهم بعض شعراء العصر العباسي حيث بدءوا بالغرض من غير تلك المقدمة الموروثة عن الجاهلية ·

على أن القصيدة الحديثة لا تختلف عن القديمة في تعدد عناصرها ، فلم ينظروا اليها نظرتهم الى بناء متماسك الأجزاء · أو كائن حي · الا قليلا ، حين وضعوها في الأسلوب القصصي كما ترى ذلك عند حافظ وعبد المطلب أحيانا ·

ولكن الغالب في هذه المدرسة هو جعل البيت ـ كما كان من قبل وحدة القصيدة ويجوز فيها التغيير والتبديل ، من غير اخلال بالمعنى ، ولم يطرأ تجديد على موضوعات شعرهم اللهم الا ماتقتضيه خصائص العصر العامة ، فأغلبهم كان مداحا يمدح الخليفة وان لم يعرفه ، وان لم تكن بينه وبينه صلة ، أو ثمة أمل في أن يعرفه ، ويمدح الأمير وحاشيته ، ويغير ولاءه كلما تغيرت الوجوه الحاكمة من غير حرج أو تردد ، فكان الأمير هو المحور الذى يدورون حوله : مثلهم في ذلك الأدباء الانجليز والفرنسيون قبل أن تظهر الحركة الرومانتيكية (١) ·

---

(١) كانت الحركة الرومانتيكية في أوائل القرن التاسع عشر ثورة على تلك التقاليد ومن أدباء الانجليز في القرن الثامن عشر الذين مثلوا تلك المدرسة التقليدية وعنوا بالأسلوب ولم يلتفتوا الى الطبيعة ، وجعلوا للشعر ألفاظا خاصة به (درايدون Drydon بوب Bob ـ طومسون Thomson وغيرهم) وكلهم شاعر بلاط يغرم بالمديح ويتملق الحاشية ·

وقد صرفهم المديح كما صرف أسلافهم العرب من قبل ، عن الاهتمام بالطبيعة والحيـاة الانسانيـة ، وان التفتوا فى أخريات زمانهم الى بعض ذلك ، والى الشعب وآماله (نظرا لتطور الحياة فى مصر) ، لكنهم مع ذلك كانوا ينظرون من خلال ذواتهم ومقدار تأثرهم بالأحداث المحيطـة بهم ، فلم يكن شعـرهم فى الشعب موضوعيا • وكانوا يهتمون بالطبقة الراقية من الأمة ، فيمدحون أعلامها ويرثون عظماءها ، ويتبادلون واياهم الرسائل الاخوانية •

وقد وصفوا بعض الأشياء ولكنهم ، قلمـا أفردوا للوصف قصائد بذاتها ، وأهمل أكثرهم الطبيعة المصرية ، أو قال فيها الشيء القليل ، ونظر اليها نظرة عابرة من غير أن يقف عندها طويلا على الرغم من تنبه الشعور الوطنى والاحساس القـومى فى أخريات عهودهم •

ونراهم يحاولون التجديد فى الموصوفات ، فيكثرون الكلام على البخار والطيارة وقد تخلف عند بعضهم شيء من الأغراض التى قضت عليها حركة التجـديد ، فما زال مثلا الهجـاء الشخصى والاجتماعى عند صبرى والفخر عند عبد المطلب وعلى كل ، فدائرة الشعر لديهم ضيقة وموضوعاتهم محدودة ، وان أفاضوا فى الشعر السياسى والاجتماعى متأثرين بالحركات القـومية التى لم يجدوا مندوحة من التأثر بها •

أما معانيهم فليس فيها جديد الا النادر كما ترى عند توفيق البكرى ، ومعظمها مأخوذ من الأدب العربى القديم ، أو المعـانى المتداولة ، وخيالهم تصويرى مبنى على الاستعارة والتشبيه والمجاز . بل كثيرا ما تكون تشبيهاتهم غير مجارية لزمانهم أو بيئتهم وانما نهجوا فيها نهج العرب الأقدمين ، متأثرين بالقوالب المحفوظـة والعبارات المتداولة •

وكان أغلبهم متزمتا ، جادا في حياته ، واذا تغزل عف ولم يفحش وفي أدبهم تكثر الحكمة والموعظة والارشاد ، فهم يجعلـون للشعر غاية يهدف اليها . ولم يعرفوا معنى « الفن للفن » .

والذين تتلمذوا على البارودى واقتفوا أثره ، عدد كبير من شعراء العربية اتخذوه امامهم غير مدافع ، كشوقى وحافظ والرافعى واسماعيل صبرى وعبد المطلب والجارم والكاظمي والرصافى وأحمد محرم والكاشف ونسيم والزين وغيرهم ، على تباين بينهم فى حظ كل منهم من التجديد والتأثر بثقافة الغرب ومذاهبه الأدبية .

وعلى الرغم من قيام مدرسة مجددة نشيطة تزعمها مطــران وشكرى والعقاد والمازنى وأبو شادى ، فلا زال كثيرون من البلاد العربية بعامة وفى مصر بخاصة ، يحنون الى ديباجـــة البـــارودى وموسيقى مدرسته مع الأخذ بطرف من الجديد فى المعانى والاخيلة والصور . وحسب البارودى فخرا أنه أحيا الشعر بعد مواته عـلى غير مثال سبق من معاصريه .

حالة الشعر بعد البارودى

من الغريب أن الثورة الفكرية التى أحدثها السيد جمال الدين الأفغانى بمصر ، وحمل مشعلها تلاميذه من بعده ، قد أطفأها الانجليز بطريقتهم العقيمة فى الثقافة والتربية ، ولم ينج من شرهم الا نفر قليل شاهدوا هذه الثورة الفكرية فى عنفوانها ورضعوا أفاويقها ، فظلوا الى أوائل القرن العشرين يحملون المشعل ويهدون الامة سواء السبيل .

أما الشعراء فلم يتأثرو بهذه الثورة فى قليل أو كثير ، ولم يلتفتوا كما التفت الكتاب الى الشعب يفحصون عن علله وأدوائه وآلامه وآماله ، ويغذون فيه تلك الروح الوثابة بل انصرفوا الى الأمراء والوزراء ، وذوى الجاه والمال يتملقونهم ويستجدونهم ، لقد صار النثر بفضل جمال الدين ومحمد عبده وعبد الله النديم والمويلحي وأضرابهم معبرا عن حاجات الشعب ، بينما ظل الشعر بمنأى عن رغباته ومطالبه مكبلا بقيود الماضى .

حتى هؤلاء الذين تتلمذوا على البارودى لم يحاكوه فى نبل أغراضه ، وصدق عاطفته وجمال تصويره للبيئة ، لقد كان البارودى صادقا فى شعره حين يصف الريف المصرى وما فيه من مناظر وزرع نضير ، وهدوء ، وشمس ضاحية ، وظل وريف ، وحين يرثى

أحباءه وأقاربه وأصدقاءه ، وحين يصف بطولته وشجاعته فى ميادين القتال ، ويصف بجانب هذا الميدان ، وطبيعته والأعداء وأحوالهم ، وحين يعبر عن ميوله السياسية وما قاساه على يد الخديوى من اغتراب ومحنة ، وحنين الى الأهل والوطن ، ولم يمدح البارودى الا نادرا ولم يرث الا صديقا أو حبيبا .

وعلى العكس منه نرى هؤلاء الذين انتهجوا نهجه فى الأسلوب واغترفوا من تلك الينابيع العربية التى وردها ، نراهم مداحين ، هجائين ، ندابين لكل عظيم ، ويقول الدكتور طه حسين(١) (وأصبح الشعر بفضل الشعراء وكسلهم العقلى فنا عرضيا لا يحفل به الا للهو والزينة والزخرف ، فاذا أراد بنك مصر أن يفتتح بناءه الجديد طلب الى شوقى قصيدة ، فنظم له شوقى هذه القصيدة ، واذا أرادت (دار العلوم) أن تحتفل بعيدها الخمسينى كما يقولون ، طلبت الى شوقى والجارم وعبد المطلب أن ينظموا لها قصائد ، فنظموا لها القصائد واذا مات عظيم وأريد الاحتفال بتأبينه ، أو نبه نابه ، وأريد الاحتفال بتكريمه طلب الى الشعراء أن ينظموا الشعر فى المدح والرثاء ، فنظموه كما ينظمه القدماء فانحط الشعر حتى أصبح كهذه الكراسى الجميلة المزخرفة التى تتخذ فى الحفلات والمآتم وأما الشعر الذى يقال لنفسه ، الذى يقال ليجلو مظهرا من مظاهر الجمال الطبيعى الذى يقال ليكون صلة بين نفس الشاعر ونفس القراء ، الذى يقال لا ليتملق عاطفة من العواطف ، أو هوى من الأهواء فلا تلتمسه عندنا ، ولكن التمسه عند قوم آخرين عرف شعراؤهم لأنفسهم كرامتها فربئوا بها عن أن تكون أداة للهو والزينة وكان جمهور المثقفين يطرب لهذا النوع من الأدب لأنه لا يعرف غيره ، ولأنه يحاكى تلك الألوان التى عرفها

---

(١) فى كتابه حافظ وشوقى ص ١٤٩ .

من الأدب العربى القديم ووعتها حافظته وفضلا عن هذا كله فان هذا النوع من الأدب كان نتيجة لازمة للتربية الانجليزية فى مصر فى عهد الاحتلال البريطانى التى كـــان من أهم عناصرها تنميـــة الذاكرة وقدرتها على الاستيعاب ، واهمالها المواهب الانسانيـــة الأخرى كالتفكير والتأمل ودقة الملاحظة ، والابتكار العقلى والحرية فى الرأى مما دعا الدكتور محمد حسين هيكل(١) أن يقول :

« ويجب أن نعترف ونفوسنا يملؤها الحـــزن والأسى ، أن تربيتنا وتهذيبنا لم يعد أكثريتنا للتأثر الفردى والاحساس الذاتى ، فهما لا يرسمان أمامنا مختلف صور الحياة ويتركان لحسنا ولفكرنا أن نميز من هذه الصور ما يأخذ بهما ، ويلفتهما لفتات خاصة بل هما يجيئان بصور الحياة مصبوبة فى قوالب قررتها الجماعة من عصور سالفة فيطبعانها فى حسنا وفكرنا طبـعا يقيدهما بهـذه القوالب ، ويكرههما على الخضوع لها والايمان بها » .

لقد عمد الشعراء الى استظهار كثير من الأدب العربى القديم ، حتى يستقيم لهم الأسلـــوب ويتملكـــوا ناصية القوافى ، ويكثر محصولهم من الكلمات والتعبيرات ، بيد أن هذا الاستظهار أورثهم الجمود وتقليد الشعر العربى القديم ، فى أساليبه وصور بيانه من كناية واستعارة وتشبيه ومجاز ، وفى موضوعاته ، ولم يستخدموا اللغة التى أحاطوا بمفرداتها ، فى أغراض عصرهم وتصوير بيئتهم والتعبير عن خلجات نفوسهم وهزات مشاعرهم فى صور من البيان جديدة مستمدة من بيئتهم الحضرية ومدنيتهم الحديثة وانمـــا احتذوا الشعراء القدامى فى كل شىء وعارضـــوهم فى مشهورات قصائدهم .

---

(١) كتاب ثورة الأدب ص ٦٥ .

عصر اسماعيل صبرى

الحركة السياسية فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر

كانت مصر قبيل ظهور الربع الأخير من القرن التاسع عشر مسرحا لألاعيب السياسة ، فهى فريسة الشد والجذب بين مطامع الدول الأوربية وأهواء الباب العالى ، وأثرة الأسرة الحاكمة . وكان الخديو اسماعيل آنذاك فى أواخر أيام حكمه ، وقد ناءت البلاد فى ظل حكومته المطلقة وارهاقها الأهالى بالضرائب والأحكام الجائرة .

ومنذ انشاء قناة السويس ، وافتتاحها رسميا سنة ١٨٦٩ ، واعتبارها الشريان الحيوى للمواصلات بيّن الشرق والغرب ، وأعين الطامع الاستعمارية متفتحة متربصة ، تلتمس الفرصة للانقضاض على استقلال البلاد .

وأخذت انجلترا وفرنسا تتنافسان فى استغلال مصر ووضع اليد عليها وقد شجعهما على ذلك ظهور اسماعيل بمظهر من لا يحسب حسابا للعواقب ، وذلك بأن فتح باب الاستدانة على مصراعيه ، وكبل مصر بقروض مالية ضخمة بالنسبة لثروةالبلاد فى ذلك الوقت ، وكانت بيوت المال التى تقرضه تفرض عليه أفحش أنواع الربا ؟؟ وقد أدت هذه القروض التى لا موجب ولاضرورة لها الى تدخل الأجانب فى شئون البلاد الداخلية ، واختلت الادارة أكثر من ذى قبل ، ووضحت نية القوم ، وقلق

المصريون على مستقبلهم ، وقد تجلى ذلك القلق ابان الحرب الروسية التركية سنة ١٨٧٧ ولم يكن اهتمام المصريين بهذه الحرب راجعا الى شعورهم الديني وتعلقهم بدولة الخلافة ـ التى كانت مهددة حينئذ بالاضمحلال ، ولكن الواقع الذى لاشك فيه ، أن اهتمامهم كان سياسيا أكثر منه دينيا ، لأن تقسيم الامبراطورية العثمانية كان معناه وقوع مصر فى قبضة انجلترا .

ثم بدأت الصحافة المصرية السياسية تظهر ، وبدأ الرأى العام يقوى أمام ضعف اسماعيل ازاء التدخل الأجنبى ، وظهرت فى البلاد حركة قومية دستورية تطالب بتغيير سلطة الحكومة المطلقة ، التى كانت فى الداخل رمز بطش وجبروت وفى الخارج رمز الضعف والاستكانة ، وتطالب أيضا باصلاح داخلية البلاد وماليتها لتخليصها من ربقة الأجنبى ، **وكانت الفكرة الدستورية** تستمد قوتها من العوامل الآتية :

١ ـ وجود مجلس نواب صورى سنة ١٨٦٦ كان آلة فى يد اسماعيل ، فلما تطورت الأحوال أراد المصريون توسيع سلطة المجلس واعطائه حق الرقابة الفعلية على أعمال الحكومة .

٢ ـ بعث المصلح الوطنى الكبير جمال الدين الافغانى فى نفوس المصريين منذ وفوده الى مصر سنة ١٨٧١ فكرة اقامة نظام دستورى لعلاج أحوال الشرق السياسية .

٣ ـ تمادى الأجانب فى أطماعهم وسطوهم على حقوق البلاد، لعدم اعتماد اسماعيل على حكومة شعبية ، مرتكزة على الأساس الدستورى ، وبالتالى فهى حكومة ضعيفة تعمل لمصلحة حاكم مستبد !!

٤ ـ كان للبعثات المالية الانجليزية التى وفدت الى مصر فى الفترة من (١٨٧٦ ـ ١٨٧٩) أسوأ الأثر فى التشهير بسوء

ادارة اسماعيل والنيل من روح ولاء المصريين نحوه ، واضعاف اخلاصهم له ، حتى يسهل بذلك للأجانب اغتصاب السلطة منه ٠

وقد لعبت بعثة السير ريفرزولسن (١٨٧٨) الدور الأكبر في هذه السياسة فنددت فى الأقاليم المصرية بأعمال اسماعيل ، وطلبت من المصريين أن يقدموا مظالمهم اليها ، ثم صرحت فى تقرير لها بأن الحكم المطلق هو أصل البلاء وحملت اسماعيل (بمرسوم صدر منه فى ٢٨ من أغسطس سنة ١٨٧٨) على انشاء مجلس وزراء متضامن فى مسئوليته ، برئاسة نوبار باشا وعضوية ريفرزولسن وزيرا للمالية ودى بلنيير وزيرا للأشغال ٠

ونخلص من هذا أن مصر فى تلك المرحلة العصيبة من تاريخها كانت تعانى من تدخل الأجانب وتغلغل النفوذ الاستعمارى فى جميع مرافقها سواء كانت أهلية (شركات) أو حكومية حيث كانت الادارة المصرية فى أيدى الأوربيين وترك الخديو اسماعيل البلاد سنة ١٨٧٩ وهى مثقلة بالديون ٠

كما شهد اسماعيل صبرى نهاية الثورة العرابية بل نهاية عرابى الثائر المصرى المخذول ، ورأى الانجليز يحتلون مصر ، ويفرضون على شعبها كابوس الاحتلال البغيض، فكان لهذه الأحداث أثرها المتباين فى نفسه ، وكانت مصر فى تلك الفترات ـ بالرغم من الاحتلال الانجليزى ـ ما تزال تابعة للخلافة العثمانية تدفع الأتاوة السنوية ويخطب فى مساجدها أيام الجمع بطول العمر للسلطان ، ولكن هذه التبعية كان شكلية ، لأن معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ قد حددت مركز مصر الشرعى الذى اعتزمت الدول احترامه ، فحين وقع الاحتلال البريطانى فى سنة ١٨٨٢ عصفت بالاستقلال المعترف به فى تلك المعاهدة ؟

وقد أثار الاحتلال البريطانى رد فعل قوى فى نفوس المصريين

الذين انشطروا شطرين ، فمنهم من كان يريد أن تظل مصر مرتبطة بالدولة العثمانية والاستفادة من علاقتها بتركيا فى تخليص البلاد من الاحتلال البريطانى ، ـ ومنهم ـ وقد ذاق حكم الاتراك البغيض وأتباعهم من الشراكسة ، ـ رأوا أن المصلحة الوطنية تدعوهم الى الدعوة بمبدأ « مصر للمصريين » ٠

كانت الوطنية المصرية اذ ذاك فى ابان نشأتها ، والدعوة اليها فى أشد قوتها بتأثير جمال الدين الأفغانى ، وكان أحمد عرابى وصفوة من أصدقائه المكافحين قد جعلوا شعارهم أن تكون مصر لأبنائها الخلص لا للدخلاء والمستعمرين ، الا أن اخفاق « الثورة العرابية » قد أدخل اليأس فى النفوس ، وران على صدور المصريين جوانب مظلمة من الخيبة والقنوط ، ذلك لأن ثورة عرابى التى قامت لأجل تحقيق حرية البلاد السياسية قد انتهت بفقدان هذه الحرية تماما ، ثم بفقدان الاستقلال الذى كانت تتمتع به من قبل ، وليس هذا فقط بل شهد المصريون خلال هذه السنوات التواء السياسة الانجليزية ونقضها عهودها فى الجلاء ، وشهدوا جمود الدول الأوربية ازاء المسألة المصرية ، وتركها انجلترا تعبث باستقلال مصر ما تشاء من العبث ٠

وشهدوا تهدم صرح الامبراطورية المصرية الواسعة الأرجاء التى أسسها محمد على باشا وخلفاؤه فى السودان ٠٠ بل شهدوا خضوع الحكومة المصرية لأوامر القنصل البريطانى والغاء الجيش المصرى وتأليف جيش جديد هزيل ، قائده وكبار ضباطه من البريطانيين ، والنفوذ البريطانى يتغلغل فى شئون الحكومة كافة من سياسية وحربية ومالية وتشريعية وادارية ثم شهدوا استسلام رجالات مصر لادارة العميد البريطانى وتقرب أكثرهم اليه والتماس الزلفى لديه ٠

وبينما مصر تتخبط فى خضم تلك الظروف العصيبة ، وقد بلغ اليأس من نفوس المصريين أقصاه ، ظهر على المسرح السياسى، شاب جرىء ، أخذ يبدد بخطبة ومقالاته اليأس والقنوط من نفوس مواطنيه ، ويثير فيهم روح التمرد والثـورة على الاحتلال ٠٠ ذلكم هو الزعيم الخالد مصطفى كامل الذى ناصب المحتـل الغاصب العداء ، وأثار موجة الغضب والكراهية والاحتجاج ضده ، فى جميع أنحاء العالم المتمدن ، طالبا جلاءه عن أرض مصر ٠

ورأى للوصول الى تحقيق أمنيته فى استقلال البلاد أن لايحارب فى جبهتين ، فهو فى ثورته ضد الاحتـلال البريطـانى رأى ان يصانع ولو مؤقتـا الخليفـة العثمانى للافادة من نفوذه وسلطانه الروحى ٠

ولكن هذا الاتجـاه دفع خصومه أن يتهموه بممالأة السلطان والعمل على نقل مصر من حكم الاحتـــلال البريطانى الى الحكم العثمانى ، وهى تهم روج لها أنصار الاحتـلال ولكنه رد عليهم بأسلوبه القوى اللاذع ٠

« أما دعواكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقـال من استبداد الى استعباد ، وانهم يطالبون خـروج الانجليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد فهى دعوى لايقبلها ذو لب ، ولا يسلم بها أحد من العقلاء ، فاننا نطلب استقلال وطننا وحرية ديارنا ونتمسك بهذا المطلب حتى آخر لحظة من حياتنا » (١) ٠

---

(١) من مقالته فى جريدة اللواء الصادرة فى ٢ مايو سنة ١٩٠٦ ـ كتاب مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية ص ٣٤٣ ٠

وقد عاصر اسماعيل صبرى باشا الزعيم الوطنى مصطفى كامل منذ حداثته حين كان طالبا بمدرسة الحقوق الخديوية ، وظهرت أول بواعثه الوطنية ، وظل متابعا جهاده ، ملازما ومشجعا اياه ، مؤيدا جهاده حتى وافاه الأجل المحتوم فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ ، وسوف نفرد فصلا خاصا بالعلاقة الوثيقة بين مصطفى كامل والشاعر الكبير فى الأبواب التالية من الكتاب ٠

التطور الاجتماعى فى مصر فى عهد الشاعر

أدرك الشاعر فى طور التلمذة ، حكم اسماعيل وعهده (١)، ويعتبر عصر اسماعيل عصر التجدد الاجتماعى ، ففيه أخذت الهيئة الاجتماعية المصرية تقبس من أساليب المجتمع الأوربى وعاداته ، ومال المصريون الى محاكاة الأوربيين فى جميع طرائق المعيشة ، وبصفة خاصة الطبقة المثقفة، التى حظيت بالثقافة الأوربية، والعلوم الأجنبية ، فانها صارت فى طليعة الطبقات الأخرى فى تقليد الأوربيين واقتباس عوائدهم وأساليبهم ومنها النافع ومنها الضار ؟

ففى المسكن شرعوا يبنون البيوت على النظام الأوربى ، وهجر المتعلمون ومن حاكاهم من السراة والأعيان الملابس الشرقية كالجبة والعباءة والعمامة وارتدوا الطربوش والبدلات الافرنجية ، وتضاءلت الأزياء القديمة وحلت محلها الأزياء الاوربية ، فيماعدا القبعة فقد أعرض المصريون عنها ومن مظاهر التطور الاجتماعى أقبال الناس على الرياضة والتنزه ، فارتادوا المتنزهات والضواحى وخاصة بعد انتشار العربات التى سهلت المواصلات بين العاصمة وضواحيها ٠ فأخذ سيل المركبات لاينقطع عصر كل يوم فى طريق شبرا، ثم فى طريق الجزيرة والجيزة والاهرام وكان لانشاء «كوبرى» قصر النيل فضل كبير فى

---

(١) راجع كتا عصر اسماعيل جزء ٢ لعبد الحمن الرافعى بك ٠

ميل الجماهير الى التنزه لاجتلاء محاسن النيل وجسره البديع والتمتع برياض الجزيرة والجيزة والقناطر الخيرية وغيرها ٠

وبدا على المجتمع الميل الى المرح والحبور ، ويرجع هذا الميل الى الثراء والرفاهية ، ثم انتشار التعليم ؛ ومن هنا ظهرت النهضة الغنائية في عصر اسماعيل ، وازداد اقبال الناس على سماع الأغاني والموسيقى ، وارتقت أساليب الغناء ، وزادت مكانة المغنين في النفوس وفي مقدمتهم عبده الحمولى وارتقى الذوق الموسيقى في المجتمع (١) ٠

وأقبلت الطبقات الممتازة على حضور المسارح ومشاهدة الروايات التمثيلية ، وابتدع الخديو اسماعيل عادات الرقص الافرنجي ، فكان يقيم في سراى الجزيرة وعابدين حفلات راقصة (بالو) بالغة منتهى الفخامة وكان يدعو اليها الكبراء وذوى المراكز الاجتماعية الكبيرة (٢) ٠ ورجال السلك السياسي ،وكانت«الوقائع المصرية » تعنى بنشر أخبار هذه الحفلات ، في مكان بارز من صحائفها ٠

وكانت لحفلات الأفراح في ذلك العصر بهجة بالغة ، فقد كان السراة والأعيان يفتنون في تفخيمها وتنظيمها ، ويتنافسون في مظاهر البذخ والاسراف فيها ، كما امتاز هذا العصر ببهجة الحفلات العلمية والمدرسية التى كانت تقام لمناسبة انتهاء العام المدرسي في المعاهد العالية والمدارس الثانوية والابتدائية ، فقد كان يحضرها الخديوى أحيانا ويشهدها كبار رجال الدولة ، وتوزع فيها الجوائز والمكافآت على أوائل الناجحين ٠ ولحفلات سباق الخيل في ذلك

---

(١) سيأتى ذكر ذلك في اسهام الشاعر في تأليف الأغاني لعبده الحمولى ٠
(٢) عهد اسماعيل جزء ٢ لعبد الرحمن الرافعى ٠

العصر مظاهر رائعة، اذ كان الجمهور يتسابق الى مشاهدتها في القاهرة (بالعباسية) وفي الاسكندرية ، واستمرت حفلات الموالد والأعياد الدينية موضع اقبال الناس ورعاية الحكام ٠

النهضة النسائية

وبدأت النهضة النسائيـــة في عصر اسماعيل ، اذ أنشئت المدارس لتعليم البنات(١) وبدأت المرأة تشترك في نصـيبها في النهضة ، الاجتماعية والأدبية ، فكانت الشاعرة « عائشة التيمورية» طليعة هذه النهضة ، وكان لرفاعة بك رافع الطهطاوى فضل كبير في ترقية المرأة المصرية ، وجاء بعده المصلح الكبير ورجل القضاء الشهير قاسم أمين ، فكتب كتابى « تحرير المرأة » ، « المرأة الحديثة » ودعا دعوته الكبرى بتحرير المرأة والغاء الحجاب ٠

الأسرة الحاكمة ـ (الخديوى والأمراء)

تفرعت الأسرة الحاكمة وكثر عدد أفرادها في عهد خلفـــاء محمد على ، وصـــاروا يمثلون طبقة ممتازة في المجتمع ، ورغم أن محمد على باشا عنى بتنشئة أنجـاله تنشئة صالحة ، فعلمهـم في المدارس وبعث بعضهم الى أوربا لاتمام علومهم ولم يقصر في تثقيفهم واعدادهم للقيام بالمهمات الكبرى ، الا أن خلفاءه قصروا في الاندماج في الشعب والاعتزاز بالانتساب اليه ، فمع أن محمد على هو باعث نهضة اللغة العربية وآدابهـا ، فان الأمراء والأميرات من آل بيته قلما كانوا يتعلمون اللغة العربيـة ، ويدرسونهـا ، وكانت اللغـة التركية هي لغة التخاطب والتفاهم في بيوتهم ٠ وقد عنوا بدراسة اللغات الأجنبية وبصفة خاصة اللغة الفرنســية ٠ وثمت ظاهرة أخرى بدت على الأمراء والأميرات من البيت العلوى ، وهي التنافس

---

(١) عهد اسماعيل جزء ٢ لعبد الرحمن الرافعي ٠

والتحاسد فيما بينهم ، مما أدى في بعض المواطن الى بغض متبادل وعداء شديد ، ولو ساد الوفاق بينهم وصرفوا جهودهم الى مافيه خير البلاد وسعادة أهلها لنالت على أيديهم أطيب الثمرات .

الموظفون :

ارتقى مستوى الموظفين عما كانوا عليه من قبل ، لأن كثيرا من الوظائف قد شغلها خريجو المدارس في عهد محمد على وخلفائه ، ولكن معظم الموظفين لم يضعوا نصب أعينهم الاخلاص في أداء الواجب نحو البلاد ، وتوفير مصالح الأهالى ورعاية الحق والعدل واتخذوا الوظائف وسيلة للاستغلال والاثراء ومن هنا جاء سوء الادارة وانتشار الرشوة ومظالم الحكام وقلما كان الرؤساء من الموظفين والحكام ينظرون الى مصالح البلاد والأهلين بل أهملت هذه الناحية اهمالا جسيما ، حتى لم يكن للأهالى حقوق محترمة ولا مصونة أمام الموظفين .

(١) الزراع والصناع والتجار

أما الفلاحون فقد ساءت أحوالهم بما زاد عليهم من أعباء الضرائب ، وما اقترن بها من القسوة في تحصيلها ، ولم يشعر الفلاح في عهد اسماعيل بالراحة والرخاء اللذين كان يشعر بهما في عهد سعيد ، وظلت السخرة قائمة حتى ذلك العهد ، ولم تكن قاصرة على المنافع والأعمال العامة بل كانت تستخدم لاستصلاح أطيان الخديوى وأطيان الحكام . وبقيت المظالم يرزح الناس تحت نيرها ، وقاعدة الحكام في معاملة الفلاحين هي القهر والارهاق .

---

(١) عصر اسماعيل الجزء الثاني : تاليف عبد الرحمن الرافعي بك .

وكان الضرب بالكرباج عادة مألوفة فى جباية الضرائب والاقتصاص ممن يخالفون الأوامر أو يستهدفون لغضب الحكام لأى سبب ، ولم يكن ثمة قانون ولا قضاء عادل يحميان الضعيف وينصفان المظلوم ٠

ولا رقابة على الحكام من حكومة عادلة أو مجالس نيابية أو صحافة أو رأى عام ، ووقع على الأهالى ارهاق آخر من ناحية الأجانب ٠ من المرابين وغيرهم ٠ اذ وجد هؤلاء من حسن رعاية الحكومة ومن حماية الامتيازات الأجنبية ما جعلهم يستغلون الفلاحين والأهالى الى اقصى درجات الاستغلال ، حتى انتزعوا منهم الأملاك والأموال وكبلوهم بالديون الباهظة ، ولم يجد الفلاح من الحكومة حماية لحقوقه ٠

٢ ـ الأعيـان

كان الأعيان أحسن حالا من الفلاحين وسائر الأهلين ، فقد اقتنوا الأطيان والضياع واستصلحوا أطيانهم القديمة ، وزادت ثروتهم بما أنشأته الحكومة من أعمال العمران كشق الترع واقامة القناطر وتسهيل وسائل الرى وانشاء السكك الحديدية وتعبيد طرق المواصلات ، فزاد دخلهم من أطيانهم ، وراعت الحكومة جانبهم ، وكانوا هم من ناحيتهم يخضعون لأوامر الحكومة ويتزلفون الى الحكام لينالوا رضاهم بالهدايا والرشا وما الى ذلك ٠ وكان الأعيان من الأسر الكبيرة يحتفظون بعصبيتهم العائلية ومراكزهم الاجتماعية . فازدادت منزلتهم وعظم جاههم وراعى الخديوى جانبهم ، وأنعم على كثير منهم بالألقاب والرتب ، وأسند المناصب الادارية والقضائية الى فئة منهم ، فكان منهم المديرون ورؤساء المجالس (المحاكم)

---

(٢) عصر اسماعيل الجزء الثانى : تأليف عبد الرحمن الرافعى ٠

الابتدائية والاستئنافية ، ومجلس شورى النواب كاد يكون مقصورا على طبقتهم •

وامتازت طبقة الأعيان بالكرم وقوة الأخلاق ، واتسموا بالشهامة والمروءة والوفاء وقل منهم من كان يسيء معاملة فلاحيه ويلوح لنا من هذه الناحية انهم كانوا خيرا ممن خلفوهم في العصر الحديث •

تاريخ حياة الشاعر

ولد اسماعيل صبرى بالقاهرة ، فى ١٦ من فبراير سنة ١٨٥٤، من عائلة متوسطة ربها تاجر من تجار العاصمة هو امام قتسدة ، ينتمى الى أصل حجازى ، وكان على جانب كبير من التقوى وان لم يكن على جانب كبير من اليسار ؛ وحرم العلم فى صباه ؛ ولكنه عزم على أن يعوض ذلك فى تعليم ابنه والانفاق عليه ، فعلمه أولا فى المنزل على أيدى الفقهاء ، درس على أيديهم مبادىء القراءة والكتابة وحفظ بعض أجزاء من القرآن الكريم ، ثم اذا استوى عوده ، ألحقه بمدرسة المبتديان الابتدائية الأميرية فى ٢٣ من أكتوبر سنة ١٨٦٦ ، وبعد أن أتم دراسته بها بنجاح وتفوق التحق بمدرسة الادارة والألسن سنة ١٨٧٠ ، وفى أثناء دراسته بهذه المدرسة ، ظهرت مواهبه الفنية فى تجويد الكتابة العربية ، حيث أنه منذ حداثته كان على حظ وافر من اجادة الخط والخبرة بمواضع الحسن فيه ؛ حتى أن أساتذته رغبوه فى الاشتغال بعد تخرجه ؛ بالتعليم فى مدارس الحكومة لمادة الخط العربى ، وكاد أن ينفذ هذه الرغبة ، لولا أن على مبارك باشا وزير المعارف فى ذلك الوقت ، كان فى زيارة للمدرسة ، وقدم اليه كأحد الطلبة النوابغ فى الخط العربى ، وأنه بصدد تقديم طلبه للوزارة ، بعد تخرجه للالتحاق بوظيفة معلم للخط العربى ، ولما ناقشه على باشا مبارك ، ووقف على تقارير

المدرسة ، ونتائج امتحاناته ، وتفوقه في المواد الدراسية ، أيقن أنه من الخسارة أن يهمل هذا الطالب وأن تقتصر الافادة منه على تعلم الخط العربى ، فأخذ فى اقناع الطالب للانصراف عن هذه الغاية وقال له (١) :

« انى ضنين بذكائك وعلمك أن تنقطع السبيل بها فيقفا عند غاية لاتخلق بمثلك ، وانى أعدك لما هو أسمى رتبة ، وأجدى على الأمة من الانتفاع بفضلك وكفايتك » ولم يزل يبالغ فى تعهده ورعايته حتى أتم دراسته وأرسل الى مدينة اكس بفرنسا ، للتخصص فى دراسة العلوم القانونية بها » .

وأمضى سنى الدراسة بنجاح ، ونال شهادة الليسانس فى الحقوق من كلية مدينة اكس فى ٢٠ من مايو سنة ١٨٧٨(٢) ، وعاد الى مصر ليعين مساعدا بمحكمة مصر الابتدائية المختلطة فى ١٨٧٨/٧/١١ ثم نقل الى محكمة المنصورة المختلطة فى ١٨٧٨/١٠/١ ثم نقل الى محكمة الاسكندرية الابتدائية المختلطة فى ١٨٨٠/٤/٢٩ .

ثم عين نائبا فى محكمة المنصورة فى ١٨٨٣/٢/١٣ ، ثم وكيلا لمحكمة طنطا الأهليه فى ١٩٨٤/١/١، وأنعم عليه بالرتبة الثانية ثم رئيسا لمحكمة بنها فى ١٨٨٦/٣/١٣ ثم رئيسا لمحكمة الاسكندرية الأهلية فى ١٨٨٦/٦/٢٢ .

وأنعم عليه بالنيشان المجيدى من الدرجة الثالثة سنة ١٨٩١، ثم عين قاضيا لمحكمة استئناف مصر الأهلية فى ١٨٩١/١١/٣٠ ، ثم وكيلا لمحكمة استئناف مصر الأهلية فى ١٨٩١/١٢/٢٧ وأنعم عليه رتبة المتمايز فى سبتمبر سنة ١٨٩٢ ، ثم أضيفت اليه أعمال

---

(١) ديوان اسماعيل صبرى المطبوع سنة ١٩٣٨ باشراف الاستاذ أحمد الزين .
(٢) ديوان اسماعيل صبرى المطبوع سنة ١٩٣٨ باشراف الاستاذ أحمد الزين

النائب العام لدى المحاكم الأهلية فى ١٨٩٥/٤/٢١ . ثم رقى الى منصب النائب العام لدى المحاكم الأهلية فى ١٨٩٥/١٢/٥ ، وهو أول مصرى يرقى لهذا المنصب ، **وفى ذلك يقول المرحوم حفنى بك ناصف مهنئا :**

لم ينلها سواك من أهل مصر — والمعالى بالخاطب الكفء تدرى

طمحت أنفس اليها فصانت — حسنها عنهم صيانة بكر

وابتغت كفئها فكنت رضاها — فهى شمس جرت الى مستقر

ثم عين محافظا للاسكندرية فى أول مارس سنة ١٨٩٦ ، ثم رقى الى وكيل الحقانية فى ٦ من نوفمبر سنة ١٨٩٩ ، وهذا هو أرقى وآخر منصب شغله فى الحكومة حتى اعتزاله الخدمة فى ١٩٠٧/٢/٢٨ .

وقد جاء فى ديوانه المطبوع سنة ١٩٣٨ باشراف صديقه الأستاذ أحمد الزين . أنه أحيل الى المعاش فى ١٩٠٧/٢/٢٨ بعد انتهاء خدمة فى الحكومة ومدتها ، ٤١ سنة ، ٤ أشهر ، ٢٠ يوما ، وهذا خطأ بين ، لأن اسماعيل صبرى من مواليد ١٦ فبراير سنة ١٨٥٤ كما جاء فى نفس الديوان اذ يكون عمره وقت تركه الخدمة ، ٥٣ سنة و ١٢ يوما ، أى قبل وصوله الى سن المعاش الرسمى وهو ستون عاما ، ويصبح الموضوع هو اعتزال الخدمة وليس احالة الى المعاش ، **ونحن نرجح أسباب ذلك فيما يلى :**

أولا : اعتناقه مبادىء الزعيم الوطنى مصطفى كامل ، واظهار تأييده له وتشجيعه ، علنا ، دون تحرج أو خوف ، ولم تكن حكومة الاحتلال الانجليزى تنظر بعين الرضا لأى موظف كبير أو ذى منصب رفيع فى الدولة ، يجاهر بتأييده مصطفى كامل وقد ترقى اسماعيل صبرى سلم الوظائف القضائية حتى وصل الى أعلاها وهى

وظيفة وكيل الوزارة ، وأصبح تجاوز هذا المنصب في ذلك الوقت رهينا بشيء آخر أكثر من الكفاية والذكاء وهو مالم يكن مستعدا لأن يضحى بوطنيته وابائه وكرامته في سبيله ٠

ثانيا : كان اعتزال اسماعيل صبرى الخدمة احتجاجا صامتا ، على انعقاد المحكمة المخصوصة صباح يوم ١٩٠٦/٦/٢٧ لمحاكمة المتهمين في حادثة دنشواى (مما سيرد أمره فى موضع لاحق بهذا الكتاب) ، واصدارها أحكاما صارمة على المتهمين ، متجاهلة أبسط قواعد العدالة والانسانية ٠ (وقد استصدر اللورد كرومر فى ١٨٩٥/٢/٢٥ مرسوما من الحكومة المصرية بانشاء (المحكمة المخصوصة) لمحاكمة من يتهم من الأهالى بالتعدى على ضباط وجنود الاحتلال بمصر ، وينص المرسوم على تأليفها برئاسة وزير الحقانية (العدل حاليا) وعضوية المستشار القضائى (الانجليزى) وقاض انجليزى من محكمة الاستئناف الاهلية ، والقائم باعمال المحاماة والقضاء فى جيش الاحتلال البريطانى بالقاهرة أو الاسكندرية ، ومن يختاره وزير الحقانية من رئيسى محكمة مصر أو الاسكندرية الابتدائيتين ، وقد جعل لها نظاما خاصا فلا تتقيد بأحكام قانون العقوبات ٠ وكان انشاء هذه المحكمة بمثابة انتقاص لسلطة القضاء المصرى وتثبيت لأقدام الاحتلال(١) ٠

وقد وجد اسماعيل صبرى فى تشكيل المحكمة المخصوصة ، باعتبارها محكمة استثنائية ، (لا دستور يقيدها (٢) ولا قانون يربطها ، ولقضاتها أن يحكموا بكل العقوبات ، دون التقيد بالقوانين

---

(١) احتج الزعيم مصطفى كامل على تشكيل هذه المحكمة ، ونشر الاحتجاج بجريدة الاهرام فى عددها الصادر فى ٤ مارس سنة ١٨٩٥ ٠

(٢) مصطفى كامل باعث الوطنية لعبد الرحمن الرافعى ص ٤١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ٠

المعمول بها ، ولا تستأنف أحكامها) اهانة كبيرة له باعتباره أكبر قاض في البلاد ويشغل أكبر مركز قضائي بوزارة الحقانية ، فلم يطق السكوت ، وحيث أن الظروف لم تكن متاحة أمامه لكي يقوم بعمل كبير ازاء هذه الكارثة الوطنية الكبيرة ، فقد استقال باعتبار الاستقالة احتجاجا صامتا على هذا الحكم الظالم .

ولا مراء أن حادثة(١) دنشواي كان لها الأثر البليغ في تطور الحركة الوطنية وفي مركز الاحتلال البريطاني ، فهي نهاية عهد كان الاحتلال يتمتع فيه بالاستقرار والطمأنينة ، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الجهـاد القومي ، عم فيها الشعور الوطني بعد أن كان الظن أن سواد الأمة راض عن الاحتلال .

والفترة ما بين اعتزاله الخدمة ووفاته سـنة ١٩٢٣ ، كانت وقفا على نظم الشعر والاتصال بالهيئات الاجتماعية ، وتقديم الخدمات للأدباء الناشئين ، وغشيان المجالس الأدبية ، كما لم يؤثر عنه أي نشاط سياسي معاصر لثورة سنة ١٩١٩ لاصابته بالذبحة الصدرية وملازمته الفراش ، وقد كانت وفود الأدباء والشعراء (وعلى رأسهم أحمد شوقي بك) تعوده وتزوره من حين لآخر .

ثقـــافته :

درس التركية والعربية والفرنسية بالمدارس المصرية ، ثم أكمل تعليمه العالي بفرنسا كما أوردنا آنفا ، ويدلنا شعره المبكر على أنه ألم من العربية بقدر مكنه من نظم الشعر وهو في السادسة عشرة من عمره ، وقد تمرس بأشعار البحتري ، مدمنا لقراءته ، مفضلا له على غيره من الشعراء ، وقد أخذ عن البحتري الكثير من حلاوة التنسيق

---

(١) المصدر السابق .

وعذوبة الألفاظ ووضوح المعني ، وعدا هذا فقد قرأ لشعراء كثيرين، وجمع من هذه القراءة ذخيرة كبيرة من الألفاظ والمعانى ، راضت قريحته ، وشحذت مواهبه ، أما اطلاعه على الأدب الفرنسى ، وقد اتيحت له فرصة ذلك حينما تلقي دراسته فى فرنسا ـ وقد حاول الدكتور محمد صبرى أن يتلمس آثار ثقافته الفرنسية فى أدبه ، وساق غير مثل على ذلك ، ولكننا نرى أن ما أورده له شبيه فى الأدب العربى القديم ، ونكاد نجزم أن اسماعيل صبرى حينما فكر فيه ، لم يرد على ذهنه الأدب الفرنسى وانما أعانته ذاكرته الواعية بما استظهره سابقا ، حينما كان يروض القول ويحاكى الأقدمين ·

اخلاقه :

نشأ الشاعر من أسرة كريمة ، تشبع منها بشمائل ممتازة ، يدلنا على ذلك ماظهر من أخلاقه وصفاته وطباعه على الملأ ، وما تحدث الناس عنه ، وآثرهم بالذكر صديقه الحميم أحمد الزين الذى قال عنه سنة ١٩٣٨ فى مقدمة ديوانه ·

« أكتب عن هذا الصديق الكريم ، والدمع يسابق القلم فى التعبير عما لازم نفسى خمسة عشر عاما ، من لوعة مستعصية على العزاء ، وذكرى أبية على النسيان خمسة عشر عاما خلت على فجيعة المودات الكريمة بذلك القلب الذى ما خطرت به جفوة وذلك اللسان الذى لم تجر عليه هفوة ولعمرى ان فجيعة الأصدقاء بفراقه لأشد وانكى من فجيعة الشعر لصحبته ، وقديما شكا الناس قلة الوفاء والأوفياء وما شكا أحد من قلة الشعر والشعراء » ·

وكان حليما متسامحا ، صورة رائعة لمكارم الأخلاق ، لايكيد لأحد ولو كان من ألد أعدائه لاعجزا ولاجبنا ، بل محافظة على ما يقتضيه شرف الخصومة ، شديد الضن بحزمه وصبره ورجولته

على الشكوى • فما سمعه أصدقاؤه قد شكا آلام مرضه العنيف في أخريات أيامه ، ولاجحود الذين أحسن اليهم وغمرهم ببره ثم بعد ذلك يقابلون احسانه بالكفور ووفاءه بالغدر، ولم تكن تلقاء الا باسم الثغر مشرق الوجه منبسط المحيا •

كانت تعلو سيماءه الوقار ، ويزين شخصه المهابة ، يدل مظهره النبيل على مخبره الرضي، وكان ذا شخصية جذابة ، لها نفوذ عجيب وتأثير بالغ على محدثيه ومرافقيه ومع ذلك فهو بين أصدقائه وفي مجلس الألاف والسمار السمير الذى لا يمل سماعه ، والظريف الأنيس في مداعباته وفكاهاته ، حلو النادرة سريع البديهة ، حاضر النكتة ، يرسلها مهذبة مبتكرة في لين صوت وحسن أداء ، وقرب مأخذ واصغاء من الجلساء •

وقد روى معاصروه من رجال القانون ، أن احكامه كانت تميل الى علاج المجرم لا الى الانتقام منه ، ففيها عطف وزجر ، مع مراعاة الظروف والملابسات التى تمت فيها الجريمة ، لأن قلبه ودماثة خلقه كانت لها أكبر التأثير في تصرفاته ، فرب انسـان دفعته ظروف قاهرة لارتكاب جرم ما ، لو راعى القاضى ظروفه وأوقع عليه حكما مخففا لخرج الى المجتمع دون حقد ولا موجدة ، ليستأنف حياته بين قومه ومعاشريه على أحسن ماتكون أساليب المعاملة والمودة •

وكان يرعى صغار الأدباء والشعراء ، وبصفة خاصة الناشئين منهم ، فهو يقربهم اليه ويفتح لهم أبهاء قصره يزورونه في غير ما خوف ولا رهبة ، يعرضون انتاجهم ويعرضون عليه ظروفهم وأحوالهم ـ فكان عند حسن ظنهم من رعايته لأمورهم ومصالحهم ، وقد حدثنى صديقى الشاعر الكبير أحمد رامى (١) ، أنه حين كان

---

(١) مجموعة اقرأ عدد ٣٦٨ أحمد رامى تاليف دكتوره نعمات أحمد فؤاد ص ٩ •

موظفا صغيرا في بدء حيـــاته الحكوميـة بدار الكتب كان يزور اسماعيل صبرى باشا في قصره ويجد في كنفه كل رعاية واكرام نعم كان اماما لافي أدبه فحسب بل في أخلاقه ونبله وسموه وترفعه عن الدنايا وحفاظه على أسمى مايجب أن يتحلى به الأدباء ٠

ومن أدلة اعتداده بكرامته ، انه ما كان يقبل مدحا فيه يعلم كذب قائله ، زاره مرة أحد الكتاب وقرأ عليه مقالا طويلا في مدحه والثناء عليه ، فألح عليه اسماعيل صبرى بعدم نشره ، ومنحه مبلغا من المال ليقبل رجاءه فسأله أحد أصدقائه عن ذلك فقال : انى اذا رخصت لهؤلاء في المدح الكاذب في حالة الرضا ، فقد رخصت لهم في الذم الكاذب في حالة الغضب (١) ٠

وفي أول مايو سنة ١٩٢٣ أقام الأدباء ورجال الفكر ، حفلة من أروع حفلات التأبين ، بدار المعلمين العليا بالمنيرة ، وكان ذلك بمناسبة ذكرى الأربعين ، وتحدث كل أديب عن الصورة التى كان يرى بها اسماعيل صبرى ، **وكان الحفل معرضا لاجود ماقيل من مراثي الشعر والنثر وكانت الصـــور التى ظهرت بهـــا ذكرى الفقيد هي :**

(أ) صورة صبرى الشاعر ، الذى كان يغوص « عمان » القريض ، ويعتاده دائبا لتهيئة دوره ، والذى كان يجيء بالقصـــار فيلبسها اعجاز قصار السور ٠

(ب) صورة صبرى الرجل السمح الذى روى عن شذى شمائله نسيم السحر ٠

(ج) صورة دار صبرى وقد ازدهر ناديها بزواره من عظماء العقول وقد خطر بينهم حافظ وشوقي ومطران ٠

---

(١) من أقوال الاستاذ أحمد الزين في كتاب ديوان اسماعيل صبرى ص ٢٥ ٠

(د) صورة صبرى السياسى الوطنى ، الذى أحاط الزعيم مصطفى كامل بحبه وتأييده وقد فقد الشـــباب بفقده نصـيرا من نصراء « رب اللواء » زعيمهم الأول ، **وفيما يلى أهم القصـائد التى** قيلت فى رثائه فى ذكرى الأربعين :

قصيدة حافظ ابراهيم في رثاء اسماعيل صبرى

نعاك النعاة وحم القدر | ولم يغن عنك وعنا الحذر
طوت ذبحة (الصدر) صدر الندى | فلم تطو الا سجل العبر
فأمسيت تذكر في الغابرين | وان قل مثلك فيمن غبر
اذا ذكرت سير النابهين | فسيرة « صبرى » تجب السير
لقد كنت برا بظل الشباب | فلما تقلص كنت الأبر
فلم تستبق نزوة في الصبا | ولم تستتح غفوة في الكبر

★ ★ ★

أهنى الثرى أم أعزى الورى | لقد فاز هذا ، وهذا خسر
أأول يوم لعيد الربيع | تجف الرياض ويلوى الزهر
ويذبل زهر القريض الثرى | ويقفر روض القوافي الغرر

★ ★ ★

رحمت فقد كنت حلو اللسان | جلي البيان صدوق الخبر
قليل التعجب جم الاناة | حكيم الورود حكيم الصدر
شمائلك الغرهن الرياض | روى عن شذاها نسيم السحر
لها مثل روح الدعاء استجيب | فعافى وآوى واغنى وسر
اذا ما وردت لها منهلا | وردت نميرا لذيذ الخصر

وفكرك في خصـــبه ثـروة لفكر الأديب (اذا) ما افتقـر
وشـعورك كالماء في صـــفوه وشـــعرك فيهن مثـل الحـور
عيون القصائد مثل العيون على صفحتيه تراءى الصـــور
وكم لك شكوى هوى أو أسى لها نفثات تذيب الحجـــر
هتفت بها مرة في الهجـــير فكـــاد يدب اليك الشـــجر
وكم كنت تشـــعل فحم الدجى بأنفاس حب طويل الســـهر
فيا ويــــح قلبـــك ماذا ألح عليه من الداء حتى انفطـــر
أيخفق تحت الـدجى وحـــده لذكرى أليف ســلا أو هجر ؟

الى أن قال :

زهـــدت على شـــهرة طبقت وجاه أظل وفضـــل ســـهر
خلعت الشـباب فلـم تبـــكه وساءك أنـك لم تحتضـــر
وقد ذقت طعم الردى عندمـــا أصيب قطارك يوم الســـفر
فأقســـمت أنك ألفيتـــه لذيذ المذاقـة اذ يحتضر
تمنيت أن لم تعـــد للحياة ولكن أباهـــا عليك القدر
وكم ساعة بين ســاع الحيـــاة سقتك المرار بكأس الضـــجر
فرحت الى أختهـــا شـــاكيا أذاتك منها فكـــانت أمـــر
ففتشت أثناءهـــا جاهـــدا بعيني بصير بعيد النظر
فلم تر فيهـــا على طولهـا هنيهة صفو خلت من كدر
وما زلت تشــــكو الى ان أتت كما تشـــتهى ساعة لم تدر

فلا صد تخشـــاه بعد الوصال ولا ضعف تشـكوه بعد الأشـــر

أريح فؤادك مما ضـــناه وصـــدرك مما عليه انكدر
تمنيتها خطوة للممـــات تفـرج عنك كروب الغير
وها قد خطاها فنلت المنى فهل في الممـات بلوغ الوطر
صـــدقت ففي الموت نصر الأبى على الدهر ان هو يوما غدر

من قصيدة أحمد شوقي في رثائه

أجـل وان طال الزمـــان موافي ... أخلي يديك من الخليل الوافي
داع الى حق أهاب بخاشــــع ... ليس النذير على هدى وعفاف
ذهب الشباب فلم يكن رزئي به ... دون المصاب بصـــفوة الألاف
جلل من الأرزاء في أمثـــاله ... همم العزاء قليلة الاسعاف
خفت له العبرات وهي أبية ... في حادثات الدهر غير خفاف
ولكل مـا ائتلفت من متكرم ... الا مودات الرجـال تلافي
ما أنت يا دنيا أرؤيا نائم ... أم ليل عرس أم بساط سلاف
نعماؤك الريحـــان الا أنه ... مست حواشـيه نقيع زعـاف
ما زلت أصحب فيك خلقا ثابتا ... حتى ظفرت بخلقك المتنافي
ذهب الذبيح السمح مثل سميه ... طهر المكفن طيب الألفـــاف
كم بات يذبح صدره بشكاته ... أتراه تحسبها من الأضـــياف
نزلت على سحر السماح ونحره ... وتقبلت في أكرم الأكتاف
لجت على الصدر الرحيب وبرحت ... بالكاظم الغيظ الصفوح العافي
حملوا على الأكتاف نور جلالة ... يذر العيون حواسد الاكتاف
وتقلدوا النعش الكـريم يتيمـة ... ولكم نعوش في الرقاب زياف
متمايل الأعـــواد مما مس من ... كرم ومما ضم من أعطاف
واذا جلال الموت واف سـابغ ... واذا جلال العبقرية ضـــافي

★ ★ ★

الى أن قال :

فجعت ربى الوادى بواحد أيّنها — وتجرعت ثكل الغدير الصافى
فقدت بنانا كالربيع مجيدة — وشى الرياض وصنعة الأفواف
ان فاته نسب « الرضي » أبوة — فلقد أعاد بيان عبد مناف
شرف العصاميين صنع نفوسهم — من ذا يقيس بهم بنى الأشراف
قل للمشير الى أبيه وجده — أعلمت للقمرين من أسلاف
قاضي القضاة جرت عليه قضية — للموت ليس لها من استئناف
ومصرف الأحكام موكول الى — حكم المنية ماله من كافى
ومنادم الأملاك تحت قبابهم — أمسى تنادمه ذئاب فيافى

قصيدة خليل مطران

شهب تبين فمـــا تؤوب ... فكأنهـــا حبب يـــذوب
أرأيت في كـــاس الطـــلى ... دررا وقد صعدت تصوب
هـــو ذاك في لج الدجى ... طفو الدراريء والرســـوب
لا فـــرق بـــين كبيرهـــا ... وصغيرهـــا فيمـــا ينوب
كل الى أجـــل وعقـــبى ... كـــل طالعـــة وقـــوب

★ ★ ★

اليوم نجم من نجـــوم ... الشـــعر أدركه الغـــروب
وثبت بـــه في أوجـــه ... الأسنى فغالتـــه شـــعوب
لقي الحقيقـــة شـــاعر ... ما غره الوهـــم الكـــذوب
أوفى على عـــدن ومـــا ... هو من محاسنهـــا غريب
كم بـــات يشهدهـــا وقد ... شفت له عنها الغيـــوب

★ ★ ★

يا خطب اسماعيل صبرى ... ليس تبلغـــك الخطـــوب
جـــزع الحمى لنعيـــه ... وبكـــاه شبـــان وشـــيب
واجتاز بحـــرا من دمـــوع ... الخـــلق مشـــهده الرهيب
اى صـــاحبى لقد قضى ... أستاذنـــا البـــر الحبيب

فعــرا ـ قلادتنـــا ـ وكانت زينـــة الدنيا ـ شـــحوب
اني لأذكــــــر والأسى بين الضـــلوع له شـــبيب
عهـــدا به ضمت فـــؤادا واحـــدا منـــا الجنـــوب
اذ بعضـــنا من غير مـــا نسب الى بعض نســـيب
وبغـــير قـــرب بيننـــا كـــل الى كـــل قـــريب
الشـــــعر الفنـــا فمـــا اختلف العريق ولا الخبيب

الى أن قال :

يا مصر قام العـــذر ان يعـــلق مضـــاجعك الوجيب
وعـــلى فقيـــد كـــالذى تبكـــين فليـــكن النحيب
مـــات الأديب وانـــــه فى كل معـــــنى للأديب
مات المحـــامى عن ذمـــارك دان قاضـــــيك الأريب
مـــات الأبى وتحت لين قـــوله الرأى الصـــليب
مات الذى تدعوه داعيـــة الولاء فيســــــتجيب
مـــات الذى ما كان مثـــــهـــده يـــذم ولا المغيب
مـــات الذى ما كـــان فى أخــــلاقه شىء يـــريب
مـــات الذى منظومـــه لأولى النهى ســـحر خلوب
الضـــــارب الأمثال ليـــس له بروعتهـــا ضريب



الى أن قال :

فاذهب ابا الشـــــــعراء فخرك ليس ضائره الذهوب
أما بنـــوك فعنـــد ظن النيـــل أبـــرار نـــدوب
نم عنهمو ومقالك العـــالى وجانبـــــك المهيـــب
لك فى النهى بعد النـــوى شـــفق ولكن لا يغيـــب

فنــه الشعرى

يعتبر اسماعيل صبــرى أول الشعراء المثقفين فى العهــد الحديث ، نال حظا وافرا من الدراسة الأكاديميــة بكلية اكس بفرنسا حينما أوفد فى بعثة رسمية اليها عام ١٨٧٤ واكمــل دراسته القانونية بها وعاد الى مصر سنة ١٨٧٨ ليلتحــق بأول درجات السلم القضائى ، واطلع على الأدب الفرنسى آنذاك ، الذى كانت تسوده الرفاهية الباكية التى كان يمثلها لامرتين(١) واخوانه الأرقاء الناعمون • فلذلك تأثر اسماعيل صبرى بذوق المدرســة (اللامرتينية) فى أحسن ما كانت عليه من شعــور وتمييــز ، وجاء (٢) شعره لطيفا تغلب عليه الرقة والحزن •

كما وأنه ثانى الشعراء الذين طرقوا الشعر السياسى بعد محمود سامى البارودى باشا فى العهد الحديث كما أنه سار على نهج البارودى أول شاعر فى العهد الحديث أيضا هتف بأمجــاد الفراعنة وأشاد بعلومهم وحضـــارتهم وتفـوقهم ، وغنى للأهرام

---

(١) الفونسى دى لامرتين ، شاعر فرنسا العظيم وكان كاتبا وخطيبا سياسيا ومجاهدا فى سبيل الحقوق المهضومة والمدافع عن الحريات فى كل قطر محــروم منها ولد ١٧٩٠ ومات ١٨٦٩ •

(٢) كتاب شعراء مصر وبيئاتهم : ص ٣٤ للكاتب الكبير عباس محمود العقاد •

وأبي الهول ولآثارهم الخالدة ، ودعا قومه أن يسيروا على نهجهم في العلم والمعرفة حتى يصلوا مجدهم بأمجـــاد الفراعنة الســابقين جدودهم وحول تيار الكراهة عنهم في عصرنا الحـــديث ، بعد أن استبعدنا وهم التفسير الخاطىء للدين ، فصـــببنا جام الكراهية عليهم ، وأخذناهم جميعا بجريرة فرعون واحد طرد موسى وبنى اسرائيل من مصر .

ويعد اسماعيل صبرى بحق أحد أقطاب حركة التطور في الشعر العربي الحديث التي طلعت في سماء الشعر طلوع الفجـر الجديد ، وكان رائدها الأول محمود سامي البارودي ، فقد اخرجت الشعر من ظلمات الهاوية التي تردى فيها أكثر من خمسة قرون ، تلفه أكفان الصنعة ، وجدب القرائح وفساد الذوق ، الى نور الفطرة السليمة ، وبهجة الديباجة ، وصحة التركيب ، بموهبـة ثرة ، واستعداد فني وأدبي متين .

كما واتجهت باسماعيل صبرى موهبته الشعريـــة وثقافته الأوربية القانونية ، وتكوينه الفني والأدبي الى رحاب الكلاسيكية ، فبدأ بها شعرنا الحديث طورا جديدا من جلال الصـياغة ورنين الموسيقى والاطار الأسلوبي القديم لتعبر عن عواطف الشاعـــــر وتجاربه أو تتصل بأحداث عصره صراحة أو رمزا ، ورغم أنه تمثل القديم ورمز به لعواطفه في بعض أشعاره الا أنه احتفظ بشخصيته وأثار به جوانب عصره فرد الى الشعر العربي أساليبه الناصعة التي كادت أن تندثر ، يعبر بها عن الحاضر في مجالاته المختلفة ، فيسحر بشعره الألباب ويأخذ به مجامع القلوب .

ومع أن اسماعيل صبرى عاش في عصر البارودي ، ويعد من رواد مدرسته الشعرية ، بل قد تألق نجم البارودي وهو لا يزال

في مهده ، ومع ذلك نحس عنده أنه لا يجرى في أثره ، فقد كانا من طبيعتين مختلفتين .

فالبارودى كان يعنى بمعارضة القدماء ، ويحاول أن يتخذ لنفسه اطارهم الجزل الرائع ، وان يعيد للشعر سيرته القديمة من خلال الأسلوب وفخامته ، ولذلك لم يكن في قرض أشعاره تاركا نفسه على سجيتها ، بل يأخذها بمحاكاة القدماء ويعلن ذلك اعلانا ، وما زال يحاكيهم حتى أطرد له أسلوب قوى رائع يلائم فيه بين القديم والجديد . فهو يحافظ على الصياغة التقليدية والفصاحة والجزالة والرونق والرصانة ، وهو يجدد فيضمن شعره خواطر نفسه وشجونها وأحداث بيئته وشئونها ، وبذلك استأنف البارودى لشعرنا العربي حياته الخصبة القديمة وهي حياة تقوم على التمسك بالأصول التقليدية من جهة ـ (فالبارودى يبقى عليها بل لا ينحرف عنها لا في وزن ولا صياغة ولفظ) ـ وتقوم من جهة أخرى على تصوير البارودى لذات نفسه وعصره والظروف الكثيرة المختلفة التى أحاطت به وأثرت في شعره وقد تبعه حافظ وشوقي فسارا في نفس الاتجاه .

أما اسماعيل صبرى فبدأ حياته مقلدا ، ولكن لم يكد يتقدم به سن الشباب حتى ذهب الى فرنسا في بعثة ، فدرس القانون وعاد من بعثته ليتقلب في المناصب القضائية المختلفة حتى صار وكيلا لوزارة الحقانية (العدل) ، فحياته كانت سهلة ميسرة ، وانحرف منذ نضجه الفنى عن طريق البارودى وصاحبيه شوقي وحافظ، فلم يكن يعنى مثلهما ومثل أستاذهما لمحاكاة القدماء ، بل كان يرسل نفسه على سجيتها ، فالشعر ينبغي أن يكون صورة لصاحبه قبل أن يكون صورة القدماء ، وينبغي أن يعبر عن حياته وأفكاره بدون معوقات من ألفاظ بيانية أو أساليب قديمة ، وحسب الشاعر أنه

ينظم البيتين والأبيات القليلة ، ويسجل خاطرة أو لمحة أو معنى من المعانى ، ولذلك لم يكن من أصحاب القصائد الطوال ، وانما كان من أصحاب للقطعات والقصائد القصار .

وكان شديد النقد لشعره ، كثير التعديل والتحوير فيه . حتى اذا استقام على ما يريد ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه . ورغم أن صبرى تفكه فى شعره بعض الشيء ولكنه لم يعرف الفكاهة الخالصة التى تنتهى الى الضحك ، لا تتجاوزه الى شيء آخر ، وانما عرف هذه الفكاهة التى تصدر عن النفوس المحزونة الكئيبة ، فتدفع الى الضحك والى الاغراق فيه ، ولكنها تعقب مرارة مستقرة مؤلمة . لأن حياة هذا الشاعر الرقيق الأنيق المترف لم تخل من صراع صامت ، فيه شيء من العنف الأليم بين نفس قوية ذكية ، وأسباب للرقى والسؤدد لا تكتفى بالنبوغ والتوثب ، وانما تريد اليها خصالا أخرى من النفاق والمصانعة ، والتقرب الى الحكام وأنصار الاحتلال البريطانى الجاثم بكابوسه على البلاد فى ذلك الحين ، ولم يكن من طبيعة الشاعر الحر الأبى أن يتصف بهذه الخصال . فقد تنقل فى المناصب القضائية ـ كما ذكرنا سابقا ـ حتى اذا انتهى الى وكالة وزارة العدل ، وأصبح تجاوز هذا المنصب فى ذلك الوقت رهينا بشيء آخر غير الكفاءة والامتياز !! وقف الرجل عنده ولم يتجاوزه ، ونظر ذات يوم فرأى أترابه وولدانه يصاعدون من حوله الى مناصب الوزارة ، وفيهم من كان دونه علمـــا وثقافة وخبرة ، ولعل نفسه أحست بعض الميل الى هـــذا الصعود ولكن الأسباب لم تمد له ، أو مدت اليه نلم يستطع أن يأخذ بها اباء وحياء . كما كانت هناك أسباب أخرى تدفع للأسى وهى تنكر ذوى قرباه رغم ما مد لهم من أسباب الوفاء ومهما يكن من شيء فقد استسلم صبرى للشـــعر ، ولكن فى قصد واعتدال . فلم يتخذه صناعة ولم يتخذه أداة للتفوق به على غيره ، ولم يتوسل

به للكسب أو ابتغاء غرض ، ولم يتوسل به للرقى ، ولكنه مع ذلك مدح ورثى وجامل مؤديا للحق أو مشاركا فى الفن ٠

أهم الأغراض التى قال فيها الشعر :

أجاد صبرى فى الحب والموت والوطن وقصر فيما دونها ٠

١ ـ الحب :

فالحب هو أقوى العواطف وأقربها الى القلوب ، بل يقول الفلاسفة أنه أساس كل عاطفة حتى البغض ، ولقد كانت هذه العاطفة العامل الأكبر فى شاعرية هذا الشاعر الفذ ، فأوحت اليه بالأبواب الخالدة التى سوف يتمثل الناس بها ، لأنها كانت فى صدره عاطفة قوية راسخة خالصة من كل الشوائب ، بل كانت شاملة لكل ما تنطوى عليه من المعانى الكثيرة من المحبة الى الوداد الى التسامح والاخلاص والوفاء ٠

٢ ـ الموت :

حدق اسماعيل صبرى الى المـوت مرارا ، فنظر فيه كثيرا واستوحاه الحكمة الرائعة ، بكلتا عينيه فكان تارة ينظر اليه قلقا وجلا فيقول :

أتزودت من ضياء البدور ليـال كثيفـة الديجور

وتارة ينظر اليه مرحبا مطمئنا فيقول :

يا موت ها أنذا فخـذ مـا أبقت الأيـام منى
بينى وبينـك خطـوة ان تخطها فرجت عنى

وقد رسمت هذه العاطفة المزدوجة ، تلك الابتسامة الحزينة

على محياه حتى كأن الناظرين اليه ، يخالونها زفرة وقفت عند شفتيه ، ودمعة جمدت فى عينيه ٠

٣ ــ الوطن :

وقد تجلت عاطفته الوطنية بأجلى بيان ، فيما نظمه فى مصر ورجالها المخلصين ، وزعمائها الميامين ، وما نظمه فى أمجاد مصر الخالدة ، وعزيمة أبنائها وعظمتهم منذ آلاف السنين ٠ وكان يدعو المصريين الى اقتفاء آثارهم ٠

مستنجدا من بنى مصرأولى شمم اذا رأوا ثلمة فى حوضهم جبروا

وقد وصف آثار مصر الرائعة ، وصــفا تتمشى العظمة فى جميع أجزائه ، ولا يتمالك من يقرؤها عن هزة اعجاب تدفعه الى السير قدما فى طلب العلا واقتفاء آثار الأجداد ٠

أما أثر تلك العوامل الثلاثة فى شعره ، فكان أطيب الأثر ، أكسبته من روعة المعانى ورقة العواطف جمالا زاد سناه حسن الديباجة وفصاحة اللفظ ، فكانت السلاسة والعذوبة والانسجام وسلامة الذوق من العوامل اللفظية فيما نظمه من القصائد وما وضعه من الأغانى ، التى كانت مصدر ــ البهجة والطرب أيام كان يتغنى الشعب بها فى مجالس أنسه وطربه ٠

وهكذا فالحب والموت والوطن ٠ هى العوامل التى كانت تحرك فيه الشعور الفياض وتنطقه بالحكمة الرائعة وتثير فى صدره الحماسة الشريفة ٠

وقد كانوا يلقبونه بلقب « أستاذ الشعراء » آنا وآنا « شيخ الشعراء » لأنه كان المثال المحتذى والعلم يهتدى به ، ولمكانتــه الاجتماعية ومركزه القضائى المرموق ، ولامتيازه وتفرده بالمناقب

السامية والشمائل الصافية ، وبعده عن الصغائر وسموه عن الدنايا !!!

شعره الوصفي :

لم يصلنا من شعره في الوصف الا مقطوعات قليلة جدا ، وهـذا غريب من شـاعر رقيق امتاز بخفة الروح ورقة الحس ، كأنه لم يولد بالقاهرة على ضـفاف النيل ، وتنقل بين ربوعه وأرباضه فشهد من روائع لوحاته وعظيم مشاهده ما يبهر الطرف في الاصـباح والامسـاء . تشرق عليه الشمس فتنبعث الألوان زاهية ترقص على أمواهه وتختال بين الظلال من خـلال النخيـل الباسق وتغيب عنه فتسبح العين في سحب رقيقة تحيط بقرص الشمس الحمراء وهي تحتضر مع المغيب ، فتعيش النفس في سحر مثير ووحي جميل .. !

وتمتد الصحراء المنبسطة الى غير نهاية على شطآن النيـل ، وتنعكس عليها أنوار الشمس ، وتضيع في طياتها ألوان السراب فتبدوا كأنها الأبدية أو كأنها البساط الذى يغطى أرض مصر في رفق ودعة ، وسحر وفتنة . أو كثيرا ما تحفل الصحراء من جليل الآثار وعظيم المعابد ؟

ولبحر الأبيض المتوسط يتلقف مياه النيل العذبة ، ويبتلع ما يحمل اليه هذا النهر ، فيسكر البحر بالغذاء والنماء ، ويظل أبدا بين مد وجزر ، يقبل أقدام مصر ويرتد عنها ليعود اليها ، مسحورا مفتونا .. وهذا كله مساعد للوحي والالهام . كل هذه المشاهد الخلابة ، باعثة على الشعر ، جديرة بالخيال ، خلدت منذ فجر الانسانية وشباب الدنيا شعراء وكتـابا وفلاسـفة وفنانين كانوا مفخرة التاريخ المصرى وقلادة الثقافة الانسانية .

وكل هذه المشاهد كانت جديرة بأن توحي الى الشاعر المصرى المعاصر لوحات تخلده بين أقرانه ، فيها اعتزاز بالقديم ، وفيها جمال وفتنة تحركان النشوة فى النفس والموسيقى فى الشعر والفتنة فى القول ، ولكنها مع ذلك لم تبعث فى شاعرنا اسماعيل صبرى الا أبيات متفرقات انفلتت من لسان الشاعر ، فكأن الطبيعة لم تنقش فى ذهن هذا الشاعر ذكرى قوية الا كما ينقش الأزميل فى الماء أو القلم فى الصحراء !!

ومع أنه تنقل فى عمله بعض التنقلات المحدودة ، تبعا لظروف مناصبه القضائية والادارية التى توزعت عليها مسئولياته ، أثناء عمله بوزارة العدل ، ولكنه كان يستقر أغلب أوقاته بالقاهرة وفيها قصره المنيف ، وناديه الأدبى الوثير ، ومجمع الأصدقاء والخلان ، فمر بالأزبكية والخليج المصرى ، ورأى الماء والشجر يتعانقان ، ثم وقف على الجسور يشهد النيل والأنوار ترقص على أمواهه ـ ألم يثر فيه ذلك أية قافية ؟

حتى يخيل لقارىء الديوان أن شاعره عاش فى المقهى أو فى منزل الامام محمد عبده ، أو أخلد الى بيته أو دار الكتب !! فلم تكتحل عيناه بمشهد الفلاح يغترف ماءه من النيل ، أو منظر الفلاحات يحملن جرارهن على رؤوسهن فى طول فارع وقامة فاتنة ولم يخلبه مرأى القوارب على النيل أو مشهد الأشرعة ينعكس عليها نور الشمس أو ضياء القمر فترسم أبرع اللوحات الطبيعية وكأنه لم يسهر ليلة على ضوء البدر يرسل نوره على عشرات المآذن ، وهى كالمسلات المزروعة فى قلب الأحياء ينعكس عليها الضياء وتنبثق من خلاياها صيحات الايمان فى جوف الليل .

كل ذلك لم يكن لصبرى اليه من سبيل ، كأن الطبيعة لا تحدثه ولا يحدثها ، أو كأنه وهب خياله وشعره للمصريين يناضل عن عيشهم بلسانه ، يهنىء البعض ويجامل البعض ، أما هؤلاء الذين

كانوا يقعون فى ساحات الموت من أصدقائه ومن الأفذاذ من بنى قومه فكان يبكي لبعدهم عن ميدان الكفاح وقد جالوا فيه وصالوا فيترحم عليهم ويسجل مآثرهم ، ثم ينبرى الى نفسه فيجد فى الموت مهددا لا يبعد أن يقرع البـــاب وما هو الا أن يستجيب النداء ، فهي سنة الكون ولن تجد لسنة الله تبديلا .

(١) وقال الشاعر حافظ ابراهيم فيه :

(صبرى) استثرت دفائني وهـــززتني
وأريتني الابداع كيف ينســق

فابحت لى شكوى الهوى وســـــبقتني
في مدح (عباس) ومثلك يســـبق

وفي سنة ١٩١٣ قال في شوقي وصبرى وهو يهنيء خليل مطران :

وتلونا آيات شوقي وصبرى فرأينا ما يبهر الأفهاما
ملآ الشرق حكمة وأقامـــا فى ثنايا النفوس أنى أقامـا
غنيا المشرقين ما تـــرك الأفلا ك حيرى وأذهل الأجرامـــا
وأعادا عهد الرشيد لعبا س فكانا يراعه والحساما

★ ★ ★

وقد نشر اسـماعيل صبرى بواكير شعره في مدح الخـديو اسماعيل وهو طالب بمدرسة الادارة بالعدد رقم ٢٠ من الســنة

---

(١) من كتاب شاعر الشعب ص ١١٢ تأريف الدكتور سامى الدهان .

الأولى (١٨٧٠) بمجلة (روضة المدارس) (١) ، فى قصيدة مطلعها (٢) ·

سفرت فلاح لنا هلال سعود ونمى الغرام بقلبى المعمود

وقصيدة أخرى بالعدد رقم ٥ من السنة الثانية (١٨٧١) قال فى مطلعها (٣) ·

أغرتك الغراء أم طلعة البدر وقامتك الهيفاء أم عادل السمر
وشعرك أم ليل تراخى سدوله وثغرك أم عقد تنظم من در

وأخرى بالعدد ٢٣ من السنة الثانية استهلها بقوله (٤) :

لا والهوى العذرى والوجد عذل عذولى فيك لا يجدى
انى مع الصد وطول الجفا باق على الميثاق والعهد

وتعتبر مجلة روضة المدارس من المجلات الأدبية الرائدة فى الربع الأخير من القرن الماضى ، فقد شجعت نبهاء التلاميذ بنشر قصائدهم المبكرة على صفحاتها ومنهم « الشاب النجيب اسماعيل أفندى صبرى أحد تلامذة مدرسة الادارة (وقتذاك) وكان ينشر صبرى قصائده أيضا فى جريدة الوقائع والمؤيد · وكان يذيل كثيرا من قصائده بتوقيع الشاعر المصرى القديم بنتاؤر ·

---

(١) مجلة روضة المدارس أنشأها العلامة على مبارك باشا سنة ١٨٧٠ حين كان وزيرا للمعارف ، وهى من أجل أعماله ·

(٢) غاية شوال سنة ١٢٨٧ هـ ·

(٣) ١٥ ربيع الأول سنة ١٢٨٨ هـ ·

(٤) ١٥ ذى الحجة سنة ١٢٨٨ ·

(٥) أنظر ص ٣٤٧ · كتاب عصر اسماعيل جزء ١ لعبد الرحمن الرافعى ·

اهم المؤثرات التى تأثر بها :

أولا : قراءته فى سن مبكرة ديوان ابن الغارض ، كما كان معجبا بشعر البحترى ، مدمنا لقراءته ، مفضلا له على غيره من الشعراء ، وقد روى عنه أنه حين قرأ ديوان البحترى ، خيل له انه لم يقرأ شعرا قبله ولذلك يعقد الدارسون مقارنة بين قصيدة البحترى فى الخليفة المتوكل والتى مطلعها :

اخفى هوى لك فى الضلوع وأظهر
وألام فى كمد عليك وأعذر

ومن قصيدة اسماعيل صبرى فى الخديوى عباس حلمي الثانى التى يقول فيها :

بعلاك يختال الزمان تبخترا وبقدرتك يتيه تكبرا

وقد ذهب البعض الى حد استقصاء المعانى والألفاظ فى شعره فى مقارنة له بشعر البحترى وابن الفارض ، ومع ذلك فاننا حين نقرأ شعر اسماعيل صبرى نجد أنه يذكرنا فى أماكن مختلفة بشعر الشريف الرضى فى عفته وسماحته . والبهاء زهير فى خفة روحه وسهولته ، وابن القارض فى صفاته وصدقه وشفافيته ، والبحترى فى ايقاعه الموسيقى وجماله ورقته وليس معنى هذا أننا نذهب الى البحث عن شاعرية اسماعيل صبرى فى هؤلاء من شعراء العرب وفي لامارتن شاعر فرنسا الكبير" وانما نقف كما وقف الدكتور محمد مندور عند حد تسجيل التجاوب بينه وبينهم وذلك بقول

« تأثيرهم فيه لا يعدو ان يكون قد عزز اتجاهات نفسه وساعد على نمو البذرة التى فطرت فيه » .

ثانيا : تأثر شعره الوطنى بالنشاط السـياسى العظيم الذى قام به الزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل ، وتابعه منـذ نشأته وهو طالب بمدرسة الحقوق الخديوية يرتاد النـوادى الأدبية والسياسية حتى سطوع نجمه فى سماء الحياة السياسـية ووفاته فى ريعان شبابه .

ثالثا : ارتياده الصالونات الأدبية التى تعقد فى منازل الأميرة اسكندرة أفيرينيو بالاسكندرية وصالون الأديبة الكبيرة مارى خير زيادة (مى) بالقاهرة ، ما عدا صالون الاميرة نازلى فاضل فلم يتصل به . لأن اللورد كرومر كان من المترددين عليه ، وخشى أن يرتاده فيظن به أنه يتقرب للاحتـلال ؟ وهو الأمر الذى يتجنبه ويحاربه ؟

آراء النقاد في الفن الشعرى لاسماعيل صبرى

قال الأستاذ الكبير المرحوم عباس العقاد (١) في شعر صبرى: « ان شعره لطيف لاتعمل فيه ، ولكنه كذلك لاقوة فيه ولا حرارة ، وان شئت فقل : أن أدب الرجل كان أدب الذوق ولم يكن أدب النزعات والخوالج ، وأدب السكون ، ولم يكن أدب الحركة والنهوض وأدب الاصطلاح الحسن ، ولم يكن أدب الابتكار الجسور » وضرب مثلا على أن صبرى ناعم يمثل الترف في حزنه وحماسته وعاطفته ، وأنه تنقصه الحرارة والانفعال والعاطفة بقوله « اذا قال شاعر أن عزيمة البطل الممدوح تصدم الصخر الأشم فتهده وتمهده ، قال صبرى أن عزيمة بطله تلامس الصخر فتنبت فيه الأزهار ·

وعزيمـــة ميمونة لولا مست   صخرا لعاد الصخر روضا ازهرا

ويقول بعض النقاد أن صبرى شاعر مقلد ، لم يوهب تلك الملكة الشاعرية المبدعة المبتكرة وأنه كان قصير النفس ، لايستطيع نظم القصائد الطويلة ، وأنه لم يكن شاعرا محترفا انما كان يقول الشعر لخطرات ترد على ذهنه · **وقد وصف الشاعر(٢) الخالد**

---

(١) كتاب شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٣٤ بقلم عباس محمود العقاد ·

(٢) ديوان اسماعيل صبرى باشراف الاستاذ أحمد الزين ·

خليل مطران الطريقة الفنية التي يجرى فيهـــا اسماعيل صبرى في نظمه فقال :

« أكثر ما ينظم لخطرة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدهما أو خبر ذى بال يسمعه أو كتاب يطالعه ، ولما كان لاينظم للشهرة بل لمجاراة نفسه على ما تدعوه اليه ، فالغالب فى أمره أن يقول الشعر متمشيا · وربما قاله فى حضرة صديق وهو مائل عنه بعنقه ، وله بين حين وحين أنة تمثل ما تنطق لفظة « ايه مستطيلة » · ينظم المعنى الذى يعرض له فى بيتين عادة الى أربعة الى ستة ، وقلما يزيد على هذا المقدار الا حيث يقصد قصيدة وهو نادر ·

شديد النقد لشعره ، كثير التعديل والتحويل فيه ، حتى اذا استقام على ما يريد ذوقه من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسبه ، وهكذا يمر به الان بعد الان فيجيش فى صدره الشعر فيرسل ببيتيه ، كما يطلق أنسان زوجى الطائر فى الفضـــاء فيذهبـــان فيه ضاربين من أشطرهما بأجنحة ملتمعة · شاديين على توقيع العروض الى أن يتواريا وينقطع نغمهما ··· ذلك هو الشعر للشعر » ·

وقال عنه المرحوم الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى (١) :

«ولم يكن فى مصر مما يحس ذوق البيان ، ويميز أقدار الالفاظ بعضها من بعض وألوان دلالتها كالبارودى وصبرى وابراهيم المويلحى والشـــيخ محمد عبده رحمهـــم الله جميعا ··· والبـــارودى يذوق بالسليقة ، وصبرى بالعاطفـــة ، والمويلحى بالظـــرف ، والشـــيخ محمد عبده بالبصـــيرة النافذة ·· وذلك شيء ركبـــه الله فى طبيعة صبرى ولم يحصله بالدرس أكبر مما حصله بالحس ، ومن أجله

---

(١) عدد المقتطف مايو سنة ١٩٢٣ ·

كان يفضل البحترى على غيره «ويقول الشاعر أحمد محرم عنه(١)»:

« وصبرى منذ القديم شاعر مقل ، فهو لا يستطيع المطولات ، ولايكاد يجيدها وقد نضجت شاعريته فأبدع فى مواضع كثيرة ، ولكنه بقى الشاعر المحدود . والفنان الذى يأخذ من الفن مايعجبه . ويأبى أن يعطيه ما يحبه وما يرضاه » .

« فصبرى شاعر مقل ، لا يكاد يجيد المطولات ، وذلك لأنه لم يحترف الشعر وان أراد أن يكون شاعرا معروفا » .

ولم يكن شعر صبرى أول عهده بالأدب يبشر بشاعر مقتدر يحدث أثرا يذكر فى عالم الشعر وأرى أن صبرى على الرغم مما أسبغ عليه معاصروه من ثناء ومديح ، وما أطروا به شعره - ولاسيما ذلك الذى قاله بعد عودته من فرنسا - وعلى الرغم من أنهم كانوا يلقبونه تارة بالرئيس وتارة بشيخ الشعراء ، من أنهم أثنوا على صدق عاطفته ودقة معانيه ورقتها لم يأت بجديد يذكر فى عالم الشعر ، وأنه فهم الشعر كما كان يفهمه الشيخ على الليثى وان كان أجود منه لفظا وأحسن معنى وأفتن ديباجة) .

ونحن لانستطيع أن نقر الشاعر أحمد محرم على نقده هذا لشعر صبرى فان فيه لغمطا وأن فيه لكثيرا من الانتفاص، ولا نوافقه فى أنه كان يفهم الشعر كما كان يفهمه الشيخ على الليثى لأن ذلك فيه انكار كبير لموهبته وشاعريته وعنت بالغ برجل كان امام الشعراء وقبلتهم فى عهده .

ولنسمع الآن رأى عميد الأدب العربى والكاتب المبدع الكبير الدكتور طه حسين فى شعر صبرى وشاعريته (فى مقدمته لديوان اسماعيل صبرى المطبوع سنة ١٩٣٨) :

---

(١) مجلة أبولو سبتمبر سنة ١٩٣٤ .

« ان نشر هذا الديوان يرد الى التاريخ الأدبى فصلا من فصوله القيمة ، وما أحب أن يظن بى الغلو فى ذلك أو الاسراف ، فقد أجمع الجيل الذى عاصر صبرى على أنه كان شاعرا ممتازا ، وعلى أنه كان علما من أعلام الشعر فيه ، ولم يكن هذا الجيل يذكر الشعراء الممتازين الا ذكر معهم صبرى ، فكانت الطبقة الأولى من شعراء العصر الحديث اذا ذكرت لم تخل من ذكره ، وقد يكون الجيل مصيبا وقد يكون مخطئا ، ولكن الحقيقة الواقعة أنه كان يضع صبرى فى هذه الطبقة ، لا يختلف فى ذلك ولا يجادل فيه » (١) ٠

وقد ذكر فى مقدمته الطويلة للديوان ، ان اسماعيل صبرى بدأ شعره مصطنعا ألوان البديع مثلما كان يصطنعه الشعراء فى عصره ، متكلفا أحيانا ، معتدلا أحيانا أخرى ، ومع ذلك فقد امتاز شعره بخفة الروح ورقة الحس ودقة الخيال وامتياز الطبع وحدة المزاج وارتفاع الذوق ٠

وعن شعره السياسى ، فانه يمثل الروح المصرى الذى نعرفه فى شعر حافظ ابراهيم وأحمد شوقى ، ونعرفه فى حياة الجيل كله ، هذه الوطنية الطامحة الى مثل أعلى غير محدود » وساق بعض الأبيات (تدليلا على ذلك) من قصائده الوطنية ٠

★★★

وقد غصت جميع الكتب التى تعنى بالأدب والشعر ، سواء كانت كتب عامة أو مدرسية باعتراف أغلب الشعراء (الذين عاصروه) له بالصدارة وبصفة خاصة أعلامهم فى العهد الحديث وهم شوقى وحافظ ومطران ، وذلك واضح فى مراثيهم له فى ذكرى الأربعين ، والاعتراف سيد الأدلة (كما يقولون) ٠

---

(١) مقدمة ديوان اسماعيل صبرى المطبوع فى سنة ١٩٣٨ ٠

وقد أتاحت الظروف لأحمد شوقي أن يتصل بأستاذه الكبير في وقت مبكر ، وأن يتردد على داره التي كانت منتجعا لكثير من شعراء عصره ، منذ أن كان موظفا في قلم السكرتارية بقصر الخديوى ، يعرض شعره على أستاذه « فيبصره بكل غميزة يجدها فيه ، من لفظة قلقة ، أو معنى متهافت أو صورة سوقية ، ومازال شوقي يعالج شعره تحت اشراف استاذه ؛ حتى استوت عنده ملكة الفن ، ودان له سلطان القريض وأصبح لا يشعر بحاجته الى مراجعة أستاذه » .

ولا يؤثر ذلك في شهرة شوقي بعد ذلك وبلوغه شأوا عاليا في مضمار الشعر حتى غدا أعظم شعراء مصر بل أميرهم في العهد الحديث .

وقال عنه انطون الجميل رئيس تحرير الأهرام

كانت القوافي تجول في خاطره فتصغى اذنه لحفيفها ، فيوقع نغمها ايقاعا شائقا .

واذا ماذكر اليوم أو غدا اسم صبرى في عالم الأدب ، وجدناه كالشمس التي تترك وراءها شفقا ذهبيا ، تاركا أشعة من رواء المعنى وصفاء المبنى ، ولكنه الشاعر الذى لايبهرك نور شعره ببريق خاطف يؤذى عينيك ، بل يبسط عليك من على مهل فيشملك بهالة من اللمعان لذلك لاتجد في شعره ماقد نجده في شعر غيره من التعب والعناء ـ لأنه ماتكلف نظم الشعر ، بل كان كلما هزته عاطفة ، يجود بمنظومة ربما لا تجاوز البيتين كالشجرة الناضجة الثمر تسقط ثمرة كلما هزها الهواء .

وقال عنه أيضا : ان شعره كالماسة الصافية الماء الطاهرة اللالاء السليمة من كل كدر وعيب ، ينسينا جمالها عناء من قطعها وصقلها

فنحن نقف عند جماله ناسين الشاعر وما لقى من عناء فى تصفية شعره ، وتخليص نظمه من كل شائبة » (١) ٠

ويقول أحمد امين فى شعره : (٢)

كان يغار على شعره غيرته على عرضه ، لقد كان فى عرضه يحرص على أن يطيب فى المحافل نشره ويخلد فى الصحائف ذكره ويأتى بالمكرمات يملأ مسامع الدهر وتتناقلها ألسنة الشكر، يترفع عن النقيصه ، ويتصون عن الدنايا، وهو فى شعره مثله فى عرضه، يخاف العثار ويرهب النقد ويتحرج ان يأتى بغير ماهو الأولى ، وأن يصدر عنه ماليس بالأعلى ، ويعد البيت يصدر عنه كالعقل المشهور ، والأثر المأثور ، يجب الحيطة له والتوفر على الاحسان اليه٠ دعاه ذلك أن يتريث فى شعره ويتمهل فى صوغه ، يغوص على المعانى كالغوص على اللالىء ، ثم لايقنع بأية لؤلؤة بل لايرضى بها الا أن تكون غاية القصد ، وواسطة العقد ، فاذا عثر عليها تعب فى أن يتخير لها مسلكها ووقفها ، حتى تخرج كاملة ، يعجب بها الذوق الراقى والفنان الخبير ، فهو يتخير اللفظ الشريف للمعنى الشريف واللفظ القوى للمعنى القوى ، واللفظ الرقيق للمعنى الرقيق ٠

ويقول فى موضع آخر :

« فما كنا نلقبه الا بلقب (أستاذ شعرائنا) أو (شيخ شعرائنا) لأنه كان مثالا يحتذى وعلما به يهتدى (٣) ٠

---

(١) فى مقدمة ديوان اسماعيل صبرى المطبوع سنة ١٩٣٨ ٠

(٢) فى مقدمة ديوان اسماعيل صبرى المطبوع سنة ١٩٣٨

(٣) كان اسماعيل صبرى مشهورا بلقب شيخ الشعراء ـ اعلام العرب ـ أحمد شوقى تاليف د٠ ماهر حسن فهمى ص ١١٥ ٠

أما الأستاذ أحمد حسن الزيات **فيقول في كتابه وحي الرسالة**

جزء (١) عن صبرى :

« أما صياغة حافظ ابراهيم فهي موهبته الأولى وهو في ذلك ثاني الخمسة ، البارودى وحافظ وشوقي وصبرى ومطران » الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر وتحددت على صفتهم بلاغة القصيد » .

الباب الثانى

الشعر الوطنى والسياسى

- تنديده بالظلم والاستعمار الايطالى
- الدعوة الى مجد الوطن
- علاقة اسماعيل صبرى بالزعيم الشاب مصطفى كامل
- تمثال مصطفى كامل
- حادثة دنشواى
- دعاباته السياسية ،

شعره الوطني والسياسي

كان اسماعيل صبرى شاعرا وطنيا من الطراز الأول ، فهو فى شعره الوطنى يصدر عن شعور صادق غير متكلف ، وشعور طبيعى يرد من روحه المتشبعة بحب بلاده ، وتقدير كل مخلص فى الجهاد لأجلها ، ورغم أنه كان مقيدا بقيود الوظيفة ويشغل منصبا من مناصب القضاء ــ ومناصب القضاء على مانعلم من المناصب التى تلزم أصحابها تقاليد خاصة ، وقواعد معينة من السلوك ، أكثر مما تلزمهم بها أنواع المناصب الأخرى · فالقاضى محدود الحركات والصلات ومحروم من كثير من نواحى الحرية الشخصية التى يتمتع بها باقى الموظفين ، وبالنسبة لما لمنصب القضاء من وقار واحترام ، فان القضاة يؤثرون التضحية ببعض حرياتهم على أن يندمجوا فى المجتمعات العامة فيكونوا مثارا للشبهة أو الاشاعة لذلك لم يخض اسماعيل صبرى غمار السياسة كما خاضها حافظ وشوقى ، وان لم يقل عنهما وطنية ، ينم عنها ما قاله فى بعض الحوادث التى هزت مشاعره هزا عنيفا فلم يجد من القول بدا ·

والملاحظ فى شعره السياسى أنه مدح الخديويين جميعا اسماعيل وتوفيق وعباس وحلمى وحسين كامل فقط ، ولم يمدح السلطان عبد الحميد أو سواه من الأتراك بينما نلاحظ أن كثيرا من شعراء المدرسة التقليدية الحديثة مدحوا السلطان عبد الحميد

أمثال حافظ وشوقي وعبد المطلب ولسنا نرى أن امتناعه عن مدح عبد الحميد راجــع الى خشيته من الانجليز وهو الموظف الكبير فى الحكومة المصرية التى تسـيطر انجلترا على شــئونها ، والتى كانت تسعى سعيا حثيثا لقطع الصلة بينها وبين تركيا حتى يخلو لها الجو، وتثبت أقدامها فى وادى النيل ·

وقد عرف عنه طيلة حياته ، أنه كان موظفا أبيا ووطنيا معتدا بذاته · ووطنيته صادرة عن جذور عميقة فى تكوينه ، فهو لم يخش الانجليز ولم يسع للتقرب اليهم · عزوفا عن المناصب الكبيرة اذا كان سبيله اليها التنكر لمبادئه الوطنية ، وليس أدل على ذلك أنه يـوم كانت دار السفارة البريطانية مقصد الكبراء والعظماء ، لم يفكر يوما فى زيارتها ، ولا تلبية لدعوة الحاكم الانجليزى الأعلى للبلاد آنذاك وهو اللورد كرومر ، الذى طالما استماله الى زيارته ليكسبه الى صف المناصرين للاحتلال ·

ورغم ان اسماعيل صبرى كان طموحا الى المجد ، ويشعر أنه مغموط الحق وأن من هم دونه ثقافة ومناقب قد وصلوا الى مناصب الحكم ، فقد أبى أن يصــل الى هذه المناصب عن طريق لايتفق مع علو نفسه ، ونبل خلقه ·

وقال عنه أحمد الزين :

« وقد قيل له لما استعصم وأبى زيارة اللورد كرومر ، لعلك لو فعلت كنت اليوم رئيسا للوزراء قال : وما تفيدنى رئاسة الوزارة غير اغضاب ضميرى وارضاء ذوى المطامع وأصدقاء الجاه » ·

قصيدته فى خلع السلطان عبد الحميد

« والذى لاشك فيه أنه لم يكن راضيا عن حكم عبد الحميد واستبداده ، وكان ينظر الى مصر وأهلها في الاستقلال نظرة قومية. فلا يمدح الا أمراءها الذين تولوا الملك ، شأن الرجل المستنير الراغب في نهضة بلاده ، مستقلة عن كل نير أجنبى والبرهان على ذلك قوله بمناسبة الانقلاب العثمانى وخلع السلطان عبد الحميد وتولية السلطان محمد الخامس سنة ١٩٠٩ **فى قصيدة مطلعها** » :

ياناظر الترك قد فارت مراجلهم
بين الدروب وفى عرض الميادين
قل للبراكين كفى نحن فى شغل
ذا اليوم عنك ببركان البراكين
هل الجبال الرواسى عندها خبر
بما تصدع من شم العرانين
وهل رأى النسر شيئا في السماء حكى
ماهز يلدز من بأس الشواهين

قالوا :

لقد خر من صرح العلا وهوى
ذو السلطتين ورب الكاف والنون
أهول به صيحة فى الكون قاصفة
تزلزل الأرض من حين الى حين
وتقشعر لها التيجان من فزع
فوق العروش على هام الخواقين
تا لله ان صدقوا فى قولهم كذبت
ألقاب ذو الملك من عز وتمكين

ثم يعتبر ذلك عظة بالغة لكل حاكم مستبد ، فيقول لعبد الحميد :

(عبد الحميد) سيحصي ماصنعت غدا
من الآثـام ويلقى فى الموازين
ان يرجح الخير ـ نعم الخير من عمل
دخلت فى زمرة الغر الميـامين
أو يغلب الشر ـ لا كانت عصابته
عددت في صرحه أقوى الأساطين
ان لم تكن ـ لاثناك الدهر عن أمد
شيخ السلاطين كن شيخ الفراعين
لا يرهقنك حكم الناس فهو غدا
مستأنف عند سلطان السلاطين

ثم يعود اليه ذاكرا أفضـاله

يا مقفر الملك الا من جـلالته ... وملبس القوم ثوب العز والهون
وجاعل الأمر والأحكام بينهـم ... سر الملائك أو سر الشياطـين

كما لا نراه يهلل ويكبر ، حين تعلن تركيا الدستور فى سنة ١٩٠٨ ، فما الذى يعود على مصر من ذلك ، اذا لم تنل هى الدستور وحكم الشـورى ؟ فليست مصر فى نظره مقاطعة عثمانيـة ، حتى ينالهـا ما نال تركيـا ، ولكنها محكومة حكما غريبا ، تتنازعه سلطتان ، وأهلها يعانون الاستبداد والبغى ٠

لذلك كان شعره فى هذه المناسبة استنهاضا للأمة المصرية للتشبه بالأمة التركية فى المطالبة بالحكم النيابى ٠

يا مصر سيرى على آثارهم وقفى ... تلك المواقف فى أسنى مجاليها
لا يؤيسنك ما قالوا وما كتبوا ... بين البرية تضليلا وتمويهـا
ان يمنعوا الناس من قول فما منعوا ... أن ينطق الحق بالشكوى ويبديها
الحق أكبر من أن تستبد بـه ... يد وان طال فى بطل تماديهـا

ما ضـيع الله ظلما أمة نهجت ... الى المفاخر نهجا وهو هاديهـا
فقلدوا الأمة الكبرى وقد ركبت ... متن الفخار وكان المجد حاديهـا
تماسكت وهى شتى فهى واحدة ... فيالقصد حينرأت كثرا أعاديها
يا آية الفخر هلا تنزلين ـ كما ... نزلت ثم ـ على مصر وأهليهـا
كيما تجر ذيولا منك جرهـا ... من قبلنا الترك فى أوطانهم فيها
(يا عابدين)لأنت اليوم مصدرها ... وفى ذراك ـ باذن الله ـ موحيها

كما لم يكن اسماعيل صبرى راضيا أيضا عن الاحتلال البتة ، رغم أنه لم يفصح عن ذلك علانية فى قصائده ، وان دلت مواقفه العديدة على الوطنية المضطرمة بين جوانحـه وان لم يعلن عداءه لانجلترا سافرا فاننا كذلك لا نستطيع أن نمسك عليه أى سقطة فى شعره الوطنى ، أو منحرف انحرف اليه كما انحرف غيره من الشعراء فى مدح الدولة المحتلة أو التزلف لها !!!

تنديده بالظلم والاستعمار الايطالى

منذ ان بدأت أوربا السعي الى اقتسام افريقيا ، ورأت ايطاليا أن انجلترا وفرنسا صارتا صاحبتى النفوذ فى مصر وتونس ، قويت أطماعها فى طرابلس ولم تأت سنة ١٩١١ حتى أغارت عليها تريد انتزاعها من تركيا ، ولما نشبت الحرب ، قال الشاعر قصيدته التالية يندد فيها باعتداء ايطاليا على طرابلس (ليبيا) ويندد بما فعلته من الغدر ونقض العهود والمواثيق ٠

ثم يندد بالامتيازات الأجنبية التى منحتها الأمم العربية للمستعمرين ٠

بعض هـذا الجفـاء والعدوان   راقبى الله أمـة الطليـان
قد ملأت الفضاء غـدرا وجهـلا   وتسنمت غـارب الطغيـان
وبعثت السفين ترمى طرابلـ   ـس بحرب مشبوبة النيران
تخرق البحر والمواثيق والعهـ   ـد جهارا وذمـة الجيران
سيرتها أضغان قـوم لقـوم   سلموا من دناءة الاضغان
من رآها تجرى توهـم ان الـ   قوم هبوا للثأر للاوطان

الى أن قال :

ليست الحرب للعدو الذى بـا   ت عزيزا بالرجل والفرسان
انما الحرب للألى حفظوا العهـ   ـد فنامت جيرانهم فى أمان

وأباحوا أبوابهم حاتميـــــــا ت لمن أمهم من الضيفـــــان
وأنالوهم حقـــوق بنيهـــم فعل أهل المعروف باللهفـــان
ويحهـــم ما لصنعهم أبطـر القو م فعقوا ما كان من احســـان
ولماذا تمخض السلم عن حـــر ب لظاها يشوى الوجـوه عوان
منح قد بذرن فى شر أيد كن مذكن منبت الكفـــران
هكذا فلتك المروءات فى عصـ ـر البهاليـل من بنى الرومان

وله قصيدة آخرى قالها فى ســنة ١٩١١ يذكر الايطاليين بمصرع الدولة الرومانيـة فى ررما ، حــين طغوا وغرهــم المجد والسلطان واتساع الملك فظلموا وبغوا حتى زالت دولتهم **وقال** فى **مطلعهــا :**

يا بنت روما لا تلومى كمـــا كانت أثينا بين قيل وقـــال
دفنت عدل الله فى أرضـــــه فاستوثقى من شر ذاك المآل
أهلك قــوم يبحثون الدمـــى ويزجرون الطير طير الخيـــال
لابدع أن طاروا بألبابهـــــم وأصبحوا من غيهـــم فى خيال
هذى طرابلس وأبناؤها الشجـ ـعان يزجون صفوف القتـــال

الى أن قال :

حلمت يا ليث ولما تثـــــــب فازأر فقد حان وضوح الهلال
فى يدك المنجل فاحصد بـــه أعمار أقوام طغـــوا فى الضلال

وترى الشاعر فيما قاله فى حرب (طرابلس ايطاليا) لا يصدر عن عاطفة دينية حادة كما يصدر شوقى مثلا ، وكما كان يشعر كثيرون من شعراء ذلك الجيل ـ وانما كان ينظر الى هذه الحادثة نظرة انسانية ، فيها اعتداء قوى مدجج بالسلاح ، على ضـعيف أعزل ، وفيها تنكر للمثل العليا الانسانية وفى هـذه الآبيـات يتسامى الشاعر الى مراتب الفكر الحر العالى ٠

الدعوة الى مجد الوطن

حث الأمة المصرية على طلب المجد : وذكرها بماضيها . فى قصيدة عصماء قالها على لسان فرعون يخاطب قومه ونشرت فى سنة ١٩٠٩ .

لا القوم قومى ولا الأعوان أعوانى
اذا ونى يوم تحصـيل العـلا وانى
ولست ـ ان لم تؤيدنى فراعنــة
منكم ـ بفرعون عالى العرش والشان
ولست جبـار ذا الوادى اذا سلمت
جبـاله تلك من غارات المـوانى
لا تقربوا النيل ان لم تعملوا عمـــلا
فمـاؤه العـذب لم يخلق لكسـلان
ردوا المجـرة كـدا دون مـــورده
أو فاطلبوا غـيره ربا لظمــآن
وابنوا كما بنـت الأجيال قبلكــم
لا تتركوا بعدكم فخـرا لانســان
لا تتركوا مستحيلا فى استحالتــه
حتى يحيط لكم عن وجــه امكان

ثم يذكر المصريين بمجد ملوكهم القدامى وعزمهم فيقول :

مقالــة هبطت من عرش قائلهــا
على مناكب أبطــال وشــــجعان

مادت لها الأرض من ذعر ودان لهـا
ما فى المقطــم من صخر وصـوان

لو غير فرعون ألقـاها على مـــلا
فى غير مصر لعـــدت حلـم يقظـان

لكن فرعون ان نادى بهـا جبـــلا
لبت حجارته فى قبضـــة البانـــى

وآزرته جماهير تســيل بهــــا
بطـاح واد بماضى القـوم مــلآن

يبنون ما تقف الأجيـال حائــرة
أمامه بين اعجـــاب واذعـــان

من كل ما لــم يلـد فكر ولا فتحت
على نظائره فى الكـــون عينـــان

اهرامهم تلك حى الفـــن متخــذا
من الصخور بروجا فوق كيوان (١)

قد مر دهر عليهـــا وهى ساخـــرة
بما يضعضع من صـــرح وايـــوان

لم يأخذ الليل منها والنهار ســـوى
ما يأخذ النمل من أركان ثهلان (٢)

---

(١) كيوان : اسم لكوكب زحل ، وهو لفظ معرب .

(٢) اسم جبل فى بلاد العرب (بلاد بنى عنبر بنجد) .

جاءت اليها وفـــود الأرض قاطبـــة
تسعى اشتياقا الى ما خلد الفانـــى

فصغرت كل موجـود ضخامتهـــا
وغض بنيانهـــا من كل بنيـــان

تلك الهياكل فى الأمصـار شاهدة
بأنهم أهل سبق ، أهل امعـــان

وأن فرعون فى حـول ومقـــدرة
وقوم فرعون فى الاقدام كفـؤان

الى أن قال :

اين الألى سجلوا فى الصخر سيرتهم
وصغروا كل ذى ملك وسلطـــان

بـادوا وبـادت على آثارهــم دول
وأدرجـوا طى أخبـــار وأكفـان

وخلفوا بعدهـم حربا مخلـــدة
فى الكون ما بين أحجار وأزمـان

وتصـور هذه القصيدة ما كان لمصر فى تاريخهـا القديم من جبروت وسلطان وما كان لعزائم أبنائها من حول وطول ، والقصيدة تعرض هذا فى منظر حى يقف فيه فرعون مصر خطيبا فى قومه ، مستعزا بهم ، واثقا من استجابتهم ، مطالبا اياهم أن يقوموا بحق النيل عليهم من الجد والعمل ، مناشدا اياهم أن يصلوا حاضرهم بماضيهم وأن يبنوا كما بنت الأجيال قبلهم ٠

هذه المقـالة التى هبطت من عرش قائلهـا لم تقع على اذان صماء ، ولا على عزائم واهنة ، ولكنها هبطت على منـاكب أبطال وشجعان استجابوا لها ، واستجاب معهم الصخر والجبل ، فلبت

حجارته ، وسال الوادى بجماهيره ، وارتفع البناء فى الفضاء فأصبح أعجوبة الزمان ، وحيرة الأجيال ، ومعجزة من معجزات الخلق والابداع ، والشاعر هنا حريص على أن ينصف الشعب ، وان ينفى عنه صفة الخوف والطمع وأن يثبت له صفات البر بفرعونه ، والرغبة فى الاجادة والاتقان . وليس أدل على هذه الصفة الأخيرة من تلك الأهرام ، التى وقفت على صفحة الأيام شامخة شموخ البروج فوق الكيوان تهزأ بالدهر ، وتسخر بما يضعضعه فى صرح وايوان واذا كان الليل والنهار لا يكران على شىء الا أبلياه فأنهما لم يأخذا منها الا بقدر ما يأخذ النمل من أركان جبل من الجبال ، وانها الوثيقة الخالدة لمجد مصر القديم ، تحج اليها الوفود من أقطار الأرض لتقرأ فيها أسطار العظمة والجلال ، ثم ترتد عنها وقد عرفت فضل المصريين بعد أن كانت تنكره ، وشهدت ما كان لهم من سبق وامعان ، ولو أن هذه الوثيقة استحالت صوتا ناطقا لأسمعت من به صمم من الأنس والجن ، بل لروعهم صداها بقوته ورهبته .

أما عن الفن الشعرى لاسماعيل صبرى ، فانه بهذه القوة فى الاسلوب والاجلال فى النظم والتخير للعناصر الموحية بالعظمة ، عرض على الأذهان صورة لمجد الفراعين تبهر العيون والآذان ، وتثير فى نفوس الأحفاد شعور العزة والفخر بمآثر الأجداد وتوجه الوطنية المصرية الحديثة وجهة البناء والاتقان ، ولن يقوم لمصر بناء حتى تستكمل سيادتها وتسترد حريتها . (والحمد لله فقد تم للبلاد استقلالها وللأمة حريتها فى عهد الثورة المجيد) .

وقد حشد الشاعر لهذه الدعوة الى الأحياء الوطنى كل ما شاء له فنه المتخير من موسيقى ولغة وصور بيانية ، فأما الموسيقى فانها تمثلت فى البحر الذى اختاره لقصيدته ، وهو بحر زاخر جياش ، يتسع للفكرة ، ويسمح للشعور أن يأخذ مجراه وينهض بما يحمله الشاعر من عناصر القوة والتأثير . وأما اللغة فهى تتمثل فى تلك

القوالب التى ترمز الى العظمة والخلود ، والعلو والارتفاع ، والجبروت والسلطان والملك والطاعة والبطولة والشجاعة ، وخضوع الصخر والجبل ، وتلبية الحجر فى قبضة البانى ، وسيل البطاح بالجماهير ، ووقـوف الأجيال حائرة بين اعجاب واذعان ، وشـموخ الاهـرام وسخريتها من الأيام ، ووقوف الليل والنهار منا موقف النمل من جبل ثهلان ، وضخامتها التى صغرت كل موجود وغضت من كل بنيان ٠

وأما التصوير البيانى فهو يتجلى فى تلك اللوحة الناطقة التى عرضها الشاعر لا عرضا اجباريا ـ ولكن عرضا تأثيريا ، تتحدث أشخاصه ، وتعبر هياكله وأطوادد وتشيع الحركة فى كل جوانبه ٠

علاقة اسماعيل صبرى بالزعيم الشاب مصطفى كامل

كانت الوطنية (١) الصادقة الحارة أظهر شيء فى حديثه اذا نطق ، غالبة على تفكيره اذا صمت ، رائدة فى جميع أعماله كلما حل أو عقد ، وولى أو عزل مستولية على ميول قلبه واحساسات نفسه كلما رضى أو غضب ٠

ولم يكن احساسه الوطنى احساس فرد يشعر بآلام أمة ذات ملايين هو واحد منها ، وله نصيب ضئيل من آلامها وآمالها ، بل كان شعوره باستعباد الأمة كأنه استعباد لشخصه ، مقصور عليه ، واحساسه بمذلتها كأنها مذلة موجهة اليه ، وتمنيه لتحرير وطنه كأنه تحرير له ، وتلك رتبة فى الشعور الوطنى وفناء الفرد فى المجموع قلما يرقى اليها شعور زعيم من زعماء الوطنية فى أى شعب ٠ ولعل أهم صفحة من صفحات اسماعيل صبرى خلودا ، هى الصفحة الخاصة بعلاقته بالزعيم الشاب مصطفى كامل ٠ بل لعل الصورة الوطنية الكاملة لهذا الشاعر لا تتم ملامحها ، وتشكل زواياها بدون دراسة هذه العلاقة وآثارها ونواحيها المختلفة وذلك بالنسبة للآثار الكبيرة التى انطوى عليها جهاد الزعيم مصطفى كامل ، ان العمل

---

(١) من أقوال أحمد الزين فى مقدمة لديوان اسماعيل صبرى باشا المطبوع ١٩٣٨ ٠

الوطنى الكبير الذى اضطلع بأعبائه ، ذلك الزعيم قد وضع بينه وبين جميع قادة البلاد الذين كان من سياستهم مهادنة الاحتلال واسترضاؤه حاجزا كبيرا ، فقاطعوه وأعلنوا عليه حربا شعواء ماعدا قلة من القـادة المخلصين ، آزروه وأيدوه ، وشـدوا أزره بأموالهم وجهودهم ، وانضمت لهم القوة الجمـاهيرية الشعبية التى التفت حوله ، وناصرته فى الجهاد وكان من هذه الصفوة اسماعيل صبرى ٠

كيف تعرف بالزعيم مصطفى كامل : ؟

كان من رفاق مصطفى كامل فى دراسة الحقوق ، فؤاد بـك سليم ، تلاقيـا لأول مرة بمدرسـة الحقوق الخديوية ، فتعارفت روحاهما وائتلفا ائتلافا قلبيا وروحيا وقويت بينهما من ذلك الحين أواصر الصداقة والمحبة ، وتعرف بوالده لطيف باشا سليم ، وكان علما من أعلام الحركة الوطنية ، تخرج من مدرسة أركان الحرب ، وتثقف ثقافة علمية وحربية عالية ثم تولى مهمة التدريس فى المدارس الحربية ، فكان خير معلم وأستاذ ثم عين مفتشا بوازارة التربية والتعليم ، ثم مديرا للفيوم ، ثم رئيسا فخريا للمحكمة المختلطة ، واشتهر بأخلاقه العالية ، ووطنيته الصادقة وشجاعته واستقلاله ، كان عالما واسع الاطلاع شـغوفا بالعلم والأدب ترك مكتبة حوت نفائس الكتب ، قديمها وحديثها ، وكان من زعماء الضباط الذين ثاروا على وزارة نوبار باشا فى عهـد الخديوى اسـماعيل فى فبراير سنة ١٨٧٩ ، وكان وقتئذ أسـتاذا بالمدرسـة الحربية ، وقد انتهت هذه الثورة بسـقوط وزارة نوبار الأولى ، وكان من أكبر أنصار مصطفى كامل ، عرفه مصطفى كامل منذ كان طالبا ، بواسطة نجله السابق الذكر ، وقد آنس فيه الاستعداد لبعث الحركة الوطنية بعد ما انتكست البلاد بهزيمة الثـورة العرابية وانتصـار الانجليز ، فكان يقـول عنه لنجله ، قبـل أن يعظم

شـأنه : (انه الشعلة الوطنية) وقد صحت نبـوءته ، وحققت الأيام فراسته وصدق نظره ، وظل طول حياته معضدا ومؤيدا له فى جهاده ، ولما مات حزن مصطفى كامل عليه حزنا عميقا كان له أثر فى انتكاس صحته أثناء مرضه الأخير :

كتب فى هذا الصدد الى مدام جولييت آدم بتـاريخ ٧ من يناير سنة ١٩٠٨ (أى قبل وفاته بشهر واحد)

يقول :

انى مريض جدا منذ السابع عشر من شهر نوفمبر ، وقد بذلت مجهودا فوق الطاقة لالقاء خطبتى فى الجمعية العمومية للحزب الوطنى « ٠٠٠٠٠٠ الى ان قـال : أمـا صحتى فهى بين اليـأس والرجاء ، والأطبـاء مطمئنون الآن ، والسبب فى انتكـاسى بعد خطبتى ، راجع الى مفاجأة المنون صديقا حميما لى ، كان من أشد وأكبر نصرائى هو المرحوم لطيف باشا سليم » ٠

وكانت وفاته قبيل فجر يوم ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٠٧ ولم يبلغ الخامسة والخمسين وقد نعـاه مصطفى كـامل وهو مريض بجريدة اللواء فقال عنه :

« آخانا رحمه الله على صغر سننا ، فكان أخا رءوفا ، وصديقا حميما ، ومواطنا محبا لبلاده ، لا قدرة لكاتب أن يصفه » ٠ وقد انتقلت صداقته لمصطفى كامل الى نجله فؤاد باشا سليم فظل حافظا لمودته وعهده على مر السنين » ٠

وكان للطيف (١) باشا سليم صالون أدبى ، تعقد فيـه الندوات الأدبية والسياسية ، يجتمع فيه كبار القـادة والأدباء

---

(١) مجموعة اقرا ـ مصطفى كامل لفتحى رضوان ٠

والعلماء ، وصفوة الطبقة المثقفة في البلاد ، وكان مصطفى كامل على صغر سنه ، وحداثة عهده من المترددين عليه بانتظام ، وقد استفاد من هذا الصالون ما جعله من صميم خططه في الكفاح الوطني وهي أنه لا سبيل لجلاء الانجليز عن البلاد ، بعدما قضى على القوة العسكرية بها الا بعمل سياسى ، أى بالدعوة فى الخارج والاتصال بكبار رجال السياسة الأوربية .

وقد غلبت على هذا الصالون النزعة الأدبية ، وسادته العقلية السياسية ففتح مصطفى كامل عينيه بشدة على هذه الحقائق الغريبة التى تكشفت لعقله ، وقد تعرف الى كبار رجال السياسة والأدب بواسطة هذا الصالون ، وتوثقت صلته بهم ، ونذكر منهم الشيخ على الليثى الشاعر والأديب الكبير ، الذى كان له الفضل فى توثيق صلته بالخديوى عباس ، وعلى بك فخرى وأمين باشا فكرى واسماعيل بك شيمى وآخرين من أعضاء مجلس الشورى والجمعية العمومية ثم بصفة خاصة تعرفه بالشاعر الكبير اسماعيل باشا صبرى ، الذى أولاه حبا واخلاصا وآزره بروحه وشعوره ، ولم يحل فارق السن بينهما (أكثر من عشرين عاما) من أن يظاهر اسماعيل صبرى صديقه الشاب في جهاده وكفاحه الوطنى ، فتراه دائما يثنى عليه في مجلسه ، ويقوى من شأنه ، ويدفعه الى المثابرة رغم ما واجهه من ظروف واحن كانت كفيلة أن تثنيه عن الجهاد وتضعف من عزيمته وتوهن من ارادته .

وقد اشار أحمد شوقى فى رثائه لاسماعيل صبرى . بهذه العلاقة العميقة التى بينهما حيث قال :

ويح الشباب وقد تخطر بينهـــــم
هل متعوا بتمســـع وطـــــــواف
لو عاش قدوتهم ورب « لوائهـــم »
نكس اللـــواء لثابت وقـــــاف

فلكم سـقاه الـود حـين وداده
جرب لأهـل الحـكم والأشـراف

لا يـوم للأقـوام حتى ينهضـوا
بقـوادم من أمسـهم وخوافـي

وكانت روح اسماعيل صبرى وأفكاره تبارك جهاد ذلك الزعيم الشاب ، وتحيطه بالتعضيد منذ كان طالبا في المعاهد العليا فقد أولاه صدق معونته وهـو يجاهد في سبيل مصلحة بـلاده وكأن اسماعيل صبرى يقول لنفسه (لو لم أكن قاضيا ، لاشتركت مع مصطفى كامل في العمل الوطني ، ولكنت معه جنبا الى جنب) رغم أن الوظائف القضائية الكبيرة التي تسنمها لم تحل دون أن يظهر تشجيعه وتأييده له عمليا وعلنيا كلما حانت الظروف المناسبة • ومن الأحداث التي أظهرت حقيقة اسماعيل صبرى وتقديره له ، أنه حينما كان محافظا للاسـكندرية وكان الزعيم مصطفى كامل عازمـا على الخطابة في احدى الحفلات السـياسية التي نظمها لذلك الغرض ، أوعزت الحكومة اليه أن يمنع اقامة هذه الحفل ، وبالتالي منع مصطفى كامل من الخطابة ، محتجة بالخوف على الأمن من أن يختل نظامه ، والقانون ان تنتهك أحكامه ، فأبى صبرى على الحكومة كل الاباء وخلى بين مصطفى وشعبه يخطبه كما شاء **وقال لولاة الأمور في الحكومة :**

« اني مسئول عن الأمن في المحافظة ، وسوف يخطب مصطفى كامل وأنا واثق من عدم حـدوث ما يخل بالأمن) !! وان هـذا التصرف من موظف كبير ، مرموق الشأن ليعد جرأة وشجاعة فائقة بالنسبة له ، لأن الحكومة لم تكن تنظر بعين الارتياح لأى شخصية مسئولة تتصل بمصطفى كامل أو تصادقها وكان بتصرفه هـذا يعلنها على الملأ بصراحة وبغير مواربة أو تخاذل ، أنه بقلبه وروحه يؤيد مصطفى كامل •

ولما مات مصطفى كامل ، جزع لفقده أشد الجزع ، وحزن عليه أبلغ الحزن ، وأعد قصيدة لرثائه ووقف على قبره وهو يوسد الثرى ، وبدأها بقوله :

أداعى الأسى فى مصر ويحك داعيا
هددت القوى اذ قمت بالأمس ناعيا

حتى ملكته العبرة ، وغاب عن الوعى ، وأجهش فى البكاء ، فلم يتمم تلاوة القصيدة وفقدت منه بعد ذلك ، ولعمرى أن هذا أبلغ مظهر لحبه ، وحزنه الشديد على الزعيم الشاب ، الذى راح فى عنفوان الشباب وشرخ الصبا محترقا بجذوة الوطنية ، ولو أنى سمعت من بعض قدامى المثقفين رأيا هذا مؤداه : (١) ٠

حين انفعل اسماعيل صبرى انفعالا شديدا وهو يلقى قصيدته ، ولم يستطع اكمال القائها ، أكملها نيابة عنه شاعر النيل حافظ ابراهيم ، ثم نسبت اليه خطأ ٠

وأوردها المؤرخ الوطنى الكبير عبد الرحمن الرافعى فى كتابه عن مصطفى كامل منسوبة إلى حافظ ابراهيم ولكن اذا عرفنا طباع اسماعيل صبرى وعدم اكتراثه بشعره ، وعدم احتفاله كثيرا بالعناية به ، وجدنا أن الأمر ليس من الصعب وقوعه ، فاذا كانت القصيدة نسبت الى حافظ إبراهيم باعتباره أنه الذى القاها ، وأن الصحف المعاصرة ذكرتها على هذا الأساس ، ولم يقم من الناس من يصحح الأمر ويجلو الحقيقة ، فهذا لا يمنع ان تكون القصيدة هى

---

(١) ذكر هذا الرأى الأستاذ محمد المرحوشى من كبار سراة وتجار القاهرة ورئيس الفرقة التجارية سابقا ، وهو من أعضاء ندوة الأستاذ الكبير توفيق الحكيم ٠ وقد نقل لى هذا الرأى عن الأستاذ راغب الدكرورى وكيل وزارة الداخلية السابق وكان ضمن الذين اشتركوا فى تشييع جنازة مصطفى كامل ٠

قصيدة اسماعيل صبرى والأمر لا يعدو الالتباس ولا بأس أن نورد هنا الأبيات الأولى من هذه القصيدة وهى من نفس الوزن والروى الخاص بالبيت الأول الذى ألقاه الشاعر : وسواء كان هذا الزعم صحيحا أو غير صحيح فلا جناح من ايراده ·

ايا قبر هذا الضيف آمال أمة
فكبر وهلل والق ضيفك جاثيا

عزيز علينا أن نرى فيك مصطفى
شهيد العلا فى زهرة العمر زاويا

ايا قبر لو أنا فقدناه وحده
لكان التأسى من جوى الحزن شافيا

ولكن فقدنا كل شىء بفقده
وهيهات أن يأتى به الدهر ثانيا

فياسائلى أين المروءة والوفا
وأين الحجا والرأى ويحك هاهيا

هنيئا لهم فليأمنوا كل صائح
فقد اسكت الصوت الذى كان عاليا

ومات الذى أحيا الشعور وساقه
الى المجد فاستحيا النفوس البواليا

اما قصيدته فى ذكرى الأربعين فهى فيما يلى :

اجل انا من ارضاك خلا موافيا
ويرضيك فى الباكين لو كنت واعيا
وقلبى ذاك المورد العذب لم يزل
كما ذقت منه الحب والود صافيا

ويعثر في بعض الخطـوب اذا مشى
الى بعض ما يهوى فيرجع داميـــا
وان رامه سرب المسرات لـم يجـد
محلا به من لاعج الهم خاليـــا
ألا عللاني بالتعـــازى وأقنعـــا
فـؤادى أن يرضى بهـــن تعازيـــا
والا أعينانى على النوح والبكـــا
فشأنكما شأنى وما بكمـــا بيـــا
وما نافعى أن تبكيا غـــير اننـــى
أحـب دموع البر والمرء وافيـــا
أيا (مصطفى) تا لله نومك رأبنـا
أمثلك يرضى أن ينـــام اللياليـــا
تكلم فان القـوم حولك أطرقـــوا
وقل يا خطيب الحى رأيك عاليـــا
لقد أوشكت من طول صمت وهجـرة
تخالك أعـواد المنـابر فانيـــا
وتبكيك ، لولا أن فيـــها بقيـــة
تعللها من ذلك الصـــوت داويـــا
فهل الفت ما بين جفنك والكـــرى
محالفـــة أم قد امنت الأعاديـــا

★★★

فقدناك فقدان الكمى سلاحــــــه
وسارى الدياجى كوكب القطب هاديا
وبتنا وقد باتت رفاتك فى الثرى
سـقاها الحيا تستبطىء الدمع هاميا

ولولا تراث من أمانيك عندنـــا
كريم بكينا اذ بكينـا الأمانيـــا

اطواك الردى طى الكتاب تضـمنت
صحائفه من كل فخر معانيـــا

مضـاء اذا البيض انتمت لأصولهـا
غضبنـا اذا سماك قـوم يمانيـا

ورأى يجلى اليأس واليأس ضـارب
على الأفــق ليلا فاحم اللون داجيـا

اذا ما تقاضينا ولم تك بيننـــا
ذكرناهما حتى نجيد التقاضـــيا

فليتك اذ أعييت كل مسـاجل
قنعت فلم تـعى الطبيب المداويـــا

وليتك اذ ناضلت عن مصر لم تفض
مع الحبر قلبا - يعلم الله - غاليـــا

★★★

لقد ضاع اخلاص الطبيب وحذقـه
سدى فبكى الفخر الذى كان راجيـــا

ولم تنتهز تلك العقاقير فرصـــة
ترى الناس فيها فضل (بقراط) باديا

يحييك سيفا بات فى الترب مغمدا
تقلده - فيما مضى الحـق ماضيـــا

وهذه القصيدة تعبر عن عاطفة جياشة ، وتنبىء عن لوعـة صديق محزون هده الحزن وأمضه الأسى ، الا أنه لم يصـور فيها مصطفى كامل المشتعل حماسة ، والثائر على قيود الرق وأغلاله بما

يليق به ، واكتفى بذكر الشجن والأسى والحسرات لفراقه ، وليس فيها من نبأ عن وطنيته الا اشــارات عابرة ، **ويبدأ القصيدة بهذا البيت :**

أجل أنا من أرضاك خلا موافيــا ....

ثم يقول :

تكلم فان القوم حولك أطرقـــوا ....

ويخيل اليك أن ســيفيض في ذكر مزاياه ، ثم يتحــدث باسهاب عن وطنيته ولكنه يشير بعد أبيات في ايجاز شديد ، الى أن مصطفى كامل كان سلاح مصر وكوكبها المضيء في دجنة الحوادث . وأنها فقدت هذا السلاح وهي أحوج ما تكون اليه . وهذا الكوكب ، وهي تتخبط في الظلماء ، ولولا ما خلفه من الأماني في نفوس مواطنيه لكان في بكائهم عليه بكاء على أمانيهم ٠

ويرى بعض النقاد أن اسماعيل صبرى لم ينطلق على سجيته وأنه يمشي بحذر ، خائفا يترقب ــ فثمة الانجليز وثمة القصر ، وكلاهما غير راض عن مصطفى كامل ولكنه كان على كل حال أجرأ من أحمد شوقي في هذه المناسبة ٠ ولكن هذا الرأى مردود ، لأن الشاعر قد اعتزل خدمة الحكومة في ١٩٠٨/٢/٢٨ ، وأنه لم يكن يخشى بأس الانجليز سواء أثناء خدمة الحكومة أو بعدها وكان شجاعا في ابداء رأيه ، بكل ما تحمل هذه الكلمة من معاني ٠

تمثال مصطفى كامل

انتهت حياة مصطفى كامل كما تنتهى حياة الشهب الخاطفة ، نلمحها حين تمر بمجالنا الجوى ، ذات نور ساطع خاطف ، ثم تعبر وتختفى ، ووجمت النفوس من هول المصاب ، وهلعت القلوب . لاختفاء هذه الشخصية الفذة فى تاريخ الوطن الى الأبد ، وخلا المنبر من خطيبه الشاب الوطنى العظيم ، وحرمت الجماهير رؤية هـــذا المحيا الساطع المضىء ، فكان لا بد من اتخاذ اجراء لتخليد ذكره ، حفاظا على عهده ومبادئه ؛ وتخليد صورته وشخصيته الملهمة لكى تراها الأجيال القـادمة التى حرمت من سماعه ورؤياه ، فاتجهت الأفكار الى اقامة تمثال له ، وتلك هى قمة التقدير الوطنى للزعيم الشاب الوفى ، المؤسس للحركة الوطنية الحديثة فى هذا القرن .

ولأول مرة فى تاريخ مصر ، منذ الاحقاب العريقة فى القدم ، منذ كان المصريون يشيدون التماثيـل الضخمة لملوكهم المعبودين ، يشترك المصريون عن طواعية واختيار ، فى اقامة تمثال لواحد منهم ، لم يكن ملكا ولا أميرا ولا حاكما . ومن أموالهم الخاصة لا من أموال الدولة الحاكمة ، وجميع التماثيل المقامة بالبلاد حاليا هى من عمل الحـكومات لا من عمل الأفراد ؟؟) ولذلك كان لهذا العمل مغزاه ودلالته العظيمة .

ويشرف تاريخ الشاعر اسماعيل صبرى أنه كان على رأس اللجنة التى شكلت لتنفيذ هذا المشروع الوطنى ، فى ١٦ من فبراير سنة ١٩٠٨ أى بعد وفاة مصطفى كامل بأيام قلائل ٠٠ (١) وضمت فى عضويتها محمد بك فريد خليفة مصطفى كامل العظيم ومكمل رسالته ، والناسج على منواله ، والدكتور محمد علوى باشا ، وأحمد لطفى السيد بك (صاحب الآراء المخالفة لصاحب الذكرى تماما ولكن ذلك لم يمنعه من الاعتراف بوطنيته) وحسن باشا عبد الرازق ومحمود بك أبو النصر ، وعلى بك فهمى كامل شقيق مصطفى كامل ٠ ومرقس حنا باشا وويصا واصف بك عضوا اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى (ومن زعماء حزب الوفد المصرى بعد ذلك) وعبد العزيز فهمى باشا من أصدقاء مصطفى كامل (ورئيس حزب الاحرار الدستوريين فيما بعد) وفؤاد بك سليم ويوسف صديق باشا والياس بك عوض ، وعمر بك سلطان ، واحمد بك عبد اللطيف ٠

أى أن هذه اللجنة تمثل خلاصة الطبقة المثقفة الممتازة فى مصر مسلمين ومسيحين ولعمرى فان ائتلاف هذه النخبة الممتازة برئاسة اسماعيل صبرى ليشهد له بالشخصية التى اكتملت فيها مقومات الوطنية ، والنبل ، والمناقب العالية على أسمى مستوى ٠

نشاط اللجنة ٠

اجتمعت اللجنة المذكورة لأول مرة في مبنى ادارة صحيفة (الجريدة) وكان مديرها احمد بك لطفى السيد فى يوم الاحد ١٤ محرم سنة ١٣٢٦ الموافق ١٦ فبراير سنة ١٩٠٨ فى الساعة ٣ بعد الظهر باعتبارها لجنة هذا المشروع ــ الجليل واصدرت قرارا للامة نشر فى جميع الصحف المصرية وتناقلته صحف العالم كله وهذا نصه :

(١) كتاب مصطفى كامل باعث الوطنية ص ٣٠١ لعبد الرحمن الرافعى ٠

أولا : اختيار سعادة اسماعيل صبرى باشا رئيسا للجنة والدكتور محمد علوى باشا والياس بك عوض وكيلين ، ويوسف صديق باشا أمينا للصندوق .

ثانيا : تخصيص المبالغ التى تجمع من الاكتتاب لاقامة تمثال للمرحوم مصطفى كامل باشا بالقاهرة ويخصص ما يتبقى من ذلك لمدرسة مصطفى كامل المعدة لقبول جميع الطلبة المصريين بلا تمييز فى الدين على الطريقة التى تقررها اللجنة فيما بعد .

ثالثا : جميع المبالغ التى تجمع من الاكتتاب تسلم لأمين الصندوق لايداعها بأحد البنوك وهو البنك الألمانى الشرقى .

رابعا : تقبل اللجنة كافة المبالغ المكتتب بها مهما قلت قيمتها وسواء ذكر اسم صاحبها أو لم يذكر .

خامسا : يقفل الاكتتاب بعد مضى شهرين من تاريخ اليوم أى فى ١٩٠٨/٤/١٦ .

سادسا : تجتمع اللجنة بمركز ادارة الجريدة كل يوم أحد فى منتصف الساعة الرابعة بعد الظهر وتكون قراراتها نافذة متى حضر الاجتماع خمسة من أعضائها بما فيهم الرئيس .

وبناء على ذلك أقفل المحضر ووقع الحاضرون .

★ ★ ★

على أثر نشر هذا القرار فى الصحف العربية بعث المواطنون من جميع أنحاء البلاد اكتتاباتهم لكل من جريدتى اللواء والجريدة.

ولم يكن مؤثرا فيهم الا شعورهم الوطني ومجرد الدعوة في الصحف ولم ترسل اللجنة مكتوبا واحدا لأى مصرى لتحثه على الاكتتاب ولا الفت لجانا متعددة لهذه الغاية كما يفعل القائمون بأمثال هذا المشروع ·

فجاء الاكتتاب دليلا على ان هذا العمل قد تم بمحض شعور الأمة وارادتها أما ما ورد من الاكتتاب لتخليد أثر الفقيد العظيم وما صرف في سبيل صنع هذا التمثال فهذا بيانه :

مليم	جنيه	
٠٠٠	٢١٠٠	ما ورد من اكتتاب اللواء
٠٠٠	١١٥٠	ما ورد من اكتتاب الجريدة
٠٠٠	٣٢٥٠	المجموع الكلى
٠٠٠	٢١٢٠	مصاريف صنع التمثال ونقله الى مصر
٠٠٠	١١٣٠	الباقي وقد قرر علي بك فهمي كامل صرف هذا المبلغ على شراء عين مثمرة تكون وقفا على التعليم المجانى بمدرسة مصطفى كامل

صنع التمثال :

كلفت اللجنة محمد بك فريد الاتفاق مع أحد مشاهير المثالين على صنع هذا التمثال فعرض أمره على مسيو لابلانى مدير مدرسة الفنون الجميلة التى أسسها بالعاصمة الأمير يوسف كمال وهم جنابه بصنعه لولا أن حالت ظروف قصر المعدات الموجودة بمصر عن تنفيذ المشروع مما حدا بمحمد بك فريد على أن يتصل بأحد كبار المثالين بباريس وهو المثال الكبير المسيو ليوبولد سافين ، على أن يصنع تمثالا بالحجم الطبيعى لمصطفى كامل من البرونز ؛ رقد أتم

عمل نموذج للتمثال من (الجص) وعرضه في معرض الفنون الجميلة بباريس في شهر مايو ١٩١٠ فنال هذا النموذج الجائزة الأولى وأثنت جميع الصحف الفرنسية عليه ٠

وأتم صنع التمثال الحقيقي في أواخر عام ١٩١٣ ووصل القاهرة في أول يناير ١٩١٤ ٠

جهود اللجنة لاقامة التمثال :

قام اسماعيل صبرى بوصفه رئيسا للجنة بالاتصال بالحكومه في شأن هذا التمثال ونصبه في أحد الميادين العامة بالقاهرة ، وكان الاتصال الأول بوزير الأشغال حسين فخرى باشا في وزارة مصطفى فهمي ، الذى طلب من اللجنة بيانا عن المكتتبين وما اكتتبوا به ولما تأكدت الحكومة ان عدد المكتتبين في هذا التمثال بلغ ٢٣٤١٦ مكتتبا وكلهم يمثلون جميع طبقات الأمة تأكدت انه من عمل الأمة ووعدت بنظرها في الأمر عند قدوم التمثال ، أما الاتصال الثاني فكان في وزارة بطرس غالى باشا وكان صديقا للشاعر فوعد بانجاز الموضوع حالما يصل التمثال ، والمرة الثالثة في وزارة محمد سعيد باشا وقد كانت في أواخر أيامها فلم تبت في الأمر ٠

ثم جاءت وزارة حسين رشدى باشا التي دهمتها الحرب الكبرى الأولى فسكت الناس جميعا عن التمثال ٠

وما ان وضعت الحرب أوزارها وتنفست الأمة الصعداء ونادت باستقلالها التام حتى عاد الاحتفال بذكرى مصطفى كامل سيرته الأولى وتساءل الناس من كل حدب عن تمثال مصطفى كامل صاحب الفضل الأكبر في اليقظة الوطنية الأولى وقد ظن أغلبهم انه لم يصنع أو أنه ان كان قد صنع ليس موجودا في مصر ٠

لذلك رأى على بك فهمى شقيق ، مصطفى كامل حسما للأمور وردا على أسئلة الجماهير ، فتح الصناديق المحفوظ بها التمثال واقامته فوق منصه من منصات كلية مصطفى كامل وعرضه على الشعب فى الاحتفال بالذكرى الثالثة عشرة لوفاة «مصطفى كامل».

وما ان علمت اللجنة التنفيذية للحزب الوطنى بالكشف عن صناديق التمثال حتى قررت ان يكون الاحتفال بالذكرى فى ذلك العام (١٩٢١) يوم الخميس ١٠ فبراير سنة ١٩٢١ لحفلة السيدات ويوم الجمعة ١١ فبراير لحفلة الرجال وناطت تنسيق الحفلة الى لجنة من خيره أعضاء الحزب فكانت أثيرة فى البهجة والكمال – وخرج على بك فهمي كامل للصحفيين فى هذا الاحتفال وقال ان نصب التمثال فى كلية الفقيد هو عمل مؤقت لأن الأمة ما اكتتبت فى صنعه ليكون بين أربعة جدران بل ليكون فى أكبر ميدان فى العاصمة وما كشف عنه فى كلية مصطفى كامل الا لأنه كان مخزونا فيها ، وليتأكد الناس جميعا ان التمثال موجود فى مصر منذ سبع سنين وأنه ينتظر كما انتظر تمثال ميرابو خطيب الحرية فى فرنسا ليخرج من سجنه ويقف حرا رفيع الرأس على مرأى من أمته الحرة المستقلة .

حفلة السيدات :

ما وافت الساعة الأولى بعد ظهر يوم الخميس العاشر من شهر فبراير ١٩٢١ حتى توافدت سيدات مصر على دار كلية مصطفى كامل زرافات زرافات من فضائل العقيلات وربات البيوت ، كذلك اشتركت فى الحفل بعض مدارس البنات يحملن أعلامها ، حتى اكتظ المكان بهن فجلسن أمام التمثال وجلال الذكرى يحف بهن وروح مصطفى كامل يرفرف عليهن **وكان برنامج الحفلة باختصار كالآتى :**

١ ـ الساعة ٣ مساء افتتاح الحفل بتلاوة من آيات الذكر الحكيم .

٢ ـ كلمة رئيسة الحفلة السيدة لبيبه هانم أحمد رئيسة جمعية نهضة السيدات .

٣ ـ كلمة السيدة نفسية هانم كامل شقيقة مصطفى كامل .

٤ ـ قصيدة شعرية تشيد بالتمثال وذكرى مصطفى كامل .

٥ ـ كلمة السيدة أمينة غازى هانم .

٦ ـ كلمة الأنسة عائشة هانم الحلفاوى .

٧ ـ كلمة الأنسة سعاد هانم الحلفاوى .

٨ ـ كلمة السيدة وحيده هانم الطوبجية .

٩ ـ كلمة الأنسة نبوية هانم محمد فهمى .

١٠ ـ قصيدة من الآنسة روقيه ناظرة مدرسة البنات الابتدائية بالجيزة .

وجميع القصائد والخطب كان محورها ذكرى مصطفى كامل ومبادئه الخالدة والاحتفاء بعرض التمثال على الملأ ، وكان الحفل جميعه مظهرا رائعا للوعى الوطنى النسائى فى مصر منذ خمسين عاما .

حفلة الرجال :

وقف كبار رجال الحزب الوطنى فى الساعة ٩ من صباح يوم الجمعة ١١ فبراير سنة ١٩٢١ على باب كلية مصطفى كامل بالقاهرة يستقبلون القادمين للاحتفاء بذكرى الزعيم وتحية للتمثال **وكان برنامج الحفل بعد تلاوة آيات من الذكر الحكيم كالآتى :**

١ ـ كلمة من الاستاذ محمد زكى على سكرتير الحزب بافتتاح الحفل وتقديم الخطباء والشعراء .

٢ ـ خطاب على بك فهمى كامل وكيل الحزب الوطنى بمناسبة الذكرى .

٣ ـ قصيدة الشاعر الكبير مرسى شاكر الطنطاوى .

٤ ـ قصيدة الشاعر محمود محمد صادق باسم شباب مصر .

وكان في مقدمة الذين حضروا الحفل اسماعيل أباظة باشا ومحمود باشا أبو حسين والياس بك عوض وأعضاء الحزب الوطني ووفد من الحزب الديمقراطي مؤلف من ابراهيم دسوقي أباظة وابراهيم الشواربي باشا وحسن نافع وجمهور كبير من المثقفين وطلبة المدارس العليا والثانوية والقضاء الشرعي والمعاهد الدينية والصناع والعمال .

وكان من المأمول أن يكون على رأس هذا الحفل شاعرنا الكبير اسماعيل صبري كيف لا ـ وهو صاحب المجهود الأكبر في اقامة التمثال والدعوة اليه ، ولكنه لم يحضر ولم يتحف الجمهور بقصيدة وطنية من قصائده الروائع في هذه المناسبة الخالدة التي طالما كان ينتظرها ، ويتحرق شوقا اليها ـ نعم لم يحضر شاعر مصر العظيم في حفل اقامة تمثال مصطفى كامل وهو الذي كان من أكبر معاوني مصطفى كامل .....

لقد كان رقيد الفراش أضناه المرض وبرح به الداء ، وأعجزه عن الحضور ومع ذلك فقد أرسل كتابا يعتذر فيه الى علي فهمي كامل عن الحضور لمرضه وجاء فيه :

« لو أن الذبحة الصدرية تركت لي شيئا من الصحة يمكنني من وجودي بين المحتفلين بذكرى عزيزنا فقيد الوطن العزيز لما تأخرت أبدا عن حضوري بين المعجبين بصفاته العالية النادرة ، ولكنني أمضيت شهر يناير طريح الفراش وأصبحت غير قادر على الحضور ، فاذا لم تجدني بينهم أيها الصديق الحميم فاعلم انني أكثرهم اعجابا بذلك الفقيد العظيم » (١) .

---

(١) من كتاب « ذكرى مصطفى كامل الثالثة عشرة » المطبوع في سنة ١٩٢١ تاليف علي بك فهمي كامل (شقيق مصطفى كامل) .

ثم مات اسماعيل صبرى ولم تكتحل عيناه برؤية التمثال فى أحد ميادين العاصمة التى كانت مسرحا لجهاد مصطفى كامل .

ثم توالت الأيام والتمثال باق فوق منصة كلية مصطفى كامل الى أن حان الحين وقررت الحكومة فى عهد المرحوم على ماهر باشا اقامته في ميدان سوارس (تغير اسم الميدان بعد ذلك الى ميدان مصطفى كامل سنة ١٩٤٠) .

واحتفلت البلاد شعبا وحكومة فى مايو سنة ١٩٤٠ بازاحه الستار عن ذلك التمثال الخالد الذى ظل سجينا زهاء ستة وعشرين عامـا .

حادثة دنشواى

ان حادثة دنشواى من الأحداث التاريخية فى تاريخ مصر . لما كان لها من الآثار البالغة فى تطور الحركة الوطنية ، وفى مركز الاحتلال الانجليزى ، والحادثة باختصـار أن خمسـة من ضباط الاحتلال رغبوا يوم ١٣ من يونيو سنة ١٩٠٦ فى صيد الحمام فى بلدة دنشواى التابعة لنقطة بوليس الشهداء ، بمركز شبين الكوم ، وفى أثناء اطلاقهم بنادقهم على الحمام حدث أن أصاب أحدهم امرأة هى زوجة محمد عبد النبى المؤذن فى القرية كما أصـاب الجرن فسقطت المرأة جريحة ، تتخبط فى دمائها ، واشتعلت النار فى الجرن ، فصاح أحد الفلاحين مستغيثا ، وهجم على الضابط الذى أطلق النار ، وتجاذب واياه بندقيتـه وأقبل الرجال والنسـاء والأطفال هائجين صائحين : الخواجه قتل المرأة ، وحرق الجرن ، وأحاطوا بالضابط ، وجاء بقية الضـباط لانقاذ زميلهم فتكاثرت جموع الاهلين ، ووصل فى نفس الوقت شيخ الخفر ومعه الخفراء لتفريق الجموع وانقاذ الضابط ، فتوهم هؤلاء أنهم جاءوا يريدون بهم شرا ، فأطلقوا عليهم العيارات النارية فأصاب أحدهم شيخ الخفر في فخذه فسقط على الأرض ، وأصاب عيار آخر اثنين آخرين أحدهما من الخفراء فصاح الجميع ، شيخ الخفر قتل فهجموا على الضباط بالطوب والعصى الغليظة واثخنوا من لحقوا بهم ضربا فاصيب أحد

الضباط بكسر فى ذراعه ، وجرح آخران بجروح خفيفة ، وأحاط بهم الخفراء مع زميل رابع لهم ، وأخذوا منهم أسلحتهم وحجزوهم حتى جاء ملاحظ البوليس وأوصلهم الى المعسكر ٠

أما الكابتن بول والطبيب البيطرى الانجليزى وهما من أعضاء فريق الصيد فقد تركا مكان الواقعة ، وكان الأول منهما قد أصيب اصابة شديدة فى رأسه ، وأخذا يعدوان حتى قطعا نحو ثمانية كيلو مترات فى حمارة القيظ ، فلم يكد الكابتن بول يصل الى باب سوق « سرسنا » حتى سقط من الاعياء ، ومات بعد ذلك متأثرا من ضربة الشمس ، ولما سقط تركه زميله الطبيب البيطرى وأخذ يعدو حتى وصل الى معسكر الكتيبة بناحية كمشوش على شاطىء الترعة الباجورية ٠ فأخطر الجنود الذين هرولوا الى مكان الواقعة ولم يكادوا يقطعون بضعة كيلو مترات حتى بلغوا « سرسنا » وظنوا أنها دنشواى وهناك وجدوا ضابطهم ملقى على الثرى ، ورأوا فلاحا هو « سيد أحمد سعيد » يقدم اليه قدحا من الماء فظنوه من الضاربين ، فأخذوا يطعنونه ويضربونه ببنادقهم حتى هشموا رأسه ومات بين أيديهم وذهب دمه هدرا ولم يحاكم أحد من قتلته ٠

ثار الاحتلال لهذه الحادثة علما بأن المسئول الأول عنها هم الضباط الذين اقتحموا بدون حق غيطان الأهالى وأجرانهم لاصطياد الحمام المملوك لهم ، وذهب المستر ميتشل مستشار وزارة الداخلية الى مكان الحادثة يوم وقوعها وجرى التحقيق بمنتهى السرعة وأخذ ولاة الأمور يقبضون على الأهالى جزافا ، وأعدت المشانق وأرسلت لمكان الواقعة قبل أن ينتهى التحقيق ، وانعقدت المحكمة المخصوصة صباح ١٩٠٦/٦/٢٧ وقضت بافظع الأحكام وهى الاعدام شنقا على أربعة من المتهمين هم حسن على محفوظ ويوسف حسن سليم والسيد عيسى سالم ومحمد درويش زهران والأشغال الشاقة على محمد

عبد النبى وأحمد عبد العال محفوظ والسجن لمدة ١٥ سنة ، ٧ سنوات على عدد آخر من المتهمين مع الجلد ٠

وقد قوبل هذا الحكم بالدهشة لصرامته ، ولأنه فاق كل ما كان يتوقعه المتشائمون وخلا من كل انصاف وعدل ٠

مصطفى كامل وحادثة دنشواى :

رغم أنه كان وقتها فى أوربا للاستشفاء ، ونصح له الأطباء بالتزام الراحة والهدوء فانه لم يكد تصله أنباء المحاكمة حتى ثارت نفسه ، وتحرك قلبه الكبير الى العمل والجهاد ونهض بكل قوته لكى يسمع العالم صوت مصر ، ويعلنها حربا شعواء على الاحتلال وسياسته فكتب فى جريدة « الفيجارو » الفرنسية المشهورة فى عدد ١٩٠٦/٧/١١ مقالة كبيرة نشرت فى صدر الجريدة بعنوان (الى الأمة الانجليزيةوالعالم المتمدين) شرح فيها ظروف الحادث وعرضها على الضمير الانسانى فى العالم ، فكانت من أبلغ وأقوى ما كتب مصطفى كامل بلسان مصروقد استطرد فيها الى جهاد المصريين فى سبيل الاستقلال وأبان أن حادثة دنشواى قد قضت على مزاعم اللورد كرومر فيما كان يذيعه ، من أن الفلاحين المصريين محبون للاحتلال الانجليزى ٠

وأحدثت المقالة فى أوربا دويا عظيما ، وتناقلتها جميع الصحف العالمية فى مختلف البلدان ، وكان لبلاغتها وعبارتها المؤثرة ، وصدورها من زعيم الحركة الوطنية ، والتعليق عليها فى معظم الصحف الأوربية والبريطانية صدى بعيد فى الرأى العام الأوربى والانجليزى وتزلزل بعدها مركز اللورد كرومر فى مصر وانجلترا ونصحت جريدة (التربيون) الانجليزية وجوب منح مصر حكومة مستقلة والغريب أنه لم يحتج واحد من المصريين

المسئولين فى مصر على هـذا الحكم الفظيع ولم يستقل وزير من الوزارة المصرية اظهارا لاستيائه وشعوره وانبرى مصطفى كامل ـ وحده عن الأمة المصرية جمعاء يعرض قضية بلده المظلوم على محكمة العالم أجمع . وقد نجح فى هذه المهمة أبلغ نجاح .

وكان من نتائج استغلال مصطفى كامل فظاعة هـذا الحادث للتنديد بمساوىء الاحتلال البريطانى ، أن أثير الجدل بسبب مأساة دنشواى والأحكام الفظيعة التى قضت بهاالمحكمة المخصوصة ، فى مجلس العموم البريطانى ؛ وعدل رجال الاحتلال بعدها عن سياستهم التعسفية نحو مصر ، وأجبر اللورد كرومر على الاستقالة عقب هذه الحادثة ، وهى نهاية عهد كان من مراحل الجهاد القومى ، عم فيها الشعور الوطنى ، بعد أن كان الظن أن سـواد الأمة راض عن الاحتلال .

تأثر اسماعيل صبرى بتلك الغضبة الصاخبة التى غضبها مصطفى كامل حين وقعت حادثة دنشوادى ، ولكنه لم يقل حين وقوعها شيئا وآثر الصمت ، ولا يعتقد أن صمته كان تقية منه أو حرصا على وظيفته ، لأنه لم يكن بالشديد الحرص عليها خصوصا وقد كان فى أواخر أيامه فى الحكومة ، لأنه أحيل على المعاش بعد وقوع هذه الحادثة بسنة واحدة .

ولما نجحت جهود مصطفى كامل وحملته على المعتمد البريطانى كما سبق ذكره ، وصدر العفو عن المسجونين ، انطلقت الألسنـة التى احجمت عن الكلام فى ابان المحنة ، والتى كانت تترقب الفرصة المواتية لتفصح عن الثورة المكبوتة ومن هؤلاء أحمد شوقى ، أمـا اسماعيل صبرى فقد انتهز فرصة تهنئته للخديوى عباس بمناسبة عيد الاضحى بعد مرور عامين على الحادثة ، وذكر انطباعـاته عن الظروف التى حدثت فى دنشواى ، وشكره لعفوه عن المسجونين .

وبدأ هذه القصيدة بقوله :

١ ـ لو أن أطـــلال المنـازل تنطلق
ما ارتد حران الجـــوانح شيق

٢ ـ هل عند ذاك السراب أنا بعــده
في الحــى من آماقنا تتدفــــق

٣ ـ او ان اضلعنا على ما استودعت
يوم الفراق ـ من الجوى تتحرق

٤ ـ أمنـــازل الأقمار أهلك أسرفوا
في النأى اسراف الغنى واغرقوا

٥ ـ لو انهم قـــد انصفوك منـــازلا
ما حازهم في الكون بعدك مشرق

★ ★ ★

ثم دعا الى منح الأمة دستورا يضمن حقوق المواطنين بقوله :

١ ـ سدد سهام الرأى (بالشورى) يحط
بك منه في ظلم الحــــــوادث فيلق

٧ ـ واسبق بـــه واضرب وافتح بــــــه
ما شـــئت من باب امامك يغلـــق

٨ ـ عوذت مجـــدك ان تنام وفي الحمى
آمـــــل عقيم أو رجـــاء مخـــــفق(١)

---

(١) يريد في هذا البيت تحقيق أمل الامة اذ ذاك ورجاءها الدستور والحكم النيابي .

٩ ـ ولرب محـــل فى النهى متحـــكم
قد كان يخترم النفـــوس ويـــوبق(٢)

١٠ ـ ارسلت فيه نظـــرة ضمن الحجـــا
والعلم نصرتهـــــا وقلب مشفـــق

١١ ـ واخـــذت رأى الى النهى مستوثقـــا
مستوزرا وكـــذا الحـــكيم يدقـــق

١٢ ـ ووهبت فابتكر النضـــار سحـــائبا
تهمى وتفتقـــد المحيـــل وتغـــدق

١٣ ـ وان أمرعت تلـــك المـــوات وأورقت
فيهـــا الريـــاض فانما لـــك تـــورق(٣)

١٤ ـ واقلت عثرة قريـــــة حـــكم الهوى
فى أهلهـــا وقضى قضـــاء أخـــرق

١٥ ـ ان أن فيهـــا بائس ممـــا بـــه
وأرن رجـــاويه هنـــاك مطـــوق

١٦ ـ وارحمتـــا لجنـــاتهم ماذا جنـــوا ؟
وقضاتهم ما عـــاقهم أن يتقـــوا ؟

١٧ ـ ما زال يقـــذى كـــل عـــين ما رأوا
فيها ويـــؤذى كـــل سمع ما لقـــوا

١٨ ـ حتى حكمت فجـــاء حكـــمك آيـــة
للنـــاس طى صحيفـــة تتـــألق

---

(١) المحل : الشدة والجدب : الاسكك هنا لعقم العقول وقلة ما يصدر عنها .
(٢) يوبق : يهلك .
(٣) أمرعت : أخصبت ، الموات من الأرض ، مالا نبات فيه .

١٩ ـ نزلت ترفرف جـــول كاتب نصهـا
زمـــرا ملائكة الرضـــا وتحـــلق

٢٠ ـ شكرتك مصر على ســـلامة بعضهـــا
شـــكرا يغـــرب فى الورى ويشرق

٢١ ـ ذكرت لــــك الصفح الجميل ولم تزل
تـــرمى الى أمر أجـــل وترمـــق

٢٢ ـ قانون (دانشـــواى) ذاك صحيفـة
تتلى فترتـــاع القلـــوب وتخفـــق

٢٣ ـ هل يرتجى صفـــو ويهـــدأ خاطـر
والموت حـــول نصوصهـــا يترقرق

٢٤ ـ ومضاجــــع القـــوم النيام أواهـــل
بمعذب يودى وآخـــر يرهق

٢٥ ـ لن تبلـــغ الجرحى شـــفاء كامـــلا
ما دام جـــارحها المهنـــد يبـــرق

٢٦ ـ فاحكم بغـــير العنف واكسر سيفـــه
فالحلم أجمل والمكـــارم أليق

٢٧ ـ لك مصر ماضيها وحاضرهـــا معـــا
ولـــك الغـد المتحتـم المتحقق

٢٨ ـ والله عونـــك أن ركبت الى العــــلا
طرقا تضـــل بهـــا الهـــداة ونفرق

٢٩ ـ والأمر أمـــرك لا يشـــاب بريبة
والحكم حـــكمك والا له مصـــدق

وفي هذه الأبيات يصور اسماعيل صبرى فظاعة الحادث . ونراه لا يكتفى بهذا ولكنه يشير بعد ذلك فى الأبيات (٢١ ، ٢٢ ، ٢٧) الى أن هذا القانون الظالم الذى طبق فى هذه الحادثة ، سيظل يبعث الفزع والرعب فى القلوب ، وان ما ارتكبه من مآثم وماطعن به مصر من جراح لن يكفر عنها شيء ، ولن تلتئم هذه الجراح مادام الاحتلال قائما، وجنوده تبرق وترعد وكنى فى بيت(٢٥) عن المحتل الغاصب بالجارح المهند ، فلم يصرح به ، ولا نرى له شيئا آخر فى الانجليز من قريب أو بعيد ·

مقطوعاته الوطنية :

وتقرأ له مقطوعات قصيرة فى البيتين والثلاثة يضمنها رأيه فى وزراء مصر قبل الحرب العالمية الأولى ، بدعابة مسرحية ، كأنها صورة هزلية فكهة مما تنشره الصحف اليومية من ذلك قوله فى مصطفى فهمى الذى كان من الموالين للانجليز مخلصا لهم ، فلما سقطت وزارته (التى طال عليها الأمد ، وملها المصريون وضاقوا بها ذرعا) فى سنة ١٩٠٨ قال اسماعيل صبرى ·

عجبت لهم قالوا (سقطت) ومن يكن
مكانك يأمن من سقوط ويسلم !
فانت امرؤ ألصقت نفسك بالثرى
وحرمت خوف الذل ما لم يحرم
فلو اسقطوا من حيث انت زجاجة
على الصخر لم تصدع ولم تتحطم

ثم تمر بمصر أحداث ، ويطوح الانجليـــز بعباس ، ويأتي السلطان حسين كامل بعد اعلان الحماية فيهنئه ، ولكنه كان أشد وطنية من صاحبيه حافظ وشوقى فلم يشر الى الانجليز أى اشارة ، ولم يدع الى التعاون معهم ، أو يثن عليهم ، بل اكتفى بأن هنأه ، وذكر أن الامارة لم تزل فى أهلها ، وأنهم يتناوبون العرش ماجدا بعد ماجد ، وأن أهل مصر لا يزالون على الود القديم ، الى غير ذلك من المعانى التى تذكر فى مثل هذه المناسبة ٠

ولكنه يفضل حسينا على عباس ويحتج لاختياره ، ولو أنه اكتفى بماقاله فى البيت الأخير لكـان خيرا له ، لأن عباسا حظى منه بأمداح شتى ، رفعته الى السماكين وكان واجب الوفاء يدعو ، ألا يذم صاحبه الذى مدحه بالأمس ، وألا يدعو الناس للشكر على أن جاء حسين بدلا منه ٠

وفى هذه التهنئة يقول :

اليوم آن لشـــاكر أن يجهرا	**بالشكر مرتفع العقيرة في الورى**
ان الامارة لم تزل فى أهلهـــا	**شماء عاليـة القواعـد والذرا**
والتاج مقصــور عليهم ينتقى	**منهم كبيرا للعـلاء فأكبـــرا**
والعرش ان أخلاه منهم ما جـد	**ذكر الأماجد منهم وتخيــــرا**
أحسين حبك فى القلوب محقق	**قد أظهر الاخـلاص منه المضمرا**
فاحرص عليه فهو ملك آخــر	**ان شئت ملكا جنب ملك أنضرا**

الى أن قال :

والبيت (بيت محمد) قد شاده	**لبنيه لم يسـتثن منهم معشرا**
والعم أكبر حكمة ودرايـــة	**بالأمر لو أن إلمكـابر فكرا**
حال اذا نظر الأريب جمالهـا	**شكر الاله وحقه أن يشكرا**

ويرى بعض النقاد أن تقلب اسماعيل صبرى فى المديح يدل على أنه لم يكن صادقا فى مديحه لعباس أو حسين ، وانما يدل على أنه مع الحاكم أيا كان شأن معظم شعراء المديح الذين لا يصدرون فى شعرهم عن عاطفة جياشة صادقة وانما يعبرون عن مراءاة ونفاق ، ورغبة فى الحظوة والمكانة لدى ولى الأمر أيا كان خلقه ووطنيته ٠

ولكننا لا نميل للأخذ بهذا الرأى لأسباب عديدة ، لأن صبرى لم يكن وصوليا فى شعره ، فقد كان عزوفا عن المناصب ، التى تأتى عن طريق غير وطنى . والتى يتحتم عليه فى سبيل الوصول اليها أن يتخلى عن مبادئه الوطنية ، واذا كان فضل حسينا على عباس فلأنه رأى ما فعله عباس بصديقه مصطفى كامل ، وكيف تنكر له وتنكر للحركة الوطنية ، وترامى على أقدام الانجليز ، مما أدى الى قطع مصطفى كامل علاقته به نهائيا (١) ٠ وقد استهان الخديوى عباس حلمى بعواطف المصريين وآثر الدعة والاستقرار على الكفاح فى سبيل تحرير بلاده ٠

هذا اسماعيل صبرى ،الشاعر الوطنى الصادق عبر بشعره عن وطنيته ولكن فى هدوء وحذر ، يريد الاصلاح والرقى لوطنه عن طريق التعليم والنهضة الصحيحة ، ويخشى التيارات السياسية المتلاطمة ، وتجلى فى شعره القومى روح الحب الخالص للوطن وللعاملين المخلصين فى سبيل عزته وكرامته ، والشجو الحزين على مآسيه والاستمساك بمناقب الغيرة والكرامة والشمم والاباء ٠

---

(١) كتاب مصطفى كامل باعث الوطنية ص ٣٣٠ لعبد الرحمن الرافعى ٠

دعاباته السياسية

ويستخدم فيها صبرى الشعر الرمزى ، رمزية الكلمة ورمزية الجملة ورمزية الصورة وهذه الدعابات كتبها عندما استقالت وزارة مصطفى فهمى وتألفت وزارة بطرس غالى سنة ١٩٠٨ منها ما قاله على ألسنة الوزراء المستقيلين ، ومنها ما قاله على ألسنة الوزارات تحية من كل وزارة لوزيرها الجديد فى وزارة بطرس غالى ونشرها بعنوان « على أبواب الدواوين » ، ونشرت جميع هذه الدعـابات ممهورة باسم بنلتـــاؤور ، وهو الشاعر المصرى القديم ، وقد أودع هذه المقطوعات من فكاهاته الطريفة مما ينبىء عن ظرفه النادر .

على لسان مصطفى فهمى باشا عند استقالته

اننى استغفـــــر الله لكــم ... آل مصر ليس فيكم من رجـال
فل غربى ما أرى من نومكـم ... ورضـــاكم بوجـود الاحتلال
بح صوتى داعيا مستنهضـا ... صارخا حتى تولانى الكـــلال
لم أجد فيكم فتى ذا همـــة ... ان عدا الدهر عدا أوصال صال
رحم الله وزيرا سامــــــه ... قومه ما ليس يرضى فاستقال

على لسان بطرس غالى باشا

بعد ما استقالت وزارة مصطفى فهمى باشا الأخيرة ، وكان بطرس غالى باشا وزير الخارجية فيها ، ويعرض فى هذه الأبيات بما كان يشاع عن مصطفى فهمى باشا من ممالأته المحتلين ، كما يشير الى وطنية بطرس غالى .

أصبحت فى حيرة وهم ... ما بين مصر وبين فهمى
هذى تنادى نداء عان ... تلاف أمرى وداو سقمى(١)
وذاك يرجو رجاء خل ... له أياد على تهمى(٢)
دعها تنادى بما تنادى ... وكن على خطتى ورسمى
فالسلم درس وقد علمنا ... مغبة السلم كيف تحمى(٣)
يارب بابن البتول حطنى ... وزن مقامى وطهر اسمى
فاننى ان برزت خلى ... عققت ـ لا شك ـ خير أم(٤)

على لسان عبانى باشا

وزير الحربية والبحرية بعد استقالته مع النظارة الفهمية

يا جنود البر والبحر أشهدوا ... واسمعوا منى كليمات فصاح
ذى يدى قد مزقتها لقم ... تجتنى من فوق أطراف الرماح(٥)
ذاك جسمى رسم الدهر على ... كل عضو منه أهوال الكفاح

(١) العانى : الاسير ، تلاف أمرى : أى تداركه .

(٢) الايدى : النعم ، تهمى : أى تهطل .

(٣) مغبة السلم ـ عاقبته .

(٤) خير أم : أى مصر .

(٥) تجتنى من فوق أطراف الرماح ـ كفاية عما لاقاه من المصاعب فى سبيل العيش وتعذر الرزق فى المناصب العسكرية .

انني عفت تكاليف العـــــــلا بينكم والعيش فى ظل الصفاح
رحم الله وزيرا عامـــــــلا ملئت فخرا يـــــداه فاستراح

على لسان حسين فخرى باشا

ان بناء (الخـــزان) أنهكنى وهد جسمي وزاد فى سقمى(٢)
استودع الله كـــل ما صنعت يدى وشادت من بـــاذخ هممى

على لسان أحمد مظلوم باشا
وزير المالية المستقيل

انا اذا سلبت وظائفنــــــا وتـألفت من غيرنـــا دول
نبنى كما كانت أوائلنــــــا تبنى ونفعل مثـــل ما فعلوا

على لسان ابراهيم فؤاد باشا
وزير الحقانية

أستغفـــــر اللـــه من عصر تـــكنفنى
فيـــه الخبيثـان من جـاه ومن مـــال
استغفر اللـه من (فهـمى) وشيعتـــه
ومن (عبانى) ومن فخرى ومن (غـــالى)
لو استطعت ركبت النـــاس كلهـــــم
الى الحجـــاز ركوب الراحـــل القالى

---

(١) عفت : كرهت ومللت ـ الصفاح : السيوف .
(٢) يشير الى ان بناء خزان أسوان كان فى عهد توليه وزارة الاشغال .

على ابواب الدواوين

وهى دعابات شعرية نشرها تحية من كل وزارة لوزيرها الجديد .

على بـــاب الخارجية

تحية لوزيرها الجديد بطرس غالى باشا رئيس الوزراء

اهـــلا ببطرس اهـــــلا   بالملتـــــوى المســـتقيم
قديم كـــل جديــــد   جــــديد كــــل قـــديم

على باب الداخلية

تحية لوزيرها الجديد محمد سعيد بك

(سعيد) أهـــلا وســـهلا   أنت الكبـــير الصـــغير (١)
دعنـــا نقـــل عن قـــريب   أنت الـــكبير الـــكبير(٢)

على باب المعـارف

تحية لوزيرها الجديد سعد زغلول باشا

اهـــلا بسعـــد وسهـــلا   بالحـــاذق الفيلســـــوف
رجـــعت بـــدرا منيـــرا   مستهتـــرا بالكســـوف(٣)

---

(١) يشير بقوله (الصغير) الى حداثة عهده بتولى منصب الوزارة اذ ذاك .

(٢) يتفاءل الشاعر لقوله (أنت الكبير الكبير) لمحمد سعيد بأن يتولى رئاسة الوزارة فى المستقبل .

(٣) يشير بقوله (مستهترا بالكسوف) الى ما حدث فى شأن تولى سعد لوزارة المعارف من أن الخديوى كان يأبى دخوله فى وزارة بطرس غالى باشا ، لظروف خاصة بينهما اذ ذاك ، حتى اقترح اللورد كرومر ادخاله فيها فكان ما اقترح .

على باب المالية

تحية لوزيرها الجديد أحمد حشمت باشا

ابعدوا (أحمدا) وجاءوا بشان ظلمـــوه كما أراد الغشــــوم

فتسلت خزائن المـــــال مظلـو م تولى وجاءها (مظلوم) (١)

على باب الأشغال

تحية لوزيرها الجديد اسماعيل صبرى باشا

قالت الأشـــــــغال لمـــــا أفلت أنــــوار (فخـــرى)

هنئـــوتى هنئــــــونى جــــاء من يعـــرف (سرى)

على باب وزارة الحربية والبحرية

عسكـــــــرى انجـــليزى ....

على بـــاب الحقانيــة

تحية لوزيرها الجديد حسين رشدى باشا

(أرشدى) سلام مرحبـــا بك مرحبـــا

وأهلا بصا فى الروح والقلب والقصـــــد

سيفرح قـــانونى وتـــــرضى شرائعى

اذا زدت من شـــأنى وأبلغتنى رشـــدى

---

(١) تسلت : تعزت : يقول ان خزائن المال تعزت عن وزيرها السابق مظلوم باشا بناظر آخر مظلوم فى اسناد هـذا المنصب الكبير اليه اذ ليس أهلا له فقد ذهب مظلوم وجاء مظلوم ·

الباب الثالث

الشعر الفلسفي والصوفى

- الشعر الفلسفى
- اخلاق الناس
- الدواة
- الالهيات

الشعر الفلسفى

مقدمة

اختلف النقاد من قديم الزمن فى شأن العلاقة بين الشعر والفلسفة ، فرأى بعضهم أنها علاقة خصـومة وعداوة ، ورأى البعض الآخر أنها علاقة صداقة وتزاوج وكان افلاطون من الفريق الأول ، فقد سلم زمام جمهوريته للفلاسفة ، ونفى منها الشعراء ولم يقبل من الشعر الا تلك الأناشيد التى تتمدح بالآلهة وعظماء الرجال ، كما لم يقبل من الموسيقى الا الأنغام التى تعبر عن الشجاعة وتلهم الاعتدال وحكم النفس .

أما الفريق الآخر ، فكان منهم الشاعر والناقد الانجليزى ، « كولردج Coleridge » وقد قال هذا الناقد (لم يستطع انسان أن يصبح شاعرا كبيرا دون أن يكون فيلسوفا عميقا ، لأن الشعر نتاج معارف الانسانية جميعا) ثم استطرد قائلا (أرى أن لا سبيل الى الوصول الى التفكير العميق الا بواسطة انسان عميق الشعور . كما أرى أن جميع الحقائق أنواع من الالهام) وهو من ذلك لم ير أن الشاعر ينبغى أن يكون فيلسوفا فحسب ، بل رأى أيضا ان الانسان لن يكون فيلسوفا صادقا الا اذا كان شاعرا .

واعتاد الناس أن يصلوا بين الفلسفة والتفكير العميق ، وان

يصلوا كذلك بين الشعر والاحساس العميق ، وكانت الفلسفة ـ وهى حب الحكمة ـ تعنى البحث عن الحقيقة العارية المجـــردة ، بواسطة التفكير المنطقى ، أو كما قـال الفيلسوف الامريـكى وليم جيمس William James (وهى مجهود متواصل غير عادى للتفكير الواضح) واعتاد الناس كذلك أن يروا أن الشعر يستهدف الحقيقة أيضا ، ولكنها حقيقة لا تتعلق بالأشياء والأفكار قدر تعلقها بالشعور أى أن الشعر يستهدف حقيقة الشعور ، فالشعراء يدركون الحقيقة ، بالقاء أضواء من أخيلتهم على العالم الخارجى ، ويعتقدون أن ما يراه الخيال جمالا هو الحقيقة ٠

على أننا نستطيع أن نقول بشكل عام ، أنه بينما يحاول العلم والفلسفة تسجيل الحقيقة والواقع تسجيلا موضوعيا مجـــردا ، يحاول الشعر تسجيل حالات الشعور الانسانى ، وكذلك تسجيل الأشياء والأفكار ملونة بالعواطف والانفعالات وذكرنا من قبل أن الشاعر « كولردج » قال أن الشاعر الكبير ينبغى أن يكون فيلسوفا كبيرا ، وأن جميع المحاولات الناجحة للنفـاذ الى الحقيقـــة كانت مصحوبة بالشعور العميق أى أن الحقيقة لا تنكشف الا للانسان بأكمله لرأسه ولقلبه معا ٠ وقد يكون هذا معناه أن أفكار الفيلسوف المجردة مثلها مثل جسد خلا من الحياة يحتاج الى الشـــاعر حتى يبعث فيه الحياة ، ولكن لن يصل الى الصورة الكاملة للتجربة ، الا من تعتلج نفسه بالعواطف والانفعالات فالشاعر الـــذى يصف موجة من موجات البحر ، يصل الى أكثر مما يصل اليه العـــالم ، الذى يصف هذه الموجة لأنه يسجل الحقيقة غنية بقيمها وبآثارها فى النفوس ٠

أخلاق الناس

قصيدة بعنوان « النجم هالى » .

فى سنة ١٩١٠ ، كان النجم المعروف « بمذنب هالى » ، يقترب من الكرة الأرضية يوما فيوما ، آتيا من حدود العالم الشمسى ، منذ ظهوره آخر مرة فى سنة ١٨٣٥ م ، وهذا المذنب لا يظهر لسكان الأرض الا مرة كل خمس وسبعين سنة ، وقد زادت حركته وضوحا من ابتداء شهر مارس سنة ١٩١٠ ، وفى التاسع عشر من شهر أبريل من تلك السنة وصل المذنب الى أقرب مسافة من الشمس ، ثم استمر فى مسيرة متجها الى عالمنا ، وذكر الفلكيون أن لهذا المذنب ذيلا طويلا مكونا من غازاتسامة وقيل أيضا ان الشمس ستدفعه الى عالمنا فيصير جو الأرض خانقا ومميتا .. وحددوا لذلك يومى ١٨ ، ١٩ من مايو سنة ١٩١٠ . وساد الذعر والهلع نفوس الكثيرين ، وأيقنوا أن فى ذلك البلاء المستطير والفناء لجميع الأحياء على الأرض ، وقد سمى النجم « هالى » نسبة الى مكتشفه الاستاذ « هالى » الفلكى الشهير .

ويتحدث الشاعر هنا عن الأخلاق الاجتماعية فى عهده ، وكيف انحدر الناس الى مهاوى الرذيلة ، وكيف استهانت الأمم

المستعمرة القوية بالأمم الضعيفة العزلاء ، وضاعت القيم العالية ، ورخصت المثل العليا بين الناس فى معاملاتها بعضها البعض .

وقد جاء فى هذه القصيدة ما يلى :

١ ـ غاض مـــاء الحياء من كـل وجـــه
فغـدا كالح الجـــوانب قفـــــرا

٢ ـ وتفشى العقـــوق فى النـــاس حتى
كـــاد رد الســـلام يحسب برا

٣ ـ أوجه مثلمـــا نثرت على الأجـــــ
داث وردا ان هــــن أبـــدين بشرا

٤ ـ وشفاه يقلن « أهـــــلا » ولـــــو
ادين ما فى الحشــــا لمـــا قلن خيرا

٥ ـ عمرك اللـــه هـــل ســـلام وداد
ذاك ام حـــاول المســـلم أمـــرا

ثم يذكر الدول القوية التى دانت لها الشعوب خوفا واستسلاما فيقول :

٦ ـ عميت عن طريقهـا أمم تعـامت
أمم فى مغـــاوز الجهـــل حيرى

٧ ـ غرهـــا سعدهـــا ومن عـادة السعـ
ـد يواتى يوما ويخـــذل دهـرا

٨ ـ فتجنت عـــلى الشـــعوب وشنت
غارة فى البلاد من بعد اخـــرى

ثم يهدد هذه الشعوب المستعمرة الغاشمة

٩ ـ حاذري يا ذئاث صولة أسد
منك أقوى نابا وأنفذ ظفرا

١٠ ـ لا تنامى يا أسد ان ذئابا
لم تنم من روابض الغيل أضرى

١١ ـ عبر كلها الليالى ولكن
أين من يفتح الكتاب ويقرأ

١٢ ـ أنت نعم النذير يانجم « هالى »
زلزل السهل والروابى ذعرا

١٣ ـ ظن قوم فيك الظنون وقالوا :
آية أرسلت الى الأرض كبرى

١٤ ـ ان يكن فى يمينك الموت فأقذ
فه شواظا على الخلائق طرا

ثم يخاطب النجم هالى فيقول :

١٥ ـ هل تلقيت من لدن خاذل البا
غى وحامى الضعيف يانجم سرا

١٦ ـ اغدا تستوى الانوف فلا ينـ
ظر قوم قوما على الأرض شذرا

١٧ ـ أغدا كلنا تراب ولا نملك
خلاف التراب برا وبحرا

١٨ ـ ان يكن ما يقولون يا نجم فاصدع
بالذى قد أمرت حييت عشرا

في هذه القصيدة تتدفق الحكمة والمعاني العالية من بين ثناياها، ففي البيت الأول يندد بالاستهتار الأخلاقي الذي ساد في عهده وفي السادس يندد بالامم الاستعمارية التي انتشت بخمرة النصر والمجد، فهان أمامها أمر الشعوب الضعيفة واغتالت حقوقها وأنكرت وجودها، ولكنه يعود في البيت التاسع فيحذر هذه الأمم الغالبة الباطشة من نتيجة استهتارها ، وان هذه الشعوب الضعيفة سوف يحين يومها لتثور وتبطش بمن استباحوا حقوقها ، وكأن الشاعر يتنبأ بما سيجرى بعد نصف قرن من تصفية الاستعمار ومن ثورة الشعوب ضده واستقلال أمم عديدة في أفريقيا وآسيا ، وبصفة خاصةالنهضة العظيمة التي نهضتها الدول العربية في الشرق الأوسط .

وفي البيت الرابع عشر يفيض الشاعر غضبا على سكان هذه الأرض لتماديهم في الشر وترديهم في هوة الموبقات والمعاصي ويرى أن خير علاج هو ابادة الأرض ومن عليها ولعله يصور في هذا البيت الجانب المتشائم من نفسيته .

وفي البيت السادس عشر يشير الى أن الموت هو المساواة بين جميع الأحياء يستوى فى ذلك الظالم المستعلى ، والضعيف المسالم والغنى والفقير والأمير والحقير .

وكأنه بذلك يقول : ان الظالم مهما طغى وبغى فلابد له من يوم يذل فيه ، يدفن طي الثرى " فليتعظ الانسان ولا يغتر بالدنيا اذا أقبلت عليه ولا بالأيام اذا ابتسمت له .

الدواة

ومن قصائده الفلسفية ، تلك القصيدة التى نشرت فى سنة ١٩١٠ يخاطب فيها الدواة قائلا :

يا دواة اجعـــلى مدادك وردا
لوفـــود الأقـــلام حينا فحينا
وليكـــن كالزمـان حـــالا فحـــالا
تـــارة آسنا وأخرى معينـــــــا
أكرمى العـــلم وامنـــحى خادميـــه
مـــاءك الغـــالى النفيس الثمينـــا
وابذلى الصـــــافى المطهـــر منه
لهـــــداة السرائر المرشدينـــا
واذا الظلم والظـــلام استمانـــا
يـــوم نحس بأجهـــل الجاهلينـــا
واستمـــدا من الشرور مـــدادا
فاجعليه من قسمـــة الظالمينـــا
واقذفى النقطـــة التى بات فيهـا
غضب القاهر المـــذل كمينـــا

لبراع امـــرىء اذا خط ســطرا
نبـــذ ألحق وارتضى المين (١) دينـــا
واذا كان فيـــك نقطـــة سوء
كونت من خباثـــــة تكوينـــا

فاجعليها قسط الذين اســتباحوا
فى السياسات حرمـــة الأضعفينـــا

واذا خفت أن يـــكون من اللفــ
ــظ جلاميــد ترجم السامعينـــا
فابخـــل بالمـــداد بخــلا وان أعـــ
طيت فيه المئين ثم المئينـــا
فاذا أعــوز المـــــداد طبيبـــا
يصف الـــدواء دائبا مستعينـــا
فامنحيـــه المـــداد منا وعرفـــا
واستطيبى معـــونة المحســـنينا
واذا مهجة الحمـــائم أســـدت
نقطـــة سرهـــا الزكى المصـــونا
فاجعليهـــا على المودات وقفـــا
وهبيهـــا رسائـــل الشيقينـــا

فاذا لم يـــكن بقلبـــك الا
ما أعد الاخـــلاص للمخلصـــينا

فاجعليه خـــطى لاكتـــب منـــه
شرح حـــالى لسيد المرسلينا

---

(١) المين : الكذب .

وهنا يسرح الشاعر بخواطره فى الظروف التى يستعين فيها الانسان بالدواة ، لأن الدواة تحوى المداد ، والمداد غذاء الأقلام ، والأقلام يحرر الانسان بها ما يشاء من محررات ٠

فالمحامى يسجل دفاعه فى مذكراته ، والقاضى يسجل أحكامه بعد بحثه القضايا والحاكم الظالم ينفذ سلطانه واستبداده بما يصدره من أوامر وقوانين صارمة ، ممهورة بتوقيعه والا لما كانت لها قوة النفاذ ، والأديب يكتب نفثات روحه ، وحبات آماله المتعطشة للحرية والعدالة ، والطبيب يحرر بطاقة الدواء لشفاء المريض المعنى الذى يتقلب على فراش من قتاد ؟ والطالب يدون دروسه ومعارفه الى جميع هؤلاء : يرسل الشاعر حكمته ومشورته ، وآماله وأحلامه ، وليس غريبا أن تصدر منه هذه الفلسفة وهو القاضى النزيه الذى عرف قوة الكلمة المكتوبة وأثرها ، سواء كانت لنشر السلام أو لاشعال الحروب وما تسببه من موت ودمار وخراب ، العقوبات الرادعة ؟ أم الاحكام المخففة المهذبة ؟ الكلمة ٠٠٠ هى الكلمة أيا كان أثرها ٠٠ ؟ فكم شعوب طغت واتخذت من المعاهدات المكتوبة ٠٠ قناعا مؤقتا ٠٠ حتى تعد نفسها وتكون على أهبة البطش بالأمم الضعيفة المسالمة ؟ وكم من قرار وقعه ملك شديد أو طاغية جبار ، كان فيه القضاء على مصائر الملايين من العباد ، والفناء لهم وذراريهم جميعا ؟

وكم من كلمة صدرت عن داعية للسلام ، أقام بها شعوبا ، وأرسى قواعد البناء لممالك طامحة الى الحياة و ٠٠٠٠ كم من كلمة رفعت ظلما وأقامت دعائم للعدل والحرية ، وكم من كلمة كانت أس الويلات والمظالم ، ولنا فى أحداث التاريخ المعاصر أقوى دليل على قوة الكلمة من التصريحات والقرارات ٠٠٠ التى تصدر عن الساسة والأقطاب والزعماء ٠

وفى المقطوعة التالية ذات الخمسة الأبيات يتحلى الشاعر وهو مرتد زى المعلم المرشد ، يهدى الناس ويحذرهم من طيش الشباب ، وغروره وأهوه ويحذرهم أيضا من تمسكهم بعاداته ورذائله ، حتى بعد أن أفلت منهم زمامه . وولت أيامه ، وعدت شهوره وأعوامه . . . فكم من شيخ فقد عقله ، ونسى وضعه وجهل مكـــانه من أجيال الحياة وبدا بمظهر مزر بكرامته وانسانيته ، حين يلهو اثر الشباب يحاول مجاراتهم فى مضمار عبثهم ومجونهم ، وهو يعلم حق العلم أن زمان العبث والمجون ولى وانقضى .

الشباب والمشيب

نشرت فى ١٥ من يوليو سنة ١٩٠٠

لم يـــدر طعم العيش شبان ولـــم يدركـــــــه شيب
جهل يضـــــل قوى الفتى فتطيش والمـــــرمى قريب
وقـــوى تخـــور اذا تشبث بالقـــوى الشيخ الأريب
بينا يقـــــال كبا المغفل اذ يقـــــال خبـــا اللبيب
أواه لو عـــــلم الشبـــا ب وآه لو قـــدر المشيب

الحـــلم والانـــاه

سنة ١٩٠٩

اذا ما دعا داع الى الشرمـــــرة وهزت رياح الحادثات قناتى
ركبت اليه الحـــلم خير مطية وسرت اليــه من طريق أناتى

وهذان البيتان جمعا من الفطنـــة والعبرة ما تقصر عنـــه

المقالات الطويلة والخطب البليغة والمواعظ العديدة ، ويوضحان فى بلاغة وايجاز كيف يطفىء الحلم نار الخصومة والشر ·

شكوى الحياة

كم ساعة آلمنى مسهـــــــا وأزعجتنى يدهـــا القاسـية
فتشت فيها جاهدا لم أجــــد هنيهـــة واحدة صافيـة
وكم ســـقتنى المر أخت لهـــا فرحت أشكوها الى التاليـــــة
فاسلمتنى هذه عنـــــوة لساعـــة أخرى وبى مابيـه
ويحك يا مســـكين هل تشتكى جارحة الظفــر الى ضارية
حاذر من الساعات ويل لمــــن يأمن تلـــك الفئة الطاغيـــة
وان تجد من بينها ساعـــــة جعبتها من غصص خاليـــــة
قاله بها لهــو الحـــكيم الذى لم ينسه حـــاضره ماضيـــه
وامرح كمـا يمرح ذو نشــوة فى قلة(١) من تحتها الهاويـــة
فـــــهى وان بشت وان داعبت محتالة ختالــــة عاديـــة
عناقهـــــا خنق وتقبيلهـــــا كما تعض الحيـة الباغيـــــة
هذا هو العيش فقل للـــــذى تجرحــه الساعـــة والثانية
يا شاكى الساعات أسمع عسى تنجيك منها الساعة القاضيـــة

انفعل الشاعر بمشهد رآه فى أثناء زيارته لكنيسة فى فرنسا، وهو شاعر جواب آفاق ، ومنتجع للجمال يسعى لرؤياه أينما كان، ففى كنيسة ريمز ، (من الكنائس المشهورة بباريس) وهى أيضا من الكنائس الأثرية العريقة بأمجادها الفنية · شاهد ضمن ما شاهد فيها ساعة حائط كبيرة ، مكتوبا على عقربها بالفرنسية ما معناه « كلهن جارحات والأخيرة القاتلة » أى أن ساعات العمر جميعـــا

---

(١) القلة : القمة العالية ·

طافحات بالجروح والآلام ، والساعة الأخيرة هى الساعة التى ينفذ فيها سهم القضاء بل هى ساعة المنون . . . . .

تأثر الشاعر لهذه العبارة أيما تأثر ، وألهمته هذه القصيدة التى يفوح منها شكوى الحياة ، ولكنهـا مـع ذلك عامرة بالفطنة والعبرة ..

والحق أن هذه الأبيات قد بلغت من رقة اللفظ ودقة المعنى ، وجمال التصوير ورشاقة التعبير وبراعة السبك وتمام الانسجـام حدا بعيدا .

اسماعيل صبرى والموت

راحــة القبر

نشرت فى سنة ١٩٠٢

ان سئمت الحياة فارجع الى الار ... ض تنم آمنا من الاوصـــاب
تلك أم أحنى عليـــك من الأم ... التى خلفتـــك للاتعـــاب
لا تخف فالمات ليس بمـــاح ... منك الا ما تشتكى من عـذاب
كل ميت باق وان خالف العنوا ... ن ما نص فى غضون الكتـاب
وحياة المرء اغتراب فان مـــا ... ت فقد عاد سالما للتـــراب

موت الحياة

نشرت فى سنة ١٩٠٦

مقابر من ماتوا مواطن راحـــة ... فلا تك اثر الها لكين جزوعـــا
وان تبك ميتا ضمه القبر فادخر ... لميت على قيد الحياة دموعـــا

التزود من الاحباب المودعين

نشرت فى ١٩٠٩

١ ـ تزود من الأقمــــار قبل أفولهـــا

لظلمـــة أيام الفـــراق وطولهـــا

٢ ـ فرب وداع ينفـــــع المـــرء بعضه

اذا رضيت نفس امـرىء بقليلهـــــا

٣ ـ غـــدا تفعل الأشجان بالركب فعلها

وتجتث هاتيك المنى من أصولهـــا

٤ ـ ويدرى أخو الأشـواق سر هلوعـه

لذكر النوى والخوف قبل نزولهـا

٥ ـ لقد بوغتت تلــــك المنى فتصرمت

ولم تقض منها النفس : أيسر سؤ لها

٦ ـ أأنت رزين أيها القلب فى غـــــد

كعهدك أم ســـار وراء حمولهـــــا

ولقد نظم الأبيات الأربعة متأثرا ببيتى البحترى وهما :

ولقد تأملت الفراق فلم أجـــد

يوم الفراق على أمرىء بطويـــــل

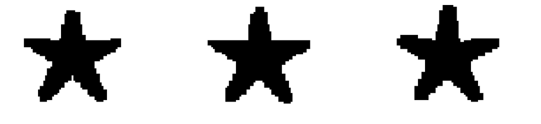
قصرت مسافته عـــلى متزود

منـــه لدهـــر صبابـة وعويـل

الثعلب والغراب

محاورة ترجمها الشاعر عن الكاتب الفرنسي المشهور لافونتين ، نشرت في ١٩١٠/١/١٧

أبصر الثعلب الغراب على غصـ ن نضير في روضـــة غناء
ورأى قطعة بفيه من الجبنـــة تزرى بالفضـــة البيضـاء
خير ما تنتقي وأطيب ما تخـــطف من مأكل لصوص الهـــواء
فاشتهاها وقال : ان لم تكن لى أنكرتني ثعالب الغبـــــــراء
ثم أنشـــأ يثني وينصب أشرا كا وشر الأشراك بعض الثنـــاء
قائلا : يا أمير عم كل صـــبح صائحا ، صـادحا كل مســاء
هات ، زدنا علمـــا بقدرك يامو لاى ، من أنت من بنى العنقـــاء
أغراب ؟ تبـــارك اللــــــه آمنا بفضل الغربان أهل العـلاء
الق درسا على البلابل غلمـــا نك في الفن يا أبا الفضـــلاء
وترنم بمن أفـــاض على حلـ قك ما لم يفض على الـــورقاء



كلمات أصغى الغبى اليهـــا فـاعتراه مس من الخيـــلاء
وتغنى فلم يحس بمــــا الـ قاه في فــخ أشعر الشعـــراء
بل رأى الجبنة الشهية تهوى فبكاها ولات حــــين بكـــاء
وتلقى اللص الغنيمـــة واستا ذن في الحـال زاهدا في الغناء
قائـلا : طبت يا مغني الندامى غن غيرى قدحان وقت غذائـــى

(الغراب)

أيها الثعلب ارتحـــل لا هنيئا لا مريئـا يا الأم اللؤماء

(الثعلب)

أيها الطـائر الغبى تعـــــلم ذا جزاء الاغرار والجهـــلاء

(الغراب)

لم تزد يا أبا الحصين على أو لاد حــواء فى ضروب الدهــاء

(التفات الى المكر فى الناس)

ان منا من ينصب البيت فخــا لاقتناص القصر الرفيع البنـــاء
فاذا مد للسماء يمينــــا ســــل منهـا كوكب الجوزاء
بعضنـــا لا يزال فى اثر بعض ناهبا سالبا بلا استحيـــاء
فتعــوذ من هــؤلاء وحاذر لا تكن ـ ان عددت ـ من هؤلاء

الأمــانى

نبيت من المنى نبنى صروحا وندعمها فيهدمها النهـــار
فيضحك ساخرا منا وقوفـــا على أنقاضها الفلك المـــدار
ذرينا من معاقرة الأمــــانى يليها العمر من خبل خمـــار
فكم قربن من أمد بعيــــد تعثر دونه الهمم الكبـــار
وكم أولين من عــال فمــدت اليه أكفها أيــد قصــــار

الشــعر الصوفى

كان أبن الفارض الصوفى شاعرا تجلت دقة حسه ورقة نفسه ورهافة شعوره فى شعره ، كما تمثلت فى ذوقه ووجده ، فهو قد جمع فى شخصه بين نبعين صافيين ينهل منهما ويصدر عنهما ، أحدهما نبع الوجد الروحى ، وثانيهما نبع الطبع الشعرى ، وهو قد اتخذ من الشعر أداة للتعبير عما يعانيه من رياضات ومجاهدات روحية ، وما عرض له من أذواق ومواجيــد ، وما انتهى اليه من مكاشفات ومشاهدات ولا يكاد يصطنع النثر فى التعبير عن شيء من هذا كله أو بعضه الا عندما كان يقص قصة واقعة وقعت له ، أو يعقب على كلام ألقى بين يديه ، أما ذات نفسه وأما حيــاته الروحية فيما بينه وبين ربه ونفسه وأما حبه الالهى الذى ظل طوال حياته مرتلا لأنشودته ترتيلا جميلا ، ومسبحا فيه بجمال محبوبته تسبيحا طويلا فكل أولئك كان الشعر مرآته المصورة له ، وأداته المعبرة عنه • ويعد شعره الصوفى قمة شامخة من قمم الشعر الرمزى !!

ومهما يكن من شيء فان لابن الفارض من حيث هو شاعر ، مكانته الأدبية فضلا عن منزلته الصوفية بين شعراء عصره وصوفيته، كما أن لديوانه قيمته الكبرى وخطره ، العظيم بين دواوين الشعر سواء من الناحية الأدبية أو الصوفية •

وقد كان اسماعيل صبرى من المعجبين بشعر ابن االفارض وقد قرأ ديوانه فى مستهل حياته ، وأترع من نبع صوفيته ، وكان المظنون أن يثمر هذا الاعجاب والاطلاع الشيء الكثير من القصائد ، ولكن ماوصلنا من مقطوعات قليلة لايؤدى الى هذه النتيجة ، وربما كان لاسماعيل صبرى قصائد أخرى كثيرة فى هذا المضمار ، عفت عليها يد الاهمال والنسيان لانه لم يكن يعنى بجمع اشعاره وحفظها، والذين اهتموا بجمع أشعاره بعد وفاته بمدة كبيرة ، وجدوا العناء الكبير فى البحث والتقصى للحصــول على أغلب ماصـاغته قريحته الشعرية وفيما يلى ماوصلنا من أشعاره الصوفية .

الألهيات

بين الخوف من الله والأمل فى عفوه
وجدت مكتوبة بخطه

خشيت حتى قيل انى لم أثــق   بأنك تعفو عن كثير وترحـــم
وأملت حتى قيل ليس بخائف   من الله أن تشوى الوجوه جهنم
فشأنى فى حالى يارب حـــيرة   بها أنت من دون البرية أعلم
اقلنى من الشك الذى قد أحاط بى   فشأنى فى حالى يارب مبهـــم
مر الحجب ترفع عنك استقبل الهدى   صريحا وينهج منهج الحق مجرم

هذه من أرع مقطوعـــاته التى يناجى فيهـــا الذات الالهية بروح ورغبة نفسية نقية واخلاص بالغ ، وفيها صوفية رائعة وحب ساطع يموج فى نفسه ،

الأمل فى الله
نشرت فى سنة ١٩١١ م

أنا يا الهى عند بابك واقف   لا أبتغى عنه الزمان عـــدولا
ما جئت أطلب أجر ما قدمتـــه   حاشا لجودك أن يكون قليـــلا
عظمت آمالى وصغرت الـــورى   من ذالها ان لم تك المأمولا
انى ليعجبنى وقوفى سائلا   ان كنت أنت السيد المسئولا

وجود الله
قالها سنة ١٩١٨ م

تعـــالى اللـــــه لا يعـــا ـــم كنـــه اللـه انســـــان
أتبـــحث عنـــه في واد ومنه الـكون مـــــلآن
أتنكــــــره وأنت عليـــ ـــه ـ لو فكرت ـ برهـــان

التصوف فى شعر اسماعيل صبرى

١ ـ يارب أين تــرى تقــام جهنم
للظـــالمين غـــــدا والاشرار

٢ ـ لم يبـــق عفـوك فى السموات العلا
والأرض شبرا خاليــــا للنار

٣ ـ يارب أهلنى لفضــلك واكفنى
شـــطط العقــول وفتنـة الأفكـار

٤ ـ ومر الوجود يشف عنك لـــكى أرى
غضب اللطيف ورحمـــة الجبار

٥ ـ يا عالم الأسرار ، حسبى محنـة
علمى بأنك عـــــالم الأسرار

٦ ـ أخلق برحمتك التى تسـع الـورى
ألا تضـــيق بأعظـــم الأوزار

هذه الأبيات من خير ما قيل فى الاستعطاف والرجاء ، وهى من أرقى الشعر الغنائى الصوفى ، الذى يعلو بالعاطفة الدينيـــة الخالصة الى السماء كما تعلو الصلوات لله عز وجل ٠

وحين يسبح صبرى فى بحار الخلود ، تشف روحه عن غرامه

به ، وتوقه اليه ، وشوقه نحوه ، نراه يسبغ على شعره لونا من الصوفية ، ويتجدد فى خياله ما وعاه عن شعر ابن الفارض وغزله الالهى الخالد ٠

وحين يخاطب الذات الالهية قائلا (يارب أين ترى جهنم ؟ كأنه يتخيل الجحيم الذى غاص فى لجحه الشاعر الايطالى العظيم «دانتى الليجرى » فهو يناجى الذات الالهية مستمطرا رحمتها ، راثيا لحال الانسانية جمعاء ، بما تعانيه من ضعف وتخلف فى مضمار الروحانيات ، وقصورها عن ادراك الحقائق السرمدية العلوية ، التى يرغب الله سبحانه وتعالى عباده فى أن يتجهوا لادراكها عن طريق بصيرتهم لا نظرهم ، وايمانهم الروحى لا ايمانهم الحاسى ٠

وهو حين يناجى الموت ويتمناه ، يرسم لنا صورة شاعر تقى ورع ضجر من الدنيا وما بها من متناقضات ، وضج من هياج الناس وتصايحهم للفوز بمغانم الحياة ولذائذها المادية وهى الى الفناء والزوال بل ضج من الحياة وما فيها من معارضات بين القيم الروحية «الخالدة» والقيم المادية الزائلة فهو يحن الى عالم الروح ٠٠٠ عالم الخلود ٠٠ عالم ماوراء الموت ٠٠ وحسبه فى ذلك الأمل البعيد فى حياة لا يعقبها فناء أو شقاء ٠

ويقول فى هذه المناجاة :

يا موت هأنـــذا فخـــذ ما أبقت الأيـــــام منى
بينى وبينـــك خطـــوة ان تخطهــــا فرجت عنى

الباب الرابع

الغزل عند اسماعيل صبرى

الغزل عند اسماعيل صبرى

مقدمة :

لعل الحب هو أهم موضوع شغل به الشاعر العربى ، فمنذ الجاهلية يغنى الشعراء حبهم ويصورون انفعالهم واحساسهم تجاه من يعشقونهم . وكانت النزعة المادية تغلب عليهم أول الأمر ، فهم يصفون المرأة وصفا حسيا وقلما وقفوا عند وصف روحى نبيل ؛ لأن ظروف حيـــاتهم الوثنية حينئذ كانت تدفع الى هذا النوع من الغزل المادى الصريح . فالشاعر لاينكر نفسه ولاحبه الحسى .

ولما جاء الاسلام أخذ الغزل يتطور بحكم ما أصاب تلك النفوس التى تنطق به من سمو ونبل، وسرعان ماظهر نوع جديد من الغزل العذرى الذى نشأ فى نجد وبادية الحجاز ، والذى يترجم عن لواعج الحب ترجمة صادقة تعبر عن مواجد الشاعر وأذواقه وأشـــواقه وما يحسه ازاء الدين من مجاهدات تنقى نفسه وضميره وتشعره غير قليل من الحرمان فيحزن . وتضيف الصـــحراء بســـكونها ووجومها حزنا الى حزنه الروحى ، فينظم هذا الشعر الغزل الحزين الذى يجد فيه قارئه غذاء روحيا لا يقدر .

ومن أروع الأشياء أن يرجع الانسان الى كتاب الأغانى . ويقرأ ترجمة مجنون ليلى وجميل بثينة وقيس ولبنى وأضرابهما من شعراء الغزل العذرى الذى يفصح عن رقة رقيقة ودقة فى الحس والشعور .

ولا يعنى هذا أن كل الشعراء فى العصر الاسلامى استحالوا الى هذه الصور النقية السامية من الغزل ، فقد بقيت آثار من الغزل المادى الجاهلى عن شعراء المدن من أمثال ابن أبى ربيعة ، ولكن مما لا شك فيه أن الغزل عند هؤلاء الشعراء خطا خطوات جديدة نحو رقة الحس ورهافة الشعور حتى اذا انتقلنا الى العصر العباسى وما أضطرب فيه الشعراء من اثم وفحش ومجون ، رأينا كثيرا منهم يغرقون فى الغزل المادى ، وينحطون الى تصورات جنسية شائنة فيها ايماءات اثارة وفيها غريزة من أمثال هؤلاء بشار وأبو نواس فنراهم لايجدون حرجا فى أن يتحدثوا حديثا صريحا عن نزوات الغريزة النوعية وكأنما لم يعد هناك حياء ولا ما يشبه حياء .

ومع ذلك فنحن لانعدم أسرابا من الغزل النقى عند العباس الأحنف وأضرابه مع أنهم لم يكونوا يمثلون الذوق العام . فالذوق العام أصابه وباء المجون ومايصحب المجون من صغائر ونقائص . وعلى هذا النحو أصبح الغزل فى أكثره غزل غرائز وان كان ذلك لم يمنع من تحليل مشاعر العشاق للجوارى الفاتنات فقد تدل الجارية على عاشقها ، وقد تصيبه من الصد والاعراض ، وقد تمتنع عليه امتناعا ، فتفتح للفتنة بها فى قلبه أبوابا من الحنين والبكاء والتفجع والشوق واللهفة ، فتقترن بصورة الحب الغريزى صورة الحب المحروم ، ومايبعثه من لوعة وحرقة وحزن ودموع .

وفي هذه الأثناء تتطور حياة الزهد فى الاسلام ، وتتحول تحولا صوفيا من الشوق الى ثواب الجنة الى الشوق الى رؤية الله جل جلاله ، والنعيم بجماله الأزلى ، ويصبح كل متصوف كأنه مجنون ليلى فهو يغنى الهه حبه وحنينه ، وأشواقه ومواجده ·

ويأخذ المتصوفه فى نظم أشعار ، تصور هذا الحب للجمال المطلق ومدى مايصهرهم به من نيرانه · وقد وجدوا فى الحب العذرى الاسلامى بذورا لتصوير ولههم لمحبوبهم وهيامهم به ، وهى بذور لم تلبث أن تحولت عندهم الى أشجار باسقة يانعة ، أغنت أدبنا بأزهار وجدانية رائعة ففيها جمال لاتشرق به قلوب العارفين من المتصوفه فحسب ، بل تشرق به جميع القلوب وتضيىء لما يشتمل عليه من فسحة ومن معان روحية ، وحتى عناصر الحب القديم المادية استطاعوا أن يحولوها الى تصوير أحوالهم الوجدانية ·

ومن هنا كثر عندهم الغزل الحسى أو قل كثر اقترانه بغزلهم الروحى النقى الخالص ومن أظرف الأشياء حقا أن يقرأ الانسان فى هذا الغزل الصوفى ما يصوره من جمال الذات العلية ، وما يعبر عنه من اقبالها على المحب ، وصدها عنه وشوقه اليها · وبهجته بوصلها وحزنه وألمه وحنينه لبعدها ·

ولقد كان لغزل المتصوفة تأثير رائع فى القلوب ، وكان الناس يجدون فيه ما يغريهم عن الحياة السياسية والاجتماعية الفاسدة ، التى صاروا اليها فى القرن الرابع وما بعده ، اذ شعروا فيه بشىء من الطمأنينة والراحة ·

وتدور بالغزل عند العرب دورات من الزمن تجمد فيها معانيه فى أكثر الأقاليم العربية وعند أكثر الشعراء ، فقد تحولوا الى

أصداف من التشبيهات ـ والاستعارات وألوان البديع المختلفة وهي أصداف قد تروق ببريقها ولمعانها ولكنها لا ترضى الشعور ولا تصادف هوى النفوس لأنها لا تعبر عن فطرة ولا بساطة وانما تعبر عن تصنع وتكلف ، ولكن من الحق أن هذا لم يشمل جميع الأقاليم الاسلامية ولا شمل جميع الشعراء ، فقد كان من بينهم من يستمد من الفطرة والطبيعة ومن يرتفع بشعره عن زخرف البيان والبديع اللفظى ، فينبض غزله بالعاطفة الصادقة وتتدفق فيه خواطر الحب ومعانيه .

وربما كانت مصر أكثر الأقاليم العربية عناية بهذا الغزل الوجدانى الطبيعى وحقا نجد بعض شعرائها يتشبهون بشعراء الأقاليم الأخرى ، فيحيلون غزلهم الى مرصعات ومصنفات ، بل يحيلونه الى زخارف دقيقة مثل القاضى الفاضل وتلاميذه ، وهؤلاء لا يعبرون عن الروح المصرية العامة حينئذ ولكن يعبر عنها البهاء زهير وأضرابه ممن يرفضون التكلف فى غزلهم ، ويطلبون أن يكون فيضا من الشعور الصادق والحس المرهف الذى لا تحجزه عوائق البديع ولا عوامل الصنعة .

فنه الغزلى :

يمتاز غزل اسماعيل صبرى بالرقة والعذوبة ، فله غزليات تجيش بسيل دافق من العاطفة والوجدان .

وقلما تحس فيها بتكلف أو ما يشبه التكلف ، وانما تحس بصدق الشعور الذى يأخذ بمجامع القلوب .

وكانت ظروف حياته الرغدة ، تتيح له ألا ينظم الا فيما تواتيه السجية وكان له منتدى يجتمع اليه فيه كثير من أهل الظرف والرقة فى عصره ، فكانوا يؤكدون هذين المعنيين فى نفسه ،وكانت هناك نواد أهم من ناديه أثرا وتأثيرا فى روحه ولا نقصد نوادى

الرجال أمثاله ، وانما نقصد نوادى السيدات من أمثال « مى » وكانت تجرى ناديها على طريقة الاديبات الفرنسيات من صواحب « الصالونات » وكان يختلف اليه كبار الادباء والمفكرين المصريين فى أوائل هذا القرن كما كـان يختلف اليه اسـماعيل صبرى . فيستمع الى الأحاديث الناعمة والمحاورات الرقيقة مع المرأة فيتأثر بذلك فى صميم نفسه ، ويكون سببا من أسباب رقة حاشيته .

واذا كان اسماعيل لم يقبل على الشعر اقبال المتكسب ، بل اقبال الهاوى الذى أتيحت له ملكة شـــعرية ، فلم يستغلها فى معارضته للقدماء وانما استغلها فى تدوين الخـواطر التى جاشت بهانفسه وكانت نفســا رقيقة ، ودعمت الرقــة فيها مؤثرات من بيئته المصرية وما اشتهرت به من عذوبة الروح ، كما دعمتها نوادى النساء التى كانت تخلع البهاء والجلال على المرأة ، فلم يعد هدفه مجاراة المتنبى وغيره من شعراء القصيدة العربية الجزلة الرنانة ، وانما هدفه مجاراة شعراء الوجدان الرقيق ورقائقهم ومقطعاتهم القصيرة .

وقد منح دوقا رفيعا وحسا دقيقا فاستوفى الرقة من أطرافها ولا تشك أنه قرأ كثيرا للبهاء زهير الشاعر المصرى الرقيق فقد كان المصريون فى عصره يعجبون به .

كما لا نشك أنه قرأ كثيرا لابن القارض الشاعر الصــوفى المصرى ، وكانت هذه القراءات تؤثر فى نفسه ومظهرها واضح فى شعره ، فهو يتغزل غزلا وجدانيا على طريقة البهاء ، وهو يناجى ربه ، ويبتهل اليه كثيرا ، ويستشعر فى قرارة نفسه خضوعا له واخلاصا لوجهه على طريقة ابن الفارض ، وان كان لا يعشق الذات الالهية عشـــــقه ، ولا يطلب الفناء فى الهه ولا يتعمق فى مواجده وأذواقه الصوفية .

ومسح هـــذا الجانب عنده على غزله ، ففيه شيء من التصوف والتسامي الروحي ، والحق أن مؤثرات كثيرة أثرت في غـــزله ، بعضها من نفسه وظروفه وبعضها من بيئته وعصره فاستوى في هذه الصورة النقية التي لا يشوبها أي شيء من أدران الجســـد ونزعاته • فليس في القدود والنهود ورقة الخصر وكثافة الردف وغير ذلك مما يثير الغرائز ، وانما فيه السمو والطهر الذى تعشقه الأذواق الرفيعة ، وليس فيه ما يخدش الحيـــاء ، فهو غزل أصفى وأروع ما يكون النقاء غزلا ولا يدفع اليه الميل الجسدى الذى يشترك فيه الانسان والحيوان • وانما يدفع اليه ما يحـــدث الجمـــال في الروح والعقل من لذة وألم ، ومن خير ما يمثل ذلك من شـعره ، **القصيدة التي يصف فيها من سماها « لواء الحسن »** فكل النـاس يقتربون منها في اجلال وخشوع ، **يريدون أن يستظلوا بظلال هذا اللواء وينعموا بما يصور من فتنة وحسن وجمال بقوله :**

يا لواء الحسن أحزاب الهوى ... أيقظوا الفتنة في ظـل اللواء
فرقتهم في الهـــوى ثاراتهـم ... فاجمعي الأمر وصـوني الأبرياء
ان هذا الحسن كالمـــاء الذى ... فيـه للانفس ري وشفـــاء
لا تذودي بعضـــنا عن ورده ... دون بعض وأعد لي بين الظماء
أنت يم الحسن فيـه ازدحمت ... سفن الامال يزجيها الرجـــاء
يقذف الشوق بهـــا في مائج ... بين لجـــين عنـــاء وشـــقاء
شــدة تمضي وتاتي شـــدة ... تقتفيها شدة هـل من رجاء ؟
سأعفي آمال انضـــاء الهوى ... بقبول من سجاياك رخـــاء
وتجلي واجعلى قـوم الهـــوى ... تحت عرش الشمس في الحكم سواء
اقبـلي نسـتقبل الدنيا وما ... ضمنته من معدات الهنـــاء
واســـفري تلك حلى ما خلقت ... لتوارى بلثـــام أو خبـــاء
واخطرى بين الندامى يحلفـوا ... أن روضا راح في النادى وجاء
وانطقي : بنثر اذا حدثتنا ... ناثر الدر علينا ما نشـــاء

وابسمي من كان هـذا ثغـره يملأ الدنيا ابتسـاما وازدهاء
لا تخافي شـطط من أنفس تعثر الصبوة فيها بالحياء
راضت النخوة من أخلاقنـا وارتضى آدابنا صدق الولاء
فلـو امتـدت أمانينـا الى ملك ما كـدرت ذاك الصفاء
أنت روحيانيـه ، لا تـدعى ان هذا الحسن من طين ومـاء
وانزعى عن جسمك الثوب يبن للملآ تكوين سكان السمـاء
وأرى الدنيـا جناحي ملـك خلف تمثـال مصوغ من ضياء

وأنت ترى صبرى يصور جمـال فتـاته تصـويرا هادئا ، فعاطفته متئدة ، وهو يصور هذا الجمال في خشوع لا ترى فيـه نزوة ولا عارضا حسيا من عوارض الجسد ، بل هو يرتفع حتى عن نفسه ، فهذه الفاتنة لا تفتنه وحده بل تفتن كل من يراها في النادى معـه .

ويعلق بعض الكتاب على هذه القصيدة بأن اسماعيل صبرى يخالف فيهـا غيره من الشـعراء في حبهم والاستئثار بالحسن ، ويرغب الى الحسناء أن تسوى بين محبيهـا في التمتع بالنظر الى حسنها الباهر . وكأنى بهؤلاء الكتاب لم يلاحظوا أن صبرى في هذه القصيدة لا يريد أن يصور حبه وانما يريد أن يصـور حبه وحب غيره ليصل الى ما يريد أن يصنعه من هذا الجمال الذى يملك على الناس جميعا مشاعرهم وقلوبهم وعقولهم .

انه جمال ينشر الحب والفتنة في كل نفس ، وقد عرف كيف يصوغه دون أن يعرض لشيء مادى فيه ، بل لقد تجاوز به المـادة وجعله روحانيا خالصا . فصاحبته ليست من طين وماء وانما هي من سكان السماء أو كأنها تمثال مصنوع من ضـياء وهي لذلك لا تتعلق بها رغبات النفس ولا نزواتها ومن ثم لم تكن لصبرى وحده بل هي للناس جميعا يلتاعون ويبتهجون بلقائها وهو يشبه شمائلها

وسجاياها بالريح اللينة لرقتها ولطفها ويطلب اليها أن تشمل محبيها بضوئها كما تشمل الشمس الكون بنورها ويقول لها :

لا تخافي شططا من أنفس تعثر الصبوة فيها بالحياء

وهي صورة رائعة مثل فيها نفوس جلسائها تفتن بها فتنة تكاد تخرجها عن حدودها فتعثر بالحياء ، وكل ذلك رقة مفرطة ، رقة في عدم الأثرة بمحبوبته ورقته في وصف عاشقيها ووصفها وكأنها ملك ، تحول قد سيته دون لمسه **ولعلها هي نفسها التي يقول فيها :**

(نشرت في ١٩٠٩)

ياراحة القلب ياشغل الفؤاد صلى متيما أنت في الحالين دنياه
زيني الندى وسيلي في جوانبه لطفا يعم رعايا اللطف رياه
ريحانة أنت في صحراء مجدبة من الرياحين حبانا بها الله
ان غاب ساقي الطلا أوصد لاحرج هذا جمالك يغنينا محياه

وهو في هذه القطعة كما في سابقتها ، يقف أمامها في اجلال وخشوع مع أنها راحة القلب وشغل الفؤاد ، ولكن لا تحدثه نفسه ، الا بوصف لطفها ، وانها كالزهرة في الصحراء المجدبة ، أرسلتها العناية الالهية لا لتمس، وانما لتحى من بعيد فهو يحيط نفسه بجو حقيقي من الحب الروحي .. كل ما يأمله منها لقاء أو نظرة .

يا ظبية من ظباء الأنس رائعة
بين القصور تعالى الله باريك

هل النعيم سوى يوم اراك به
او ساعة بت اقضيها بناديك

وهل يعد على العمــــر واهبــــه
ان لم يجملــه نظم الدر من فيـــك

ان قابلتـــك الصبا فى مصر عاطـرة
فأيقنى أنهـــا عنـــى تناجيـــك

وأنهـــا حملت فـى طـى بردتهـــا
قلبـــا بعثت بــه كيمـــا يحييـــك

فكل ما يطمح اليه منها ، أن يمتع طرفه برؤيتها ساعة أو لحظة وهو يكثر من النداء فى غـزله وكأنه يريد بمناجاته أن يطـــرب الوجدان ويحركه ، كما يكثر من النداء بكثير من صيغ الاســـتفهام والسؤال ، فيفتن فى المناداة والخطاب ؛ ويفتن فى المناجاة والحوار افتنانا يؤثر فى النفس ومن مشهور نداءاته هذه المقطوعة (نشرت سنة ١٩١٣ وقد غنتها كوكب الشرق أم كلثوم فى أول حياتها الفنية)

يا آسى الحى هـــل فتشـــت فى كبـدى
وهـــل تبينت داء فى زواياهــــا

أواه من حـــــرق آودت بأكثرهــــا
ولـم تـــزل تتمشى فى زواياهــــا

يا شوق رفقا بأضـــلاع عصفت بهـا
فالقلب يخفق ذعـــرا فى حناياهــــا

وهو يصور نفسه هنا مريضا بالكبد ، ويئن حتى لتظن أن أنينه يتمشى فى أنفاسه وهو يتعذب بحبه وحرقة لوعاته ، فالحب يصهره ويذيب أضلاعه بل يكاد يحطمها حطما ويحطم ما وراءها من قلبه وفؤاده ومن بديع غزلياته التى غنتها أم كلثوم فى مطلع حياتها الفنية هذه الأبيات التى نشرت سنة ١٩١١ :

أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة ... ولا بشافعة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمنا ... حمل الصبابة فأخفق وحدك الآنا
ماكان ضرك اذ علقت شمس ضحى ... لو اذكرت ضحايا العشق أحيانا
هلا أخذت لهذا اليوم أهبتـــه ... من قبل أن تصبح الاشواق أشجانا
لهفى عليك قضيت العمر مقتحما ... فى الوصل نارا وفى الهجر نيرانا

وهو يخاطب فؤاده فى هذه القطعة ، ويطلب منه أن يكف عن الأمل فى فاتنته مع غير قليل من الحسرة وبل مع شـــدة الحسرة وشدة اليأس منها ، فقد سلا فؤادها ولا يزال فؤاده يخفق بحبهـا وهو يقول له انك من ضحايا العشق الكثيرين ·

وصبرى يستمد فى هـذه القطعة وسابقتها من غزل العذريين الذى يمتلىء بالحزن ويفيض بالألم لما يستشعره العاشق من اليأس فى لقاء محبوبته ووصالها واقبالها عليه ·

والحق أن صبرى يبلغ فى غزله الوجدانى قمة قلما يدانيـــه فيها شاعر مصرى من جيله لا لأن شعراءنا لا يئنون ولا يبكون فى غزلهم ولا لأنهم لا يرتفعون بمحبوباتهم فى مراقى الحب الروحى ، ولكن لأنه قصر نفسه على ذلك ، وعبر عنه تعبيرا طبيعيا فيه رقة وفيه عذوبة وفيه قرب شديد الى النفس ، وهو قرب لا نجـــده فى المعانى وحدها بل نجده أيضا فى الصيغ والألفاظ ، وأرجـــع الى البيت الأول فى المقطوعة الاخيرة ·

أقصر فؤادى فما الذكـرى بنافعـــة
ولا بشافعــــة فـــى رد ماكانـــــا

فانك تجده يستخدم العبارة الشـائعة فى عاميتنا المصرية ، اذ يقولون عن شىء أو شخص انه « لا ينفع ولا يشفع » ·

وقوله في دموعه وما تخط من شكواه :

ويلمحها اللاحي فيرثي لصبوتي ويقرؤها الواشي فيرحم حـالي

وقوله السـابق :

ياراحة القلب ياشغل الفؤاد صلي متيما أنت في الحالين دنيـاه

فكلمة يرحم حالي و « يا راحة القلب » من الكلمات التي تدور على ألسنة المصريين ولم يكن يقف في هذا التعبير عند معاني الغزل بل ، كان يعممه في موضوعات شعره المختلفة ، وكان يعرف كيف يدخلها في أساليبه وكيف يؤديها أداء حسنا ولم يكن يعمـد الى تخيلات بعيدة ولا صناعة معقدة فنفسه نقية صـافية ، لا تعـرف التعقيد والتكلف بل رقيقة رقة مفرطة وهي رقة يمسح عليها الحزن فيزيدها لطفا وروعة .

ونختم دراستنا في شعره الغزلي بهذه المقطوعات الرائعـة ، التي تفيض رقة وعذوبة .

قال في قطعة بعنوان « موعد لقاء » نشرت في سنة ١٩١٣

خبروني اليـوم اني في غـد مالىء عيني منهـا ويـدي
كيف يبقى من قضى الليل على جرف هار الى ذا الموعـد
رب كن عـوني واخرني الى أن أرى شمس الضحى من عودي
يا أسـاة الحي لـو أجلتم رأيكم في الى يـوم غـد
رب داء لا يرجـى بـرؤه قد شفته زورة من مسعد

مقـر الغـزال

يامقر الغزال قد صح عندي ال يوم أني اقتحمت منك عرينا
رابني فيك ما أرى من عيون بات يغرى بها السـواد عيونا
وضلوع جاءتك وهي خـوال ثم عادت ملآى هـوى وشجونا

ما الذى يبتـــغى غزالك منى بعد كونى عبدا له أن أكونا
كلما قلت قـد أبل فـــؤادى ساورته الذكرى فجن جنونـا

وقال أيضـــــا :

يا من أقـــام فـــؤادى اذ تملكـه
ما بين نارين من شوق ومن شـجن
تفديك أعين قـــوم حولك أزدحمـت
عطشى الى نهلة من وجهك الحســـن
وتسـتعيذ اذ ألفتـــك مبتســـما
عن لؤلؤ بالنهى حـــرزا من الفتن
جردت كل مليح من ملاحتـــه
لم تتق الله فى ظبى ولا غصـــن
فاستبق للبدر بين الشهب رتبتـــه
تملكه فى أوجـــه عبـدا بلا ثـمن

وقال ايضـــا :

ثغـــر الحبيب

نشر هذان البيتان سنة ١٩١٣

يا موردا كنت أغنى ما أكون به عن كل صاف اذا مابات يروينى
عندى لمائك والأقداح طوع يدى ملآى من الماء شوق كاد يرديني

وقال ايضـــا :

الى نزيل الفـــؤاد

لما تبـــوا من فـــؤادى منـزلا وغدا يسلط مقلتيه عليـــــه
ناديته مسترحما من زفـــرة أفضت بأسرار الضمير اليـــه
رفقا بمنزلك الذى تحتلــــه يأس يخرب بيته بيديه

شعر الحبيبة

ارسلي الشعر خلف ظهرك ليلا واعقديه من فوق رأسك تاجا
انت في الحالتين بدر نراه صادعا آية الدجى وهاجا

حشاشة الصب

ان الذى ابقيت فى مهجتى يا متلف الصب ولم يشعر
حشاشة لو انها قطرة تجول فى عينيك لم تنظر

الطيف

ياحاجبا عن عيوني طيف صورته ابعثه مستترا فى ليلة الأرق
ولاتخف منضيا صبح الجبين فقد عرفت سواد الشعر والحدق

الى حسناء

وجدت هذه الأبيات مكتوبة بخط يده على غلاف مطبوع فى سنة ١٩٠٧

يا فتاة الحى قد اذكرتنا نضرة الروض وميل الغصن
أى لحن ترجمت تلك الخطأ عنه للعين هنا والأذن
عارضى البدر اذا لم يعترف لك بالحسن بوجه حسن

وقال هذه الابيات عام ١٩١٣

تمسي تذكرنا الشباب وعهده حسناء مرهفة القوام فنذكر
هيفاء اسكرها الجمال وبعض ما أو فى على قدر الكفاية يسكر
تثب القلوب الى الرءوس اذا بدت وتطل من حدق العيون وتنظر
وتبيت تكفر بالنحور قلائد فاذا دنت من نحرها تستغفر
وتزيد فى فمها اللآلىء قيمة حتى يسود كبيرهن الأصغر

ولعل روعة شعره الغزلى تتجلى فى هذه القصيدة التى نشرها سنة ١٩٠٩ وعنوانها :

(ساعة الوداع)

أتزودت من ضياء البدور ... لليال كثيفة الديجور
أملأت العينين من قبل أن يهـ ... ـدمك البين من بهاء ونور
صفرت راحتاك الا من الذكـ ... ـرى ، وذكرى ما مر زاد الفقير
أترى أنت خاذلى ساعة التو ... ديع يا قلب فى غد أم نصيرى
وبك ، قل لى متى أراك بجنبى ... راضيا عن مكانك المهجور
لست بعض الحداة بل أنت بعضى ... قف قليلا فلست بالمأجور
ساعة البين قطعة أنت قدت ... للمحبين من عذاب السعير
لا تحينى ، روحى الفداء لما حيك ... غدا من صحيفة المقدور

وكتب تحت بيتين قالتهما الأديبة الكبيرة المرحومة « مى » وهما :

فديتك يا هاجرى ... فهل ترتضى بالفدا
سهرت عليك الدجى ... ونحت ولكن سدى

فكتب هو :

أهاجرتى اطفئى ... لواعج لا تنتهى
مضت فى هواك السنون ... وما نلت ما أشتهى
اذا قيل مات الأديب ... بفاتنة انت هى

فلما قرأت أبياته كتبت تحتها :

زمانك قبل انتهى ... ولا يرجع المنتهى
فحسبى أن ازدهى ... وحسبك أن تشتهى

ثم يشكو نواها ويدعوها الى التواصل :

أبثك ما بى فان ترحمى ... رحمت أخالوعة مات حبا
وأشكو النوى ما أمر النوى ... على هائم ان دعا الشوق لبى

واخشى عليك هبوب النسيم وان هومن جانب الروض هبا
واستغفر الله من برهة من العمر لم تلقنى فيك صبا
تعالى نجدد زمان الهناء وننهب لياليه الغر نهبا
تعالى أذق بك طعم السلام وحسبى وحسبك ما كان حربا

ثم أرسل لها بيتين يهنئها فيها بعام جديد :

ياغرة العالم جوزى الأفق صاعدة الى السماء بآمال المحبينا
انى سألت لك الأيام صافية يا « مى » قولى معى آمينا

وسوف نعرض فى موضع آخر ، الدور الأدبى الذى قام به صالون « مى » وأثره فى المجتمع المصرى آنذاك ، وكان اسماعيل صبرى من المعجبين بشخصية صاحبته ومن المواظبين على ارتياده ٠

البـــاب الخامس

الشعر الاجتماعى

- الوحدة القومية
- شعر المراثى
- الصالون الأدبى بقصره
- المدائح والتهانى
- تقدير اسماعيل صبرى للمرأة

الوحدة القوميــــة :

يتكلم الاستاذ عمر الدسوقي في كتابه « في الأدب الحديث » عن شعر اسماعيل صبري الاجتماعي فيقول « أما اسماعيل صبري فليس له في هذا الموضوع قليل أو كثير ، وكأن مصر ليس بهـــا فقراء معدمون ، أحلاس مسغبة وأني لصبري أن يصف الفــاقة والبؤس وأهلهما ، وقد عاش عيشة مترفة منعمة » .

وقال عنه الدكتور طه حسين في المقدمة التي صدر بهـــا الديوان « وكيف السبيل لطالب من طلاب الازهر ، أو من طـــلاب الجامعـــة القديمـــة ، شديد الحياء ، أن يتصل بهـــذا الرجــــل الارستوقراطي ، الذي كان يشغل منصبا رفيعا من مناصب الدولة ، ويلقب بلقب رفيع من ألقابها ، ولا يجلس حيث كان يجلس الشعراء في هذه القهوة أو تلك ولا يختلف الى حيث يختلف الشعراء في هذا النادي أو ذاك » .

رغم هذا فان اسماعيل صبري قد لمس بشعره مشكلة اجتماعية خطيرة ، تعد من أهم ما تعرض له الوطن في أوائل القرن العشرين من مشاكل ، فقد أصاب الوحدة القومية بين عنصري الأمة الأقباط والمسلمين صدع كاد أن يؤدي الى نتائج لا تحمد عقباها ، فقـــد

اعتدى فى عهده على المرحوم بطرس غالى باشا رئيس مجلس الوزراء فى ١٩١٠/٢/٢١ ، وكان المعتدى شابا مسلما من شباب الحزب الوطنى ولحداثة عهد البلاد بالقتل السياسى ، اختلف الناس فى بواعث الجانى لارتكاب جنايته وقد أثار ذلك موجة من السخط والبغض بين كثير من عظماء الأقباط ، وأدى ذلك الى انصراف كبيرين من الأقباط عن نشاطهم فى الحزب الوطنى ارضاء للفريق الساخط وهما المرحومان مرقس حنا وويصا واصف وكانا عضوين فى اللجنة الادارية للحزب .

وكان اسماعيل صبرى صديقا حميما لبطرس غالى ، فرثاه بمرثية رائعة دلت على سماحة وروح وطنية عالية ، من شاعر مسلم فذ ، ومشاركة عاطفية للاقباط فى مصابهم على لسان أكبر شاعر له مكانة أدبية فى عصره : جاء فيها :

١ ـ تبكي المروءات على بطرس	ذاك الهمام الماجد الأروع
٢ ـ فتشت ـ لما لم أجد مقلتى	كفؤا ـ عن الفضل ليبكى معى
٣ ـ فقيل لى : قد سار فى أثره	يوم دفناه ولم يرجع
٤ ـ يا مجريا دمع الملا أبحرا	أدركهم يا مرقيء الأدمع
٥ ـ يا نازلا بين وفود البلى	آنستهم يا موحش الأربع
٦ ـ عينى فيك اليوم قبطية	تروى الاسى عن مسلم موجع
٧ ـ يهيم من وجد ومن لوعة	فى الجانب الأيسر من أضلعى
٨ ـ يا من سقانى الجم من وده	هذا ودادى كله فاكرع
٩ ـ يا حامل القلب الكبير الذى	لم ينقض الميثاق قم واسمع

ولقد ظن الاقباط أو كثيرون من الطبقة المثقفة فيهم ، أن قتل المرحوم بطرس غالى باعتباره أكبر مصرى مسيحى وصل الى مركز رئاسة الوزارة ، ما هو الا بداية لانتقام رهيب من الاغلبية المسلمة للأقلية المسيحية ، فحاولوا النظر فى أمورهم ودراسة موقفهم ،

فعقدوا بمدينة أسيوط في ١٩١١/٣/٦ المؤتمر القبطى ، وطلبوا فيه من الحكومة عدة مطالب ، ظنا منهم أن المسلمين قد استأثروا بكل شيء في البلاد دونهم • فاجتمع المسلمون للرد عليهم فى مؤتمر سموه المؤتمر المصرى أو الاسلامى وتوالت جلساته خمسة أيام من شهرى أبريل ومايو سنة ١٩١١ ، وعقد المؤتمر فى مصر الجديدة •

وكان لهذا المؤتمر غرضان : أولهما النظر فى حال المسلمين الاقتصادية والاجتماعية والأدبية ، والثانى الرد على مطالب الاقباط التى طالبوا بها فى مؤتمرهم وشبت نار الفتنة بين العنصرين ، وسعى أهل الشر فيها سعيهم وقد ذكر الاستاذ الكبير والمؤرخ الوطنى الراحل عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « محمد فريد » ص ٢٧١ بالنسبة لهذا الحادث ما يأتى :

« فى خلال غيبة الزعيم محمد فريد فى سجنه ، حدثت فتنة الخلاف بين المسلمين والأقباط وانعقد المؤتمر القبطى بأسيوط فى شهر مارس سنة ١٩١١ ثم المؤتمر المصرى بمصر الجديدة فى أبريل ومايو سنة ١٩١١ ردا عليه : وكان كلا المؤتمرين مظهرا يؤسف له من مظاهر الخلاف بين المسلمين والأقباط ، وكلاهما قد اجتمع والزعيم فى سجنه ، ولو كان حرا طليقا لما رضى لهذه المظاهر ولنصح باجتنابها ، ولأمكنه أن يعيد التفاهم بين الفريقين لأنه هو ومصطفى كامل أول من وضعوا أساس الوحدة القومية ، وجعلوا الوطنية عقيدة لجميع المصريين على السواء ، ومثل هذه المظاهر لم يفد منها سوى الاحتلال ولم تصدر عن نظر سليم فى الأمور ، ولقد قيل وقت انعقاد المؤتمرين ، ان يد السير الدون غورست المعتمد البريطانى لم تكن بعيدة عن الدعوة اليهما ، ومما يؤيد ذلك أن الوزارة كانت مؤيدة عقد المؤتمر المصرى ردا على المؤتمر

القبطى وهى التى فكرت فى اســناد رئاسته الى مصطفى رياض رئيس الوزراء الأسبق وقد أوعزت اليــه بقبــول الرئاســة على شيخوخته ولو لم يكن الاحتلال مغتبطا بهذه الحركة أو راضيا عنها لما فكرت الوزارة فى تأييدها ، ومما يؤيد ذلك أيضــا أن جميــع موضوعات المؤتمر المصرى والمؤتمر القبطى، قد خلت من أى معارضة للاحتلال أو انتقاد لسياسته ، أو مطالبة له فى تحقيق وعوده ، فى حين أن طابع المؤتمرات الوطنية فى ذلك العهد انما هو توجيه الأمة لمقاومة الاحتلال والجهاد فى سبيل الاستقلال ومما يستوقف النظر حقا أن خطباء المؤتمرين لم يقولوا كلمة ضد الاحتلال ، ولم يكن هذا منهج الزعيم محمد فريد فى خطبه ومقالاته ، ومما يشرف تاريخ فريد حقا أنه لم يشترك فى هذه المظاهرة التى تنافى منهجه ومنهج مصطفى فى تدعيم الوحدة الوطنية » .

ومما قاله الزعيم الوطنى الخــالد (محمــد فريد) (١) فى مذكراته فى أثناء الحكم عليــه بالســجن ســتة شــهور من ١/٣ الى ١٩١١/٧/١٧ « فى أثناء حبسى شرع فى المؤتمر المصرى الذى جمعه محمد سعيد باشا ، بناء على رغبة السيرالدون غورست ، لمحاربة الأقباط وبالتالى للتفريق بين الأقباط والمسلمين » .

كتاب واصف باشا غالى للشاعر :

ولما كان واصف باشا بطرس غالى من أصــدقاء اسماعيــل فقد كتب اليه الكتاب التالى يرغب اليه أن يتوسط فى الصلح بين المسيحيين والمسلمين لما لشعره من الأثر البليغ فى قلوب مواطنيه .

سيادة المفضال اسماعيل صبرى باشا (٢)

---

(١) محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية ـ ص ٢٧٢ لعبد الرحمن الرافعى .

(٢) ديوان اسماعيل صبرى ـ المطبوع سنة ١٩٣٨ .

قيل أن الشعراء أنبياء اذ هم ساسة الأفكار وقادة الشعوب ، فعسى أن يتبعك شعب مصر فتسلك به مسلك الحق والشرف ، والآن يجب على كل عضو من أعضاء العائلة المصرية ، أن يعمل لما فيه التوفيق بين جميع العناصر ، وقد رفعت صوتي الضعيف مناديا بالاتحاد والوئام ، على أني لست ذلك الرجل الذى في استطاعته أن يحرك عواطف الأمة فهل لك يا سيدى أن تبذر بذور السكينة والوفاق لتثبت شجرة المجد والصفاء ، فتثمر ثمار العز والمجد للبلاد .

ولعمرى أن صوتك هو المسموع المجاب ، فنظمك سحر يجمع القلوب المتنافرة وها نحن على مقربة من تاريخ ذكرى صديقك الحميم (يعنى ذكرى المرحوم بطرس غالى فى ٢١ فبراير سنة ١٩١١) فهل تتفضل بنظم قصيدة تضمنها ما كنت ذكرته لى فى كتابك الكريم :

« مثل الأقباط والمسلمين فى مصر كمثل العينين فى الوجه يؤلم اليمنى ما يؤلم اليسرى ، وتكللها بالدعوة الى أن يكون جدث الفقيد العظيم كعبة يقصدها الوطنيون الصادقون ، ووصلة الأرتباط المتين بين الأقباط والمسلمين ، وأنى أشكرك من أجل ذلك باسم والدى بل بصفتى ابنا حنون على وطنه وأمته .

وتفضل بقبول احترام اخيك الحافظ لك ودأبيه ،،،

١٩١١/٢/٨ — واصف بطرس غالى

* * *

قصيدته فى مواساة الأقباط في مصابهم :

وكان من أثر ذلك أن وجه اسماعيل صبرى قصيدته التالية الى الأقباط مواسيا اياهم فى محنتهم ، داعيا الى التخفيف من حدة الحزن والأسى على فقد زعيمهم بطرس غالى ، مستنكرا جريمة مقتله

أشد الاستنكار ، ومنددا بالقاتل على تهوره وخيانته البشعة مناشدا الجميع التمسك بعروة المحبة والاخاء والوحدة ·

معشر القبط يا بني مصر في السـ ـراء قد كنتم وفي الضـــــراء
قـد فقـــدنا منا ومنكم كبيرا كان بالأمس زينــــة الكبــراء
فأقمنـــا عليـه في كل نــاد مأتما داويا بصوت البكاء
ومزجنـــا دموعنـا بدمـــوع بذلتهـا عيونكم في ســـخاء
ورأينا فتك الرزيئة بالعقـــ ـل وفعل المصاب بالعقـــلاء
بارك الله فيكم أنتم النـــا س وفاء ان عد أهل الوفـــاء
ادمع جاوزت مدى كل حـــزن وتخطت حـــدود كل عـــزاء
وعـديد وراء كل خيــــال وعـــويل في أثر كل هنـــاء
لو بلغتم على النجوم صعـــودا لا تهمتم كـواكب الجـــوزاء
عذركم أن (بطرسا) كان في مصـ ـر كبيرا في الفضل جم العـلاء
خففوا من صياحكم ليس في مصـ ـر لابنـاء مصر من أعـــداء
دين عيسى فيكم ودين أخيـــه (أحمد) يأمراننا بالاخـــاء
ويحكم ما كذا تكون النصـارى راقبوا الله بارئ العـــذراء
مصر أنتم ونحن ، الا اذا قـــا مت بتفريقنا دواعي الشـــقاء
مصر ملك لنـا اذا ما تماسـكـ ـنا والا فمصر للغـــرباء
لا تطيعوا منا ومنكم أناســـا بذروا بيننـــا بذور الجفـــاء
لا تولوا وجوهكم شـطر من عـــكر ما في قلوبنــــا من صفـــاء
ان دين المسيح يأمر بالعـــر ف وينهى عن خطة الجهـــلاء
لا يكن بعضنا لبعض عـــدوا لعن الله مستبيحي العـــداء
أيها القاتل اشرب الموت كأسـا في نضير الصبا وغض الفتـاء
لو ملكنا شيئا اشد من القتـل جـــزاء لنلتـه من جـــزاء

ولعل هذه القصيدة بالنسبة للظروف التي قيلت فيها تعد من القصائد التاريخية التي يجب أن تخلد على مر الزمان ، لأنهـــا عالجت

مشكلة من أخطر المشاكل التي تعرض لها هذا الوطن في وقت كان الاحتـــلال البريطاني جاثما على البلاد ؛ مشجعا للعوامل المناهضة لوحدة الأمة ، ومستغلا لكل خلاف ينشب بين الأقباط والمسلمين .

بل هي أيضا من القصائد البناءة ، لأنها عالجت جرحا غائرا في بنيان المجتمع وأطفأت نـــارا خبيثة كادت أن تنتشر ، فــلا تبقي ولا تذر ، وصدورها من امام الشعراء المسلمين في ذلك العهد ، كان له أطيب الأثر وأحسنه في تلطيف الجو وتأكيد روح التعاون والمودة والاخاء بين المسيحيين والمسلمين من أبناء هذا الوطن العزيز .

شـعر المراثى

مقـــدمة :

ان أول ما يطالعك من مراثى « صبرى » انهـــا رثاء بالمعنى الانسانى العميق . حزن على المرثى يختلف قوة وضعفا ، حسب صلة الشاعر به فى حياته ، والانطباعات التى تركها المرثى فى نفسه ، من واقع آثاره فى الوطنية أو الاصلاح أيا كانت ضروبة وتركيز على جوانب حياته وخلاله وفضائله وآثاره ، وبكاء من الشاعر لنفســه ولذكرياته ولأحبابه الراحلين ، وشجا يتجدد كلما اختطف المـــوت خليلا أو زعيما أو وطنيا صالحا ، وأقوى ما يكون هذا الطابع حين يندب الشاعر عظيما دينيا أو ثقافيا أو سياسيا اتصل هو به ، ولمس خلاله عن قرب ، وتوثقت بينهما العلاقات وتألفت المبادىء والأفكار :

فاذا رثى (الشيخ محمد عبده) ـ مثلا ـ عرض عليك الامـــام فى روائع آثاره ومواقفه وصور لك فجيعة العلم والدين والبر والتقوى فيه ، ونستطيع أن نقول مثل هـــذا فى ما قال من رثائه غيره من الراحلين فهو فى كل موقف من هذه المواقف يذيب قطعة من نفسه ، ويندب حظه فى أحبابه وحظ الأمة فى رجالها ، وحظ الشرق فى نابغيه .

ومما يتصل بهذه الناحية أيضا فى مراثيه ، ارساله نفسه على سجيتها فى الحزن وتصويره هول الفاجعة واستثارته الجوانب المؤثرة من الموقف ، فاذا رثى زعيما عظيما كمصطفى كامل ـ أراك فداحة المصاب ، وكيف ينصب فى النفوس انصبابا ثم هو أيضا يصطنع الحكمة والتسليم بالمقدور والاذعان لحكمة الله فى كثير من المراثى .

وقد أوردنا أغلب مراثيه ، ومما لم يرد منها مراثيه للخديوى محمد توفيق عام ١٨٩٢ ، أمين فكرى باشا عام ١٨٩٩ ، على أبو الفتوح باشا عام ١٩١٤ وتعازيه الى يوسف سابا باشا عام ١٩١٢ ، الشيخ على يوسف عام ١٨٩٧ السلطان حسين كامل عام ١٩١٦ ، وقد ذكرنا فى مواضع سابقة رثاءه لمصطفى كامل وبطرس غالى .

ومن مراثيه المشهورة رثاؤه للامام المصلح الكبير الشيخ محمد عبده ولقد كانت للامام مبادىء لا ترضى الكثيرين ، رغم أنه يعد من أقطاب الاصلاح ، الدينى والاجتماعى والأدبى والسياسى فى البلاد حتى انبلاج فجر القرن العشرين .

اما اصلاحه الاجتماعى والدينى فيتمثل فى تدريسه فى الازهر وفى دار العلوم ونحوهما ، والكتابة فى الصحف ، حيث أخذت مقالاته طابعا تعليميا بحتا أصبح به معلم الأمة ، بما يصدره من الفتاوى الشرعية ردا على أسئلة الطالبين ، وبما يعبر عن عقلية حرة تحب الاجتهاد فى الرأى وتكره الجمود الفكرى ، وفى الازهر كان له الأثر البالغ فى التوفيق بين الدين والعلم ، وقد استخدم الصحافة كمنبر عام يخاطب به الشعب فى أمور الدين وأمور المجتمع ، داعيا الى اصلاح الحكومة واصلاح أحوال الأمة . وقد سعى فى سبيل اصلاح المحاكم الشرعية والأوقاف الأهلية والشرعية ، ودعا الى

اصلاح الازهر وادخال العلوم الحديثة فى برامجه الى غير ذلك من دواعى الاصلاح والترقية ، وفى ميدان الاصـــلاح الأدبى واللغوى سلك عدة طرق منها طريقة احياء الكتب القديمة وشرحها شرحـــا وافيا ولمـا عين محررا للوقائع المصرية سعى فى اصلاح لغة الدواوين الحكومية وازالة ما بها من ركاكة ، وفى ميدان الاصلاح السـياسى طالب بايجاد دستور محقق لسيادة الأمة ومقيد لسلطة الاحتلال والخديوى فى وقت واحد معا ، وكان له نشاطه الجم فى مجلس شـــورى القوانين منذ دخله سـنة ١٨٩٩ ، وأثره الكبير فى كل ما اتصل به من لجانه المختلفة وكان الامام صاحب مدرسة كبرى من مدارس السياسة ما فى ذلك شك ، وكانت هذه المدرسة تؤمـن بطائفة من المبادىء منها تزويد الأمـــة بأدوات الاستقلال وانمـــاء الشخصية المصرية بكل الطرق الممكنة ، وتنقيتها من رواسب الماضى، والتدرج بالأمة فى الاصلاح ثم الاخذ بنظرية التســـامح الدينى بين الاقباط والمسلمين .

هذه هى آثار رجل كان شديد الاخلاص فى خدمة وطنه وخدمة دينه ، ورغم شدة خصومة الخديوى عباس حلمى له واستنكاره لمن اشترك فى تشييع جنازته فقد رثاه صبرى بهذه المرثية الخالدة التى تعد مستندا لمـا أوردناه عنه من ماثر .

رثاؤه للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥

تدفق دموعا أو دمـا أو قوافيـــا
مآتم أولى الناس بالحـــزن ها هيـا

أيجمل أن تنعى الفضـــائل للـورى
ولم تك فى البـــاكين ويحك باكيا

أغرك من بعض الليـــالى سكونهـــا
فبت قريرا ناعم البـــال هانيـــا

لقد سكنت لكن لترهف للوغــــى
دقــائق من ساعاتهــا وثوانيــــا

الا أن بين الكـــأس والفم فرجــــة
لركض عظيمـات تشيب النواصيــا

فنبه رقيبا من حذارك كلمـــــــا
رأيت بأطـراف الفــؤاد أمانيـــــا

(محمد) دور العلم كانت أو أهـــلا
بفضــــلك ما بين الأنام زواهيــــا

فصبحها الا من الحزن والاســـــى
عليك القضاء المستبد - خواليـــا

فما للردى - لا بارك الله فى الردى
أحال بشير الأمس فى الكون ناعيـــــا

برغم الحجا والمجـد أن مسك البلــى
بسؤ فأضحى عودك الصلب ذاويـــا

وان أقفـل البـــاب الذى كنـــت عنـــده
تقابل ملهوفا وترصـــد شاكيـــا

(محمد) من للدين يحرس حوضـه
ويدرأ بين الناس عنه العواديـا

تعـرض قـــوم للكتاب واتخنـــوا
صراحتــــه شرحا عن القصد نائيـــا

فارسلت فيـــه نظـرة نفـــذت الى
صميم مـراد اللـــه اذ قمت هاديـا

ووفقت بين الشرع والعقل بعلمـــا
قـــد اعتقد الالفــــان الاتلاقيـــا

وقفت وأقــلام الغواية شـــــرع
وأقلام أهل الحق ترنو سواهيـا

وأفحمت بالبرهـــان كل مناضـل
لو أنك لم تغضب لزاد تماديــــا

فغــاؤ الى الحسنى ولو لم تحجهـم
لعادت زئيرا صيحة القــوم داويـــا

هنيئـا لهم فليحملـوا حمـلاتهم
فقد أصبح الميـــدان بعدك خاليـــــا

(محمد) وفيت المروءات حقهـــا
وقمت اليها فى حياتك داعيا

وعلمت أهل العرف فى العرف أوجها
لها غرر مشـــهورة ـ ومعانيـــــا

وعالجت أمـراض القلوب بحكمـــة
ترى ظاهرا من خلفها البرء صافيـــا

وأودعت فى الطلاب أجزاء مهجـــة
ترى العلم ان لم يعل المرء هـــاذيا

مناقب ان عدت تضوع بيننـــــا
كأنا اتخذنا ساحة الروض ناديـــا

ألانم مع الأبرار في الخلد ناعمـــا
فكم بت فينا ساهر العزم عانيـــا

جزيت عن الاســـلام ما أنت أهلـه
فقد كنت سيفا في يد الحق ماضيـــا

« رثاء عمــــر »

نجل الشيخ على يوسف صاحب المؤيد سنة ١٩٠٨

يا ما لىء العين نورا والفــؤاد هوى
والبيت أنسا تمهل أيهــا القمــــر

لا تخل أفقك يخلفك الظلام بـــه
والزم مكانك لا يحلل بــه الكـــدر

فى الحى قلبـــان باتا يا نعيمهمـــا
وفيهما ـ اذ قضيت ـ النار تستعر

وأعين أربع تبكى عليــــك أســـى
ومن بكاء الثكالى الســـيل والمطــر

قد كنت ريحانة فى البيت واحـدة
يروح فيه ويغدو نفحها العطــــر

ما كان عيشك فى الأحياء مختصـرا
الا كمـــا عاش فيه كمـــامه الزهر

فارحل تشيعك الارواح جازعـــــة
فى ذمة القبر بعد الله يا (عمــــر)

★ ★ ★

رثاء السلطان حسين كامل فى اكتوبر سنة ١٩١٧

لهف سارى الدجى لقد أفل البـــدر
وطـــال السرى وغـــاب الهـــادى

لهف راجى القرى (١) وحاتم طـــى
قد خبت (٢) نـــاره بهـــذا الوادى

---

(١) القرى : ما يقدم للضيف .

(٢) خبت : خمدت .

لهف شاكي الصدى اخو النيل قدبا
ت بعيـــد المزار عن كل صـــادى
من يغيث المظلوم ان بات يشـــكو
و (حسين) عدت عليه العـــوادى
حبـــذا طيف نهضة قد أرانـــا
ه عيـــانا لم يتـــفق فى رقـــاد
فكأنا من (عابدين) خروجـــا
نتهـــادى منهـــا على ميعـــاد
لم ير المـــوت رأيـه وتقضـــى
حلم قـــد سرى بأقصى البـــلاد

★ ★ ★

تعزية كتب بها الى الشيخ على يوســف
صاحب المؤيد عند وفاة ابنته « فتحية » سنة ١٨٩٧ م

هى الدنيا وان جادت بخيلــــــة
يد الحرمان فى يدهـــا المنيلـــة
ســـواء من يعيش الألف فيهـــا
ومن أيامـــه فيهـــا قليلـــة
لئن قصرت بمن تهـوى الليـــالى
فـــان فتـــوح والدهـــا طويلـــة
أأســـتاذ المؤيـــد هـل أعـزى
فجهدى اليوم تعـــزية جميلة
فمـــا فى لوعـة الآباء شـــك
ولا فى ذاهب الأبناء حيلـــة

وأنت المرء أن أخطأك نسل
فنسلك بيننا الخدم الجليلة
تمناك النجوم أبا ، وتأبى
شريكا في أبوتك الفضيلة

★ ★ ★

رثاء المرحوم اسماعيل ماهر بك

قاضي محكمة الاسكندرية المختلطة في سنة ١٩١٠ وكان صديقا لصبري في المدرسة ورفيق صباه

أناعي ماهر لم تدر ماذا ... أثرت من الشجون الكامنات
نعيت الى أيامى تقضت ... باسماعيل غرا صافيات
الا من للضعيف اذا تقاضى ... ولم ير شخصه بين القضاة
ومن للعدل ان رفعت بناة ... دعائمه ولم يك في البناة
أماهر ان وعد الله حق ... وما جزعي عليك من التقاة
فما لى - والأناة ملاك نفسي ... هلعت ولم تجملني أناتي
وما لى ان أمرت ببعض صبر ... رأيت الصبر احدى المعجزات
أماهر كنت فيما مر أنسي ... فمن لى في الليالى الباقيات
وكنت اذا شكوت تبيت وجدا ... تردد ما يريبك من شكاتي
وتسأل سارى النسمات عني ... جنوا والبروق الوامضات
ومن يفقد شبيهك يبك دنيا ... تولت بالمودة والمقات (١)
كذبتك لو صدقتك بعض ودي ... لهد جوانحي صوت النعاة
ولاستقصت حيال النعش عيني ... وراءك راحلا همم البكاة
برغمي أن تقلص منك ظل ... وقاني حقبة لفح الحياة
وان نضبت خلال كنت منها ... أعب لديك من عذب فرات

(١) المقات : جمع مقة بكسر الميم وهي المحبة .

وأن صـــفرت يمينى من وداد غنيت به ليـــالى خاليـــات
أخى مـا حيلتى الاســلام يزورك فى المساء وفى الغـداة
والا الدمع أنثره عقيقـــا على ذكرى حلاك الغائبـــات
قضيت فكنت أسرعنا مســيرا الى غرف الجنان العاليـــات

وهذه القصيدة تعد من أبرع مراثيه وفيها يفيض حزنا وعاطفة ورقة ، بل تذوب نفسه فيها ذوبانا وقد أودع فى أبياتها قطعـا من أفلاذ كبده ، على صديق العمر ورفيق الصبا الذى شاركه جميــع مراحل العمر منذ كان طالبا فى معاهد الدرس والتعليم الى أن أصبح من رجال القضاء .

والقصيدة بصفة عامة سجل يروى فيه الشاعر الملتاع ذكريات صداقته ويروى خلالها ما أثر عن صديقه ، من وفاء وصداقة خالصة ومحبة قوية ومودة صافية ، ويبكى فجيعته فى صديقـــه ، وتشعر بدموعه الحارة تجرى فى جميع سطورها .

★ ★ ★

رثاء اسماعيل نجيب (١) نجل ابراهيم نجيب باشا وكيل الداخلية عام ١٩٠٧

الا ياتجار العصر هل فيكم امرؤ يبيع على صرعى الهموم عـــزاء
اذا دلنى منكم على مثله فتـــى خلعت عليه ما يشـــاء جـــزاء
ففى الحى قوم عاكفون على لظى تذيبهم البلوى صباح مســـاء
يخالهم الرائىسكارى من الاسى فيبكى عليهم رحمة ووفـــاء
لو أن قلوب الناس طوع ارادتى أحلت الاسى فى بعضهن هنـاء

(١) المرحوم اسماعيل نجيب مات فى ريعان شبابـــه بعد أن نال شهادة الليسانس وعين مأمورا للضبط بالجيزة ـ وكان والده صديقا حميما للشاعر .

ولو طاوعتنى كل عين قريحـــة … لما ذب بعض الثاكلين بكـــاء
وعالجت ابراهيم مما اصـــابه … وداهمه حتى ينـال شـــفاء
مصابك اسماعيل زعزع شامخا … وضعضع طوداراســـيا وأساء
وأودى بآمـــال كبـار تصرمت … برغم ذويك – البائسين هباء
مصابك اسماعيل أودى بأسره … تكلفت الصبر الجميل حيـــاء
وقلص آمـــالا كبـارا كأنهـا … مدى الدهر لم تعقد عليك لواء
على قبرك المطور منى تحيـــة … فقد ضم غصننا ضرا وفتـــاء

★ ★ ★

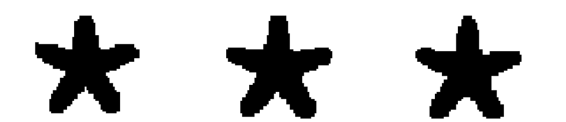
رثاء سليم بك تقـــلا

مؤسس صحيفة الأهـــرام عام ١٨٩٣م

اذا كان ورد الموت ضربة لا زب … فطول سرور المرء موعد كـاذب
فلا تغترر بالعيش واحذر فانما … صفاء الليالى هدنة من محـارب
يبيت الفتى خلو الفؤاد كأنـه … رأى بينه سدا وبين النوائب

★ ★ ★

برغمى أن يدعى ترابا وأعظمـا … فتى كان يدعى قبل أكتب كاتب
فتى كانت الاقلام تشهد أنـــه … يجل مقام الكتب فوق الكتائب
هوى كوكبا ما البدر ليلة تمه … بأفتك من لآلائـه بالغيـــاهب
فتى طبعـــه قد كان كالماء رقة … فلو صب فى كأس لساغ لشارب
فيا راحلا قد غاب عنا ومن تكن … كذكراك ذكراه فليس بغائب
سلبت النهى حبا بباهر حكمة … وعـــاطر أخلاق ورقة جـانب



رثاء (١) عبد الله فكرى باشا ١٨٨٩ ·

ان الليالى من أخلاقها الكـــدر ... وان بدا لك منهـا منظر نضر
فكن على حذر مما تغر بــــه ... ان كان ينفع من غراتهـا الحذر
قد أسمعتك الليالى من حوادثها ... ما فيه رشدك لكن لست تعتبـر
ان كنت ذا أذن ليست بواعية ... قل لى بعيشك ماذا تنفع العبر
للدهر لو كنت تدرى هول منطقه ... وعظ تردده الآصال والبكـــر
يا من يغر بدنياه وزخرفهـــا ... تا لله يوشك أن يودى بك الغرر
ويا مدلا بحسن راق منظـــره ... للقبر ويحـك هذا الدل والخفر
تهوى الحياة ولا ترضى تفارقها ... كمن يحاول وردا ما له صــدر
كل أمرىء صائر حتما الى جدث ... وان أطـال مدى آماله العمـــر

* * *

أبعد أن مات عبد الله ــ مرتهنا ... تحت الثرى ــ يرتجى صفو وينتظر
ياويح من أودعوه القبر هل علموا ... ان المكارم كانت بعض ما قبروا
قد غيبوا ماجدا كانت مناقبـه ... بها الزمان اذا مازل يعتــذر
وعطلوا من ربوع العلم أنديــة ... كانت بعلياه يوم الفخر تفتخر
مضى وخلف فينا من فضائلـه ... بدائعا يجتليها السمع والبصر

---

(١) عبد الله فكرى باشا من أعلام الادب فى عصر اسماعيل ، ولد بمكـة ونعلم اللغة والفقه الحديث وتولى عدة مناصب حكومية . آخرها تولية وزارة التربية والتعليم فى وزارة محمود سامى البارودى باشا . ثم ندبته الحكومة عام ١٨٨٨ لحضور مؤتمر المستشرقين بمدينة استوكهلم ولما عاد من رحلته اهتم بتدوين كتاب عنها ولكن المنية وافته عام ١٨٨٩ قبل اتمام الكتاب ·

الصالونات الأدبية فى القرن الماضى

مقدمـــــة :

لقد كانت القـاهرة فى عهد اسمـــاعيل صبرى تعج بكثير من الشعراء والأدباء والكتاب والصحفيين والمنتسبين الى هؤلاء جميعـه من أصحاب المهن الاخرى ، من مصر وغيرها من الاقطار العربيـــة والاسلامية ٠

والذى يقرأ تفصيلات هذه الفترة يشعر بأن البلد كان أشبه بخلية نحل بمن فيه من أصحاب الكلمة ، بالقلم واللسان ، يسعون سعيا دائما فى الصباح والمساء ، وفى الليل أوله وآخره ، لا تفتر لهم حركة ، ولا تكل لهم همة ، رغم ظروف الاحتلال الاجنبى وحكم الاستعباد والاستغلال ، تجمعهم حلقات على الكلمة الأدبية ، أو الطرفة المليحة ، أو الفكاهة العذبة ، أو الخبر المهم أو الحـــديث الطلى أو الدرس السياسى الممتع ، ولم يكن لبعضهم مكان معين أو مجلس خاص والبعض الآخر اتخذ مشربا معينا مكانا لعقد حلقاته فى مواعيـــد منتظمة ، والبعض يجتمع فى المساجد وخاصـــة الجامع الازهـــر وحلقات أشـــياخه والبعض فى الدور والمقـــاهى يعقدون مجلسهم وأنديتهم فى انتظام وفى غير انتظام ٠

ولقد كان شارع محمد على من الشوارع المهمة فى ذلك العهد ، فهو شارع الصحافة القديم وقد وصفه على باشا مبارك فى كتابه بأنه أجمل شوارع القاهرة ، ومن هذا الشارع ، صدرت صحف : المؤيد والجريدة والفلاح والصاعقة والحال والمحروسة وحمارة منيتى وفيه كانت كل الندوات الأدبية المعروفة تقريبا مثـــل ندوة حافظ ابراهيم وندوة امام العبد وكان كبار المفكرين والأدباء يترددون على مقاهى شارع محمد على مثل : لطفى السيد والعقاد والمازنى والمنفلوطى والشيخ على يوسف واسماعيل تيمور (وشيخ العروبة أحمد زكى) وعندما قررت الدولة أن تكـرم الأدباء أقـــامت لهم دار الكتب فى شارع محمد على ، وقد كانت به أهم ورش الحفر بالزنكوغراف وأهم المكتبات الشهيرة ؛ وكانت المقاهى فيه هى مركز النشـــاط الأدبى والسياسى وكثير من المؤتمرات السياسية دبرت فى هذه المنطقة .

ومن أهم المقاهى التى كانت تعقد بها الندوات « قهوة المضحكخانة الكبرى فى شارع الخليفة منذ أيام محمد على وكان يتردد عليهـــا جلة من العلماء والأدباء مثل الشيخ أبى النصر والمنفلوطى وأحمد سمير وأمين فكرى . أما المجلس الحافل الذى كان يعقده حكيم الشرق العظيم والزعيم السياسى والأدبى الكبير (الذى تدين له الأمم الشرقية جمعاء بنهضتها السياسية والفكرية والاجتماعية) جمال الدين الافغانى ، فى فترة اقامته بمصر من مارس سنة ١٨٧١ الى أغسطس سنة ١٨٧٩ (تلك الفترة المباركة الخصبة من ناحيـــة ثمارهـــا ونفحاتها) كان ينعقد فى قهـــوة ــ متاتيا ــ بميدان العتبـــة الخضراء ــ وكان بمثـــابة مدرســـة سياسية على أعلى مســـتوى عرفته البلاد ، ولم يسبق أن أتيحت لها فرصة أمثال هذا المجلس من قبل . وكان من الذين تلقوا دروسه فى هـــذه الحلقة الفريدة خطيب الثورة العرابية الكبير السيد عبد الله النديم أستاذ مصطفى كامل ومحمود سامى البارودى وعبد السلام المويلحى وسعد زغلول

ومحمد عبده وابراهيم اللقانى وعلى مظهـــر وسليم نقــاش وأديب اسحق وغيرهم ·

الصالونات الأدبيـــة :

كما اشـــتهرت دور طائفة من الوجهاء والعظماء بندوانهـــا وصالوناتها الأدبية ومجالسها العلمية نذكر من أهمها :

مجلس السيد توفيق البكرى فى داره بحى الخرنفش ، ومجلس محمود سامى البارودى فى باب الخلق ثم فى حلـــوان ، ومجلس الشيخ محمد عبده فى داره بعين شمس ومنتدى الاميرة نازلى فاضل بدارها خلف قصر عابدين وكرمة ابن هانى فى دار أحمد شـــوقى بالجيزة ، وصالون الاهرام « الأدبى » ونادى القلم وعيادة الدكتور محجوب ثابت ·

وفى العهد الحالى مازالت الندوات الأدبية بالقاهرة تلتئم فى الجمعيات والاندية الخاصة ، مثل جمعية الأدباء والجمعية الأدبيـــة المصرية وجماعة الامناء وفى كثير من البيوت الكريمة والمشارب التى يضيق بذكرها المقام ·

الصالون الأدبى فى قصره :

كان قصره فى شـــارع قصر العينى مثـــابة للأدباء ، وملاذا للشـــعراء يمتحون من معينـــه الفيـــاض ، ويترعون من المؤثرات الجميلة التى يعج بها ، ما يقوم أقلامهم ويشحذ ملكاتهم ، ويغذى قرائحهم ، بل كان صالونا أدبيا على نمط رفيع وهذا يذكرنا بالنوادى الأدبية فى فرنسا فى القرن السابع عشر والتى كانت المرأة الفرنسية زينتها وجلوتها ·كما كانت داره مجالا رائعا لتلاقى الأدباء وتبادلهم الرأى فى مســـائل الأدب والشعر والنقد وفى

منتداه قرأ كثير من الشعراء شعرهم وأخصبت قرائهم وصقلت مواهبهم وأثرى معينهم من الالهام ·

وفى ذلك يقول أحمد شوقى :

أيام أمرح فى غبارك ناشئا نهج المهار على غبار خصاف(١)
أتعلم الغايات كيف ترام فى مضمار فضل أو مجال فواف

★ ★ ★

وقال خليل مطران : (٢)

أى صاحبى لقد قضى أستاذنا البر الحبيب
فعرا قلادتنا وكانت زينة الدنيا شحوب

★ ★ ★

وقال (٣) حافظ ابراهيم :

لقد كنت أغشاه فى داره وناديه فيها زهى وازدهر
وأعرض شعرى على مسمع لطيف يحس نبو الوتر
على سمع باقعة حاضر يميز القديم من المبتكر
فيصقل لفظى صقل الجمان ويكسوه رقة أهل الحضر

---

(١) خصاف : فرس مشهور عند العرب ·

(٢) ديوان خليل مطران ·

(٣) ديوان حافظ ابراهيم ·

وتدلنا هذه الأبيات التي قالها أعظم شعراء ثلاثة في العصر الحديث أن اسماعيل صبري كان أستاذهم وامامهم وفي ظله الرحيب ومغناه السامر ،وناديه الوارف ، استمدوا ما استمدوه من أدب وصقل وتشجيع وتقويم وهذا وأيم الحق من مآثر صبري الخالدة ، أن أظل الشعراء والأدباء بوارف ظله ، وكريم حدبه ، ومما لا شك فيه أن هذا الصالون كان مجالا لعرض الانتاج الأدبي والشعري على صنوفه المختلفة ، وكثير من المؤلفات التي نشرت كانت من آثار هذا الصالون ، ولذلك كان عاملا مساعدا لزيادة الثروة الأدبية في البلاد ، وقد قدر اسماعيل صبري للكتاب والأدباء ما أنتجوا وشجعهم على ذلك بمقطوعات شعرية لطيفة منها تقريظه لكتاب « قلائد الحكمة » للأستاذ أحمد الزين وهو كتاب مشتمل على كثير من الأراجيز في الآداب والأخلاق والاجتماع جمع كثيرا من شتات الحكم المأثورة والآداب المنثورة .

نشرت هذه المقطوعة في سنة ١٩١٨

اذا كنت (يا زين) زين الأدب   فان كتابك زين الكتب
(قلائد) حليت صور البيان   بهن وطوقت جيد العرب
خلائق تزري بنفح الرياض   اذا ضحكت من بكاء السحب
وما المرء الا بخلق كريم   وليس بما قد حوى من نشب

★ ★ ★

ثم يقرظ « ليالي سطيح » تأليف الشاعر حافظ ابراهيم بهذه الأبيات التي نشرت في سنة ١٩٠٦

طالب الحكمة خذها جملة   عن «سطيح» من لدن أفصح لافظ
قطع تبهر ألباب الورى   ضربت في مصر أيام حافظ

ثم يقرظ الجزء الأول من ديوان الشاعر أحمد نسيم

لك في الشعر يا نسيم معـان ... باهرات تحار فيها العقـول
كل بيت يطل منـــه على أفـ ... ـهام أهل النهى محيا جميـــل

ويقرظ الجزء الثانى منه فى سنة ١٩١٠ قائلا :

أى غصن في الروض هز (نسيم) ... نثرت منه هـــذه الأزهـــار
حبذا شعره الجنى وأهـلا ... ببيان تزهى بـه الأشـــعار

★ ★ ★

ثم يقرظ ديوان أحمد شوقى المعروف بالشوقيات فى قصيدة من خمسة وعشرين بيتا جاء فيها :

ان ما بت تشـــتكى منه داء ... هى أدرى ببرئه لو تشاء
غـير أنى أراك تكتم عنهـا ... لوعة من حقوقهـــا الافشـــاء
أحسبت النوال يهمى على العـا ... شق عفـــوا وتهطل الآلاء
أو أعدت للصـــامتين العطايا ... أغرق البكم اذ يفيـض العطاء
شغلت بالقريض عنا الغوانى ... وأصـــاخت لربه العـــذراء
ورأينا ديوان « أحمد » لا تصر ... ف عنه القلوب والأهـــواء
مرحبا بالعلاء وفى القـــوافى ... حظها منه رفعة وســـناء
مرحبا بالقريض وفى المعـالى ... قسـطها منه رونق وبهـــاء
مرحبا بالحياة فى الوصف تسرى ... فيعاد الموصوف والأشـياء
مرحبا بالبيان سحرا وبالشعـ ... ـر تحليــه حكمة غـــراء
مرحبا بالمقال سمحا كريما ... لم يشـــبه هجو ولا ايـذاء

وطالما هنأ أصدقاءه من مرتادى هذا الصالون ، فى المناسبات الخاصة بهم ومن ذلك تهنئة لشوقى أيضا حينما نال الرتبة الثانية سنة ١٩٠٥ م .

أشـوقى لقد نلت ما تشـتهى بفضل أمير رفيـــع الذرا
ومن كان ممدوحه فى السماء تسنم متن السنا منبـرا

وكذلك تهنئة لحافظ ابراهيم بنواله رتبة البكوية



أخلق بمثلك أن يفوز برتبـــة قد أشرقت بك للعفاة سماؤها
يا خير كفء نالها عن فطنـة وكفاية أعمى الحسود ضياؤها
عش للقريض فأنت بانى مجده بقصائد غر يلوح سناؤها
لم لم تفز بأعـــلى رتبـــة لسالت أن يهدى اليك لواؤها

المدائح والتهانى

اشتهر ديوان اسماعيل صبرى بالتهنئات التى رفعها للحكام الذين عاصرهم وهم الخديويون اســـماعيل وتوفيق وعباس حلمى ، كتقليد شائع فى عصره عند جميع الشـــعراء وتسمع له فى الفترة من عام ١٨٨٧ حتى ١٩٠٨ قصائد كثـــيرة فى مدحهم وتهنئتهم فى الأعياد وشتى المناسبات ، كما مدح السلطان حسين كامل فى مناسبة توليته ، وفى مناسبة نجاته من حادث الشروع فى الاعتداء عليه ، وعزاه فى وفاة والدته كذلك مدح أحد أساتذته فى مدرسة الادارة والألسن وهو صالح مجدى بك سنة ١٨٧٢ وقد دل ذلك على فضيلة الوفاء لمن علموه .

وقد بدأ حياته الشعرية بمدح الخديوى اسماعيل (وهو بعد طالب بمدرســـة الادارة وعمره لم يتجاوز السادسة عشرة) ، بمناسبة عيد الأضحى ، بقصيدة جاء فيها :

(١) سفرت فلاح لنا هلال سعود	ونما الغرام بقلبى المعمـود
وجلت على العشاق روض محاسن	فسقى الحياة شقائق التوريـد
ورنت بأحور طرفها وتبسمت	فبدا ضياء اللؤلؤ المنضـــود
يا ربة الطرف الكحيل تعطفى	وعلى محبـــك بالمودة جودى

---

(١) يقصد فى هذا البيت ولى العهد محمد توفيق باشا الذى تولى الحكم بعد خلع اسماعيل .

الى أن قال :

فالقطر عم سناؤه وبهاؤه بمحمد وبسعيه المحمود
لازلتما بدرين فى أفق العلا بهما زها اشراق يوم العيد

والملاحظ على مدائح اسماعيل صبرى الأولى وهو فتى صغير، أنه لم يجدد فى شعره ، انما سار على نهج العرب الأقدمين ، فى فى معانيهم وألفاظهم ، ولم يستطع التخلص من ربقة الأدب القديم ، كما لم تواته ذخيرته من محفوظ الروائع الخالدة على اجادة التقليد ؛ واكتفى بترديد المعانى المطروقة من قيل بأسلوب يناسب بيئته وثقافته ، ولكنه بعد عودته من بعثته العلمية فى الخارج ، تطور شعره فى المديح وتخلص من كثير من العيوب التى شابته ٠

ولم يسخر الشاعر أوتاره لتهتف فى أى مجال دون أن يكون له قصد سوى الظهور والشهرة . ولكنه أثنى على من يستحق الثناء وأكرم من هو أهل للتكريم ٠ وقد اشتهر ديوانه بالتهنئات التى رفعها للحكام فى مناسبات مختلفة ٠ وقد أقام رجال القضاء والقانون بالاسكندرية حفل توديع له بمناسبة نقله وترقيته الى رئيس محكمة القاهرة فى سنة ١٨٩١ م فشكرهم على شعورهم قائلا :

شكرا على ما بدا من صدق ودكم فانني من صميم القلب ممنون
والله ما بعتكم حبا بغيركم ولو فعلت اذا انى لمغبون
وانما قضى أمر المليك بذا وكل عبد بأمر الملك مرهون
وبعد فالقلب ان أجسامنا افترقت رقيد بحبال الود مقرون
فاسأل الله ابقاء الهناء لكم ان الهناء بحمد الله مضمون

وقال فى هذا الغرض أيضا :

يا آل الفضل والكمال ويا قرة عين الوفاء وعين الوداد

يا لذى زانكم وميزكم بالعلـــ   م والحلم والهدى والرشـــاد
أنصفونى من لطفكم فلقد غا   درنى راحلا بغير فـــؤاد
واحفظوا عهدى القديم فانى   حافظ عهدكم برغم البعـاد
فاذا قرب النفوس ائتـلاف   فإن عندى تفرق الأجسـاد

في تكريم الشاعر المرحوم خليل مطران
قيلت فى حفلة تكريمه بالجامعة المصرية عام ١٩١٣

★ ★ ★

امطرى ياسحائب الفضل ماشئت   وفيضى على الربا والوهاد
واتركى كل عاطل خالى الصـــد   ر وقرير العين فى كل ناد
لن تزينى أحق من جيد (مطرا   ن) وأولى من صدره بالانتقاد
فلم تصدر الحقائق عنـــه   حاليــك فى أجمـل الأبراد
ولسان يمسى يديره فكـــ   ر كبير النهى كبير المراد
ايه (عباس) شق نهجا جديدا   كل يوم الى ذرا الأمجـاد
وتخير للسعد أمثال (مطرا   ن) أحق الأنام بالاســعاد
وأنلهم مما تصوغ المعالى   نعما لا تمن فى الأجيـــاد
بارك الله فيك فالملك مـــاد   مت رفيع الذرا رفيع العماد

ثم قال فى تقريظ شعره أيضا سنة ١٩١٣

قم أدر يا (خليل) شعرك فينا   قرقفا (١) يشرب النهى وعقارا
انت مطران دين شعر جديد   فتن المسلمين قبل النصارى

---

(١) قرقفا عقارا وهو من أسماء الخمر ، سميت قرقفا لانها تقرقف شاربهـا أى ترعد .

قصيدة تكريم الأديب واصف غالى باشا

ألقيت هذه القصيدة فى حفل أقيم لتكريمه فى فندق شبرد تحت رعاية الخديوى السابق عباس حلمى سنة ١٩١٤ م لما قام به من ترجمة بعض الشعر العربى الى اللغة الفرنسية فى كتاب سماه « روض الأزهار » ونشر هذا الكتاب فى باريس ولما كان يقوم به أيضا من القاء بعض المحاضرات للاشــادة بفضل العرب والتراث العربى الثقافى ٠

آى صوت حيته بالأمس باريس «مقر العــلوم والعلمــاء
من ترى ذلك الذى جملتــه حكمة الشيب فى ربيع الفتاء
ذلك الأسمر الذى بهر البيــ ض مطلا من منبر الخطبــاء
وأماط اللثام عن أدب العــر ب كرام الآباء والأبنــاء
بلسان ما اعتاد من قبل أن يخضــع الا لأهــله من ابــاء
يا سجل الخلود فافسح مجالا لاسمه فى صحيفة الفضــلاء
وأر الأعصــر الأواتى ان الذكـــر عمر محجل الاناء

ذلك صــوت ابن بطرس قد عرفناه بمــا هاجــه من الأصداء
الق بالسمع تستخفك منــه نغمة لم تكن لغير الوفــاء
ذاك نجم أطلقته انت يا مصــر فقرى بنجمك الوضــاء
واجليه حيث تفتقد البــد ر عيون السراة فى الظلماء
كم له من مواقف هز عطف الحق فيها بالحجة البيضــاء
ايه يا ابن الأمجاد قمت بأعبــاء كبار والمجد ذو أعبــاء
وأريت الانام بر ذوى القر بى ورأى الكريم فى الكرماء

فاستمع مما يقال حولك يا (وا صف) ذا اليوم من ضروب الثناء
ان من طيب الثناء لزهـرا تجتنيـــه مسامع الاكفـاء

وفى هذه القصيدة يشيد صبرى بما قام به واصف بطرس غالى بن المرحوم بطرس غالى من عمل أدبى مجيد فى فرنسا ، من القـاء المحاضرات الأدبيـة باللغة الفرنسية فى المجتمعات الثقافية بباريس ، عن التراث العربى الخالد ، وما أغدقـه العرب على العلم والثقافة والأدب ؛ وقد ترجم ديوان البحترى أو جزءا كبيرا منه الى اللغة الفرنسية بأســـلوب ممتاز مما كان له أجمل الوقع فى المجتمعات الأدبية الفرنسية ودعاية للعروبة ولأمجاد الشرق .

قصيدة مـــدح

بعث بها الى الأمير عمر طوسن على ما بذله من المال والجهد لاعانة جرحى الترك فى الحرب البلقانية التى وقعت بين دول البلقان والدولة العلية فى سنة ١٩١٣ م

لك الامارة والأقـــوام ما برحـــت
لكل عالى الذرا فى الكون تأتمـــر

لو لم ترثهـــا لمـا ألقت أعنتهـــا
الا اليك خـــلال كلهـــا غـــرر

يابن الألى لو أطلو من مضاجعهـــم
يوما عليك لقالوا : « ايه يا عمـــر »

أعـــدت أيامهـــم فى مصر ثانيـــة
حتى تـــوهم قـــوم أنهـــم نشروا (١)

لله درك كم نبهـــت من همـــم
تثنى على أهلها الآصـــال والبكـــر (٢)

وكم تعهدت جرحى من أسود وغـــى
ان يكشر الدهر عن أحداثـــه كشروا (٣)

مستنجدا من بنى مصر الى شـــمم
اذا رأوا ثلمة فى حوضهـــم جبـــروا (٤)

---

(١) نشروا : أى بعثوا من الموت ٠

(٢) الآصال والبكر : أى أواخر النهار وأوائله ٠

(٣) يقال : كشر السبع عن أنيابه : اذا كشف عنها حين غضبه : وهو يصف هؤلاء الشجعان بالحمية لقومهم اذانابتهم حوادث الزمان حتى يكشفوا غمرتها ٠

(٤) الى شمم : أى الى قوم ذوى شمم ، الثلمة فى الحوض : الفرجة فيه من من هدم وكنى بالحوض عما يلزم المرء من حمايته والدفاع عنه ، وبالثلمة فيه عما يصيب المرء من ضيم ٠

مستهميا هاميا والنيل في وجـــل
من أن تجود به أيمانكـــم حـــذر (١)

حتى تفاهمت الارحـــام وادكـــرت
ما بينها الأهل والخـــلان والأســـر (٢)

وآذن البر بالســـقيا وما فتئـــت
منهم ومنك صـــفوف البر تنتظـــر (٣)

وحركت كل كف بالنـــدى مقـــة
حتى تعجبت الانهـــار والغـــدر (٤)

والناس ان قام يستسقي الكريم لهم
سحائب الفضل بشرهم فقد مطـــروا

يأبى علاء (سعيد) أن يشـــابهه
الا ابن دوحتـــه ان قـــام يفتخـــر (٥)

ما زال يحمـــده رائيك مذكـــرا
والأصل بالفرع ـ ان حاكاه ـ يذكر

---

(١) مستهميا هاميا : أي مستمطرا مطرا وكنى بالكلمتين عن دعوته للمصرين أن يجودوا بأموالهم على منكوبي الحرب ، ثم قال بعد ذلك أن النيل خائف من أن تجودوا به لغيركم .

(٢) ادكرت : اى تذكرت ويشير بهذا البيت الى ما كان يلهـــج به الخطباء والداعون الى التبرع .

(٣) آذن : أعلم . ومنهم = أى من المصريين .

(٤) المقة : المحبة والمودة من ومق . والغدر : جمع غدير .

(٥) يريد محمد سعيد باشا والى مصر الأسبق وهو جد الممدوح .

رد الأمير على هذه القصيدة في ٢٤ من مايو ١٩١٣ م

سعادة الأستاذ النابغة اسماعيل صبرى باشا

ان قصيدتكم الشائقة التى تفضــل بتقديمهـا الينا حضرة (حنابك) نجوم مرقومة فى ذلك اللوح المفرغ فى قالب الحسن والاحسان بعدما أبدع تصـويرها بيانكم الساحر وأحكم رصفهـا قلمكم القادر ، قد حلت عنده نافى أرفع مكان ، وعظم لدينا موقعها على مقدار ما لكم من المكانة الرفيعة فى ديوان الشعر والأدب ·

أما ما أشرتم اليه فى كتابكم مما جرى على لسان (محمود باشا فهمى) ، فانى أرى أنى لم أقم الا ببعض الواجب ، وانما هى الآداب العالية أملت عليه وعليكم ذلك المدح والاطراء ·

فأشكر الله الذى جعلنى أهلا لرضا اخوانى فى الوطن والله ، وأشكر لكم هذا الصنيع الجميل الذى لا أنساه أبدا ·

وتقبلوا سلامنا ،

عمر طوسون

★ ★ ★

تهنئة بعث بها الى أحمد زكى باشا ، سكرتير مجلس الوزراء فى عام ١٩١١ بمناسبة الانعام عليه برتبة الباشويه ·

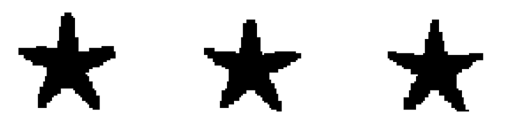
(زكى) يا صفوة أبناء العرب — وخير من ألف فينا وكتـب
نلت المعالى وتسنمت الرتـب — تسعى الى بابك من غـير طلب
لو لم تكن (باشا) لأغناك الأدب — والعلم والفضل وذياك اللقـب
لو أن كل معجب بما كتـب — هناك اليوم بسطر من ذهـب

التقاريظ :

كما اشتهر الشاعر بالقصائد القصيرة والمقطوعات التى شجع بها الكتـاب والعلمـاء ومن ذلك تقريظه لكتـاب السفر الى المؤتمر « تأليف أحمد زكى بك » ·

وفي هذه القصيدة (١) يحث على السفر ويرغب في الرحيل سنة ١٨٩٣ م

اهجر النوم فى طـلاب العـلاء ... وصـل الصبح دائبا بالمسـاء
والتمس بالمسير فى كل قطـر ... رتبة العـارفين والحكمـاء
ان غض الشباب ـ فقهه التر ... حال شيخ فى أعـين العقـلاء
ومقام الحسـام فى الغمد يزرى ... بالذى حازمتنه من جـلاء
فدع الغمد يبد للعين من فضـ ... ـلك ما كان فى زوايا الخفـاء
ان أمضى الرجال من كان سهما ... نافذا فى حشاشة الغـبراء
واللبيب اللبيب من دار فى الأر ... ض لعلم يناله أو ثـراء
انما الأرض والفضاء كتـاب ... فاقرأوه معـاشر الأذكيـاء



وأقرنوا العلم بالسرى رب علم ... لم تحزه قرائح العلمـاء
وأطيلوا ما كان من قصر العيـ ... ـش يحث الركاب فى الانحاء
وطن المرء مهده وبقايـا الـ ... ـكون بيت له رفيع البنـاء

---

(١) قيلت بمناسبة صدور كتاب (السفر الى المؤتمر) : وهو مجموعة رسائل كتبها المرحوم أحمد زكى باشا العالم المعروف ، أثناء سياحته فى أوربا بعد حضوره نائبا عن الحكومة المصرية مؤتمر المستشرقين الدولى التاسع المنعقد فى لندن عـام ١٨٩٢ ، وهذه الرسائل تشتمل على ذكر المدن الكبيرة الأوربية ، مع بسط الكلام عن مدينة باريس وما فيها من ضروب الحضارة والمتاحف والمعارض ، وعلى بلاد الاندلس ومدينة لندن ·

الى أن قال

حبذا رحلة تمثل تمثيـــــــــــ لا مزايا الأســــفار للقـــراء
قد أجادث فيها براعة منشيـ ها اختيار الأخبـــار والأنبـــاء
فأجل في جمالها نظــــرات فهي بكر الآداب والانشــــاء
وتفهم حديثها ثم ســــــافر ليس من يسمع الحديث كرائـي

(١)

(تقريظ لمختارات البارودى)
المطبوعة سنة ١٩٠٩ م

يا رائد الشعر لا تقرب مناهلـــه
الا وراء دليل صـادق النظــــــر

وان حفظت فلا تحفظ سوى كلــم
غر جوامع مثل الآى والســــــور

ما كل شيء تــراه ناضرا زهــــر
شتان بين هشيم النبت والزهـــر

يا طالب الدر بحر الشعر ثم فقف
هذى معادنه ملآى من الــــدرر

أوتيت سؤلك فاقرأ ما تخـــيره
من خالد الشعر « سامى » خالد الأثر

---

(١) اختار البارودى هذه الأشعار ، من شعر ثلاثين شاعرا من فحول الشعراء المولدين ، وابتدأه بشعر بشار بن برد ، ورتبه على سبعة أبواب : الأدب ـ المديح ـ الرثاء ـ الصفات ـ النسيب ـ الهجاء ـ الزهد .

مسجلا في كتـــاب خيم حفـــل
بقول كل طـويل الباع ذي خطـر

نعم الكتاب وما أمست صحائفــه
وأصبحت تهب الأيام من غـــرر

يا قائل الشعر خذ للشعر أهبتـــه
وطربه في سماء الحسن أو فـــذر

لا تأخذن تلابيب الكـــلام وكن
من أن يردك مدحـورا على حـــذر

كم عربد الغر حول البيت يقرضـــه
وآب بعد جهـاد بين الحصــــــر

شعر الفتى عرضه الثاني فاحـــر به
ألا يشوه بالأقـــذار والوضـــــر

فانقد كلامك قبل الناقدين تحط
ثاني النفسين من لغو ومن هـــذر

واقرأ ـ فديتك ـ تأمن ما تحـــاذره
من قارئ هازئ أو قارئ ضجـــر

تقريظ كتاب « مختصر القاموس في اللغة »
تأليف محمود خاطر بك

ايها الناطقون بالضـاد هـــذا — منهل قد صفا لأهل الضـــاد
ذا كتاب تجاورت كلمـــــات — فيه كانت من قبل كالاضـداد
الفت بينها أواصر معـــــنى — خفيت أعصرا على النقـــاد
جفوة عولجت فقادت وئامـــا — وهوى طوع (خاطـــر) وقـاد

وقال أيضا :

اخي هذا هو «القاموس»مختصرا — ضمت صحائفه في طيها عجبا
يجاور اللفظ فيه اللفظ ينفحه — معنى يكون له ان ينتسب نسبا

تقريظ مجلة (١) صدق الاخاء » :

يا طالب الآداب دونك فاقتطف	من روضها ما تشتهيه نضيرا
ان رمت شعرا هذه أفنانه	يحملن من طيب الكلام زهورا
أو رمت نثرا هذه فقراته	قد مثلت بجمالها المنثورا
حكم تقر لها النهى ومناظر	ان جال فيها الطرف عاد قريرا
لو كانت الآداب تصبح أمة	لتخيرت (صدق الاخاء) أميرا

تقريظ ديوان فؤاد الخطيب سنة ١٩١٠ م

يا مطرى المولى الرفيع الذرا	نلت المنى فانزل بواد خصيب
يا واقفا بين مغانى اللوى	فتحت بالأغزال باب الحبيب
يا ساقى الندمان حسبى الذى	يردد الشاعر ساقى الأريب
يا شعراء العصر جوز يتم	خيرا عن الاحسان قل يا«خطيب»

وقال يحييه على تهنئته بالعيد ، بعث بها اليه من السودان فى ١٩١٠ وكان فؤاد الخطيب اذ ذاك مدرسا بكلية غردون بالخرطوم .

أيها الساجع المردد فى السو	دان آى الوفاء والشوق نثرا
قد قرأت الكتاب لا شلت اليمـ	ـنى التى أودعت ثناياه درا
كلما قد بعثت لى بكتاب	قلت : هذا أو فى البرية طهرا
فاذا ما بحثت فى طى قلبى	قلت:لا،بل أنابذا الوصفأحرى

---

(١) مجلة علمية اجتماعية أدبية شهيرة صدر العدد الأول منها فى يوليو سنة ١٩٠٨ . وكان مديرها حسن أفندى عزت .

تقدير اسماعيل صبرى للمرأة

كان مثال الجمال عند صبرى مجسما فى المرأة ، وهو قد رأى أن المرأة التى تستطيع أن تلهم الرجل كل المعانى السامية ، وأن تفيض على الفنان بالوحى ، وعلى غير الفنان بأسباب السعادة التى تحبب اليه الحياة والعمل فيها ليست هى المرأة الجاهلة المحجوبة ، ولذلك أيد قاسم أمين فى دعوته لتحرير المرأة من رق الجهل ورق الحجاب لتكون مبعث السعادة لأهلها وذوى قرباها ولتقدم لوطنها النشء الصالح ٠

وقد دعا الى الاقتصار فى الزواج على واحدة فقط ، واستنكر تعدد الزوجات وكان يدعو الى التوحيد فى ثلاثة : الله ـ المبدأ ـ المرأة ٠

وقال فى ذلك :

يا من تزوج باثنتين ألا اتئـد ... ألقيت نفسك ظالما فى الهـاوية
ما العدل بين الضرتين بممكـن ... لو كنت تعدل ما أخذت الثانية

ولم تكن المرأة فى عهده قد خرجت من أسر الحجاب ، ولا أسفرت للجماهـير وكان يقول : ان من الأسباب التى مسخت حياتنـــا ، وشوهت أعيادنا فجعلت أعيادنا كأيام نقاهة المريض ، كل ما فيها

جمود ، ونوم وأكل ، غيبة المرأة عن المجتمع ذلك السبب هو علة ما نكابده من جفاء فى الطبـــع ، وجفاف فى العيش ، جهومة فى البيت ، وسآمة فى العمل ، وفوضى فى الاجتماع ٠

كرهنا الدور لاحتجاب المرأة وهجرنا الأندية لغيــاب المرأة ، وسئمنا الملاهى لبعد المرأة وأصبحنا كالسمك فى الماء ، والهباءة فى الهواء ، نحيا حيــاة الهيــام والتشرد فــلا نطمئن الى مجلس ولا نستأنس لحديث ، فاذا لم تصبح المرأة فى البهو عطر المجلس وعلى الطعام زهر المائدة ، وفى الندى روح الحديث وفى الحفل سجمع الأفئدة فهيهات أن يكون لنــا مجتمع مهذب وحيــاة طيبة وأسرة سعيدة ٠

لاحظ مجلسا من مجالسنا ، احتشدت فيه الرجال والشباب فماذا نجد ، نجد الحركات العنيفة والأصوات الناشزة ، والمناقشات الفجة ، الأحاديث الجريئة والكلمــات المندية ، والذوق العــامى ، والاحساس البطىء ؟؟

لاحظ هذا المجلس نفسه وقد حضرته ، امرأة واحدة لا غير ، تجد الحركات تتزن ، والأصـــوات تدق ، والمناقشـــات تنتج ، والأحاديث تحتشم والكلمات تنتقى والذوق يسمو ، والاحســاس يدق لأن الرجل حريص بطبعه على أن يجعل سمته فى عين المرأة حسنا ٠

ولقد قدر اسماعيل صبرى سيدتين مثقفتين فى عهده ، كان لهما شأن كبير فى المجتمع الثقافى آنذاك ٠

الأولى هى الأميرة الكسندره افرينوه ، وكانت سيدة مشهورة بالاسكندرية ولدت فى بيروت وبها تلقت مبادىء العلوم ، ثم قدمت الى مصر فى السنة العاشرة من عمرها ، وعكفت على اتقان اللغات الفرنسية والايطالية وآداب اللغة العربية ثم تزوجت السير ملتيادى دى افرينوه ٠

وأصدرت مجلة فرنسية هى « مجلة اللوتس » بالاسكندرية عام ١٨٩٣ وكانت معرضا لروائع الأدب الفرنسى ، وقد نالت هذه المجلة تقديرا كبيرا من الهيئات المثقفة ، وراسلت جمعية السلام النسائية فى أوربا فأعجبت بها الأسرة فيزينوسكا رئيسة الجمعية ومنحتها أحسن ما لديها وهو لقبها واسمها ٠

وكانت لها مكانة عظيمة عند أمراء الشرق وأميراته ، وكانت تتمتع بجمال الخلق والخلق يشهد بهما من عاصرها ٠ ثم أصدرت مجلة نسائية علمية أدبية فكاهية تصدر فى آخر كل شهر ، صدر العدد الأول منها بالاسكندرية فى ٣١ من ينـاير سـنة ١٨٩٨ ، ١٣١٥ هـ وآخر عدد منها صدر فى ٣١ من ديسمبر سنة ١٩٠٤ وكان اسمها « أنيس الجليس » ٠

وكان لها صالون أدبى يجتمع فيه الكتاب والأدباء ، أجانب ومصريين وقد أعجب بها اسماعيل صبرى كسيدة من خيرة سيدات المجتمع فى عصرها أدبا وعلما وجمالا وأخلاقا ـ وقد سجل اعجابه بها فى مقطوعات شعرية رائعة نأتى فى السطور القادمة على بعض منهـا ٠

فقد كتب اليها ، داعيا الى اعادة صدور مجلتها العربية « أنيس الجليس » التى احتجبت عن الظهور سنة ١٩٠٤ ٠

خبرى القوم يا سمية اسكـــ ندرياريــه النهى والذكـــاء
هل لوجه «الأنيس» بعد احتجاب من سفور فى عالم الآدبـــاء
فنرى فيه كل بحث جديـــد يقف الحق فى صفوف النساء
ان للغانيــات حقــا علينـــا ليس يخفى الا على الجهـــلاء
فاجمعى جيشهن حولك ان شئـ ـن طلاب الحقوق حول لـــواء
وابعثى من ضياء فكرك فى النا س سفيرا مسـدد الأراء
وافتحى باب كل بحث بلطف انمـــا اللطف عنـد الحسنـاء
ان تعارض بك الرجال نســاء عارضتهم بالحجة البيضـــاء
ان للفضليــات فى كل عصر أثــرا فى خواطر الفضـــلاء

ثم كتب اليها يقرظ بلاغتها في سنة ١٩١٣

انظمي الدرياسمية (اسكندر)   لا فض عقده من فيك
وانثريه فالدر در وان لم   يدخره تجاره في سلوك
واجعلي فوق مفرق العصر تاجا   من نظيم ان شئت أو من سبيك
وأميطي عن الحقيقة ما يحجب عنا جمالها من شكوك
بارك الله في خلائقك الغر   وفي أصل دوحة تنميك
ووقي من حوادث الدهر بيتا   عامرا بالشموس من أهليك
ان للفضل رونقا وجمالا   بهرا الحاضرين في ناديك
قد تفردت في الأنام برأي   غض من صوت معشرجا دلوك
وتجملت بينهم بخلال   لم تكذب سيما الا مارة فيك
ايه لا كان سامع لم يؤمن   ان دعوت الاله أن يبقيك

وكتب اليها في مناسبة أخرى :

بالله يمم يانسيم الصبا   بمصر عني دار اسكندره
وحيها بين المها ان بدت   في سربها مقبلة مدبره
واذكر لها ما بيننا علها   يا عاطر الأنفاس ـ أن تذكره

ثم أرسل لها مقطوعة بعنوان « تحية »

أميرة الغانيات أهلا   بوجهك الباهر المنير
تيهي على صبك المعنى   تيه غني على فقير
وارمي له بعض ما يرجى   فالحب أرضاه باليسير

أما المرأة الثانية التي كانت أثيرة باهتمامه وتقديره ، وطالما قضى في صالونها الأدبي الساعات الجميلة ، يترع من روائع الأدب والفن ، مع صفوة من فطاحل رجال الأدب والثقافة والعلم ، فهي الآنسة « ماري خير زيادة » والمعروفة بالآنسة « مي » .

وكان لهذه المرأة أثر كبير فى الحياة الأدبية فى عصرها ، وقد ولدت بفلسطين وقدمت الى القاهرة فى العقد الأول من هذا القرن ، مع والدها الياس زياده حيث أصدر جريدة المحروسة ، وأخذت فى اتقان اللغة العربية والالمام بآدابها وحضرت لذلك محاضرات الجامعة المصرية القديمة ولم تلبث أن ألمت الماما واسعا بالفلسفة والتاريخ الاسلامى ، وقد تتلمذت حينا على أستاد الجيل أحمد لطفى السيد ، ومصطفى عبد الرازق ، واستطاعت بعد ذلك ممارسة الكتابة العربية فى مجلة الزهور التى كان يصدرها انطون الجميل ، وظلت توالى صحف الأهرام والهلال والمقتطف وصحف لبنان وسوريا الكبرى بمقالاتها العربية التى آثرتها على الفرنسية التىتجيدها ، لأنها أقدر فى رأيها على أن تجمع بينها وبين قراء العربية فى كل أرض عربية .

وقد كتبت فى هلال ابريل سنة ١٩٢٨ تفخر بايثارها العربية على جميع اللغات الأجنبية التى تتقنها ، لأنها تعلمت اللغات الأجنبية لتستطيع تبادل الرأى مع من لا يعرف العربية من رجال الأدب والعلم .

وكانت مى ترى أن العالم كله وطنها ، وأن الانسانية كلها شعبها ، ولكنها كانت مولعة بالشرق ولعا لأحد له ، تتغنى له ، مفاخرة بماضيه ، متحمسة لايقاظ بنيه لتفتح أمام البصائر آفاق الأدب الرفيع والانسانية المثلى .

وتعتبر « مى » أول وأقوى خطيبة عرفتها المنابر النسائية فى الشرق العربى فى العهد الحديث فقد كانت تمتاز ببيان ساحر وامتلاك لكل مقومات الخطابة كسلامة الذوق ؛ فى انتقاء الموضوع مما يجعل الكلام مطابقا لما تقتضيه الحال ، ونظرا لثقافتها الواسعة والمامها بالكثير من العلوم والمعارف ودراستها العميقة لآداب اللغة العربية ، فقد أتاح لها ذلك أن تكون من أعظم خطيبات الشرق ، فى تاريخه القديم والحديث .

نـــدوة مـــى :

والدارس لتاريخ مي وتأثيرها في البيئة الأدبية التي عاصرتها: ذلك التأثير الذى ما زال ممتدا الى يومنا هذا ، يدرك تماما أنه كان لمى تأثير واضح فى الأدباء الذين يحضرون ندوتها يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، أو يستمعون اليها اذا حاضرت الجمهور فى القاهرة ولم يكن في مصر حتى سنة ١٩٣٤ ندوة أدبية مشهورة غير ندوتها . وان كان المعروف أن الأميرة « نازلى فاضل » كانت تعقد ندوة قبل ذلك التاريخ ، فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر وفى مطلع هذا القرن، ولم يكن رواد ندوتها الا الأمراء والعظمـاء تمشيا مع التقاليد المرعية . ولم تؤثر هـذه الندوة فى الاتجاهـات الأدبيـة المعاصرة . لأنها كانت وقفا على طبقة الخاصة ؟

على أن نـــدوة مي تعتبر أولى النـــدوات التى مثلت مختلف العقليات والاتجاهات الفكرية آنذاك وســاعدت على تكييف المزاج الأدبي وخلق وعى ثقافى وتبسـيط المعقد من الفلسفة والعلوم ، وتحليل ما يستعصى فهمه في جو علمى بعيد عن الجمود الأكاديمى والجفاف المدرسى . وكان لظهور فتاة « عربية ، فى ميعـة الصـبا وعنفوان الجمال ، تجيد الحديث باللغة العربية الفصحى وكثير من اللغات الأجنبية الحية ، وتعتلى مكان الصداره بين خطيبات العرب تدير فى دارها صالونا أدبيا يجمع صفوة المثقفين وأئمة العلم والأدب فى عصرها حدث هام فى الحياة الأدبية فى البلاد .

وفي ذلك يقول المرحوم مطران فى حفل رثائها سنة ١٩٤٠ :

أقفر البيت أين ناديك يا مـــى	**اليه الوفـــــود يختلفونـــــا**
صفوة المشرقين نبلا وفضـــــلا	**فى ذراك الرحيب يعتمرونـــــا**
فتساق البحوث فيه ضروبـــــا	**ويدار الحديث فيه شـــجونا**
ويصيب القلوب وهى غـــرات	**من ثمار العقول ما يشتهينـــا**

وكان من رواد هذه الندوة المشهورين :

أحمد لطفي السيد ـ اسماعيل صبري ـ الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ عباس العقاد ـ الدكتور زكي مبارك ـ أنطون الجميل ـ منصور فهمي ـ فؤاد صروف ٠٠٠ وغيرهم من كبار رجال الأدب والفكر والدين والعلم والفن ٠

ولقد كان اسماعيل صبرى من المعجبين بشخصيتها ، وكانت في نظره ، المثل الأعلى للمرأة العربية المثقفة ، الذى يجب أن يقتدى به ، اذا أريد للشرق النهوض وللمجتمع العربى أن يرقى ٠ وكان من المواظبين على حضور ندوتها الأدبية المذكورة وقد تأثر شعره العاطفي الرقيق بهذه الندوة ، وقد ظهر ذلك فى بعض مقطوعاته الشعرية الرائعة ومنها قوله لها فى موعد الزيارة :

روحي على دور بعض الحي حائمة	**كظامئ الطير تواقـا الى الماء**
ان لم أمتع بمي ناظرى غـدا	**أنكرت صبحك يا يوم الثلاثاء**

وقال لها مهنئا بعام جديدة :

ياغرة اليوم جوزىالأفق صاعدة	**الى السماء بآمال المحبينـا**
انى سألت لك الأيـام صافية	**يامى قولى معى بالله آمينـا**

وكانت آراء صبرى التقدمية فى تحرير المرأة ، ودعم كيانها بالعلم والثقافة والتربية ، واطلاق قيودها وفك أسارها من التقاليد البالية ، واخراجها الى المجتمع الخارجي لتشترك فى معركة البناء والعلم والنهوض الوطنى صدى لتأثره بمنتدى (مى) وتقديره واكباره لمكانتها ٠

ولم نعثر على شىء من القصائد التى قالها عنها صراحة ، سوى المقطوعات المذكورة آنفا ، أما ما أرسله لها من شعر فلم يصرح فيه

علانية عن شخصيتها ، ونرجح أن الأبيات الآتية هي تسجيل لعواطفه الجياشة نحوها :

ياظبية من ظباء الأنس راتعة بين القصور تعالى الله باريك
هل النعيم سوى يوم أراك به أو ساعة بت أقضيها بناديك
وهل يعد على العمر واهبه أن لم يجمله نظم الدر من فيك

وتكاد لا تتغير صورة هذه الفتاة المنعمة ، ابنة الترف والقصور ، التي تتهادى في ناديها ؛ تنثر الدر البليغ على الحاضرين. والشاعر يشتاق اليها ، ويسهر من أجلها كلما ابتعد عنها ، وعن مجلسها ، وهو لا يبغي منها شيئا ، سوى أن يكون قريبا منها وفي حمى رضاها :

أصبو اليك اذا النسيم سرى يمثل لى شذاك
أو دارت الكاسات بالصهباء تخبر عن لماك
وأعد قربك مشتهاى وغايتى القصوى رضاك

حفلة تأبين باحثة البادية :

وفي السابع عشر من شهر أكتوبر سنة ١٩١٨ ، ماتت ربة القلم ، الكاتبة الأولى في مصر والمفكرة اللوذعية السيدة ملك حفني ناصف بنت الشاعر الأديب الكريم حفني بك ناصف الصديق الحميم لشاعرنا اسماعيل صبري ـ وأقيم أول حفل تأبين في مصر بل في الشرق العربي كافة في العهد الحديث لأول كاتبة مصرية ، تقديرا وتكريما لعلمها وأدبها والأهداف النبيلة التي سعت في سبيلها ٠

وأقيم هذا الحفل الذى كانت تعلوه المهابة والوقار بالجامعة المصرية القديمة باشراف وترتيب زعيمة النهضة النسائية هدى

شعراوى · وكان هذا من الأحداث الاجتماعية المهمة في التطـور الأدبى بالبلاد ، حين اجتمع رهط كبير من كبار الكتاب ورجـال الفكر ، يتحدثون عن مزايا الفقيدة الجليلة « باحثة البادية » فى القاعة التى طالما أن سبق لها المحاضرة فيها ، ويكتمل عقد هذا الحفل الخالد فى تاريخ مصر برئاسة امام الشعراء وشيخهم (١) اسماعيل صبري القاضي الكبير وقد أضفي بحضوره على الحفل جلالا ووقارا ، وكان قبوله لرئاسة الحفل اعلانا عاليا ، لتكريمه وتقديره لذكرى امرأة (٢) مصرية كانت طليعة النهضة النسائية فى البلاد ، وايمانه بما سيكون للمرأة المثقفة من شأن كبير في مستقبل مصر والشرق العربى بأسره ·

وقد اسـتهل الحفلة بكلمة عميقة مؤثرة عن مزايا المحتفل بذكراها وأثرها فى المجتمع المصرى آنذاك ·

ولما سمع المرحوم حفنى ناصف الشاعر الكبير ما ألقي في الجامعة من المراثي في تأبين كريمته استبد به الحزن ، وأمعن به الأسى ، وبلغ به التأثر مداه ، وعاد الى البيت لينام ونحى غطاءه عنه ، وأخذ يبكي بكاء مرا ويزفر زفرة الثكلى ؛ مما أثر فى صحته فاشتد عليه ما كان يشكو به من داء ـ حتى لفظ أنفاسه الأخيرة بعد أيام ·

---

(١) حضر اسماعيل صبرى باشا الحفل نيابة عن عدلى يكن باشا وزير المعارف فى ذلك الوقت ·

(٢) السيده ملك حفنى ناصف اول امرأة مثقفة فى مطلع هذا القرن نالت دبلوما من مدارس الحكومة عام ١٩٠٣ ، وكانت كاتبة مجيدة ، واول فتاة مصرية تعتلي منبر الخطابة العربية ، كذلك كانت أول امراة مثلت المرأة المصرية فى مؤتمر عام واول من وضع أساس النهضة النسائية فى الشرق العربى ·

كتاب الفتاة والبيت (١)

ولقد قام المرحوم انطون الجميل باشا (رئيس تحرير صحيفة الآهرام سابقا) بترجمة كتاب « الفتاة والبيت » من الانجليزية الى العربية ــ تأليف السيدة ج ــ س ــ دويوك ، فقدم له اسماعيل صبرى بمقدمة رائعة ، تدل على ايمانه وتحمسه لتعليم المرأة وقد جاء في هذه المقدمة ما يلى :

صديقى العزيز أنطون الجميل بك

قرأت كتابك (الفتاة والبيت) ، وها أنا أكتب اليك والطرب آخذ منى كل مأخذ ، وكيف لا أطرب وقد شاهدت من أساليب الكتابة وحسن الانشاء مالم يتفق قبلك لكاتب ينقل من لغة أجنبية الى لغتنا العربية موضوعات تتعلق بحياتنا العمرانية وترتبط بنهضتنا العلمية ، لذلك افتتحت خطابى بقوله : « قرأت كتابك » لأن من ترجمه كما ترجمت ، حقيق أن يشارك المؤلف في فضله ، وأن يشاطره فى فخره ؛ فاذا اقيل لأولهما « أجدت » قيل للثانى « أجدت وأحسنت » .

نحن فى حاجة ماسة الى تعليم أبنائنا وبناتنا ، بل ان حاجتنا الى تعليم بناتنا أشد ، لأن بنت اليوم أم الغد ، وحضن الأم فى نظر العاقل مدرسة أولية يتلقى فيها الطفل المواد الأولى لغذاء جسمه وعقله ، ولأن النساء نصف مجموع الأمة وهيهات أن ينهض مجموع نصفه أشل ، وعبثا يحاول الارتقاء ، اذا لم يعالج بالعلم شلل ذلك النصف ــ (وهو كناية عن أمهاتنا واخواتنا وزوجاتنا وبناتنا) واذا لم تتولى التربية الصحيحة بجانب العلم ، تهذيبه وتكميله .

---

(١) ديوان اسماعيل صبرى اشراف أحمد الزين .

الباب السادس

المتنوعات

- شعره فى الوصف
- شعره فى الهجاء
- شعر المعارضات
- شعر المقطوعات
- اسماعيل صبرى والبارودى

شعره الوصفى

النيـــل

ماأعجب النيل ما أبهى شمائله ... فى ضفتيه من الأشجـار أدواح
من جنة الخلد فياض على تـــرع ... تهب فيها هبـوب الريح أرواح
ليست زيادته ماء كما زعمـــوا ... وانما هى أرزاق وأربـــــاح

البرق والسحاب

وفيها يحن الى عصر الشباب

ابرق يتـوج هـام الربـــا ... والا فهاتيـك نار القــــرى
كأن سنـــاه عيـــون مراض ... يحاولن تحقيق شمس الضحى
والا فتلك مصابيح قبل انطـــفاء ... يثرن لصـــدع الدجى
والا فتلك سيوف تميـــــــل ... بأيدى كمـاة عراها الونى
والا مواطىء خيـــــل عـــــلى ... صـخور تطـــاير منها اللظى
ومأمن صخور تراهـا العيـون ... سوى غاديات تؤم الفـــــلا
تكاد تطير اشـــتياقا لهـــا ... اذا أشرفت ظامئـــات الربـا
كأن الثرى رام تقبيلهـــــــا ... فمـــد اليهـــا رؤوس الربى
اذا هى مرت بواد محيـــل ... وجرت عليه ذيول الحيـــا
كسته مطـــارف من سندس ... وأنست جوانبه ما الظمـــا

سقى ريها العذب عهد الشباب فقد كان روضـــا شهي الجنى
اذا العيش كالغصن في لينـــه يميل بعبء ثمـــــار المـــنى
أقلبي كم ذا توالى الحنـــــين وكم ذا يشوقك عصر الصبـــا
رويدك اني رأيت القـــــلوب تفطــــــر من ذا ومن بعض ذا
صحبت الأسى بعد ذاك الزمان كأنك مستعذب للـــــــاسي

الى سرحـــة

قال هذه الأبيات يخاطب بها شجرة في منازل أحبابه ويتمنى جوارها

يا سرحة بجـــوار الماء ناضرة سقاك دمعي اذا لم يوف ساقيك
عار عليك ـ وهذا الظل منتشر فتك الهجير بمثلي في نواحيك
فمن معيري جناحي طائر غـرد كي أقطع العمر شدوا في أعاليك
فلا أنفر من أرض غرست بهـا ولا يرن بصوتي غير واديـــك

شعره فى الهجاء

فى (١) مخادع (نشرت فى ١٩٠٩)

لك ألفـــاظ اذا احتجت الى ... خير كانت شراك الخيـــرين
فاذا استغنيت كانت أسهما ... نافذات فى قلوب المحسـنين
لو درى رب المسروءات رمـــى ... لك مارجفت من حصن حصـين
قد فضحت الطين والمـــاء معـا ... يا سليل الطين والمـاء المهـين



فى جاهل سفيه (نشرت فى ١٩٠٩)

بذرت جهـــلا وهجـــرا ... فاحصـــد أنــاة حـليم
روث اللســـان سـماد ... فى روض كـل كـــريم

★ ★ ★

فى من نال العلا خداعا بلا استحقاق

هنيئا برغم العلموالفضل والتقى ... علا نلتها قسرا وحاولتها ختـلا
تسلقتها لما رأيت حماتهـــــا ... يذودون عنأبوابها الوغد والنذلا

---

(١) انه يصف المخادع بطلاوة الفاظه حتى أنه يتصيد بها قلوب الخيرين ، ويلاحظ أنه استعمل فى هذا البيت الشراك بمعنى حبال الصائد .

شعر المعارضات

معارضة لقصيدة القيرواني(١) التي أولها

ياليل الصب متى غـــده   أقيام الساعة موعـــده

نشرت سنة ١٩١٠ ، وقد عارض هذه القصـــيدة أيضا من شعراء العصر المرحوم أحمد شوقي وولي الدين يكن والأمير شكيب ارسلان ·

أقريب من دنف(٢) غـــــده   فالليل تمـــرد أســــوده
والتفت تحت عجـــاجته(٣)   بيض في الحي تؤيــــــده
حرب عنـــدي لمسعرهـــا   شـــــوق ما زلت أردده
هل من راق لصريع هـــوى   هل من آسي يتعهـــــــده
حتام يساوره كمـــــــد   يبلي الأحشـــاء تجـــدده
والام يصـــارعه ألـــــم   ان هم يقيم ويقعـــــده
في القصر غزال تكبـــره   غزلان الرمـــل وتحســـده
صفرت كفي منـــه ومضى   وقد امتلأت مني يــــده

---

(١) هو العلامة الأديب أبو الحسن على بن عبد الغنى الفهرى المقرىء الضرير الحصرى القيروانى الشاعر المشهور ، وفد على جزيرة الاندلس فى منتصف المائة الخامسة ، وتوفى بطنجه سنة ٤٨٨ ·

(٢) الدنف : الذى لازمه المرض وثقل عليه ·

(٣) العجاجة : الغبار ، شبه به ظلمة الليل ·

كم صغت التبر له شركـــــا   وقضيت الليـــل أنضـــــده
وأشاور شــوقى بل أدبى   هـــل أقصر أم اتصــيله
مولاى أعيـــذك من حزم   لا يرحم قلبــــا موقـــده
ادرك ـ بحياتـــك ـ من رمقى   مابـــات هـــواك يهدده
قدبان الحب لذى عينـــــــــ   ين وهذا الشوق يؤكـــــده
شوقى ، جود فى الشعر وقـل   آمنت بأنــــك أوحـــده

شعر المقطوعات

الى المرحوم أحمد شوقى بك
فى منفاه بالأندلس سنة ١٩١٧ م

أرسل أحمد شوقى الى اسماعيل صبرى بهذين البيتين :

يا سارى البرق يرمى عن جوانحنـــــا
بعد الهـــــدوء ويهمى عن مآقينـــــا

لما ترقرق الماء فى دمع السماء دما
هاج البكا فخضبنا الأرض باكينـــا

فأجابه اسماعيل صبرى بهذه الأبيات :

يا وامض البرق كـــم نبهت من شجن
فى أضــــلع ذهلت عن دائها حينـــــا

فالماء فى مقـــل والنـــار فى مهج
قد صــار بينهما أمــر المحبينـــا

لولا تـــذكر أيـــام لنا سلفت
مابات يبكى دما فى الحى باكينـا

يا آل ودى عــــودوا لاعـدمتكم
وشاهدوا ويحكم فعل النوى فينا

يا نسمة ضمخت أذيالها سحرا
أزهار أندلس هبى بوادينا

★ ★ ★

العناق

نشرت عام ١٩٠٧

ولما التقينا قرب الشوق جهده شجيين فاضا لوعة وعتابا
كأن حبيبا فى خلال حبيبه تسرب أثناء العناق وغابا

★ ★ ★

ذكرى وتشوق

نشرت فى ١٩٠٦

ألا من لمقروح الجوانح(١) ساهر
تساوره(٢) الآلام جهد المساور
يحن الى عصر تقضى وأسرة
أفاضت عليه مثل عرف الازاهر
وتمنحه الذكرى ـ اذا شفه الحمى
وأهل الحمى شوقاـ قوادم(٣)طائر
الا أيها السلك الذى منه أصبحت
تمشى على جسر بنات(٤) الخواطر

---

(١) الجوانح : الاضلاع .

(٢) تساوره : تواثبه وتغالبه .

(٣) قوادم : ريش مقدم الجناح .

(٤) بنات الخواطر : الأفكار .

رعى الله عصرا قد نماك فانــه
أفاد ذوى الحاجات أعظم ناصـر
لأنت غياث(١) المستغيث من النوى
وعون سخى الدمع سمح المحاجر

وقوله فى العزة والابـاء :

نح كأس الغـرام انى سقيت بمدام السـلو حتى رويت
لم يزل بى ساقى التسلى يساق ينى كئوسا من بعدها ما ظميت
ايها التائه المدل علينـــا ويك قل لى: من أنت انى نسيت
لو فرشت الطريق درا لأ خطـو فوقه نحـو داركم مارضيت

وفى هذه المقطوعة يحى الشاعر الكرامة والعزة الشخصية والاباء ، ويربأ بنفسه أن تكون مطية تمتطى ' وقد غره فى الناس أقوالهم المعسولة ثم هى بعد ذلك تشف عن مكر ولؤم وانحطاط .

الى اسكندر فهمى باشا مدير السكك الحديدية
يشير بهذين البيتين الى اعتزاله منصبه

أصلب انت ؟ قل لى ، حار أمرى اذا فكرت فيك ـ وضاع حدسى
خرجت من الشريط ولم تهشم كأنك خارج من بيت عــرس

★ ★ ★

الى يوسف سابا باشا
يشير بهذين البيتين الى توليه رئاسة شركة مياه القاهرة

اين (سابا)أين (سابا)ياترى أين (سابا) ذو المزايا الباهرة
قال لى قـوم ثقـات : انهم لحـوه فى مياه القاهــرة

---

(١) غياث : للعين ، النوى : البعد ، سمح المحاجر : كريم بدموعه .

في جوف الحيتان

يريد صبرى بهذين البيتين نفسه ، ويشير الى أنه قد أصبح منسيا لا يذكر اسمه عند توزيع هذه المناصب ، لاعتزاله وعدم طمعه في شيء منها فكأنه في جوف الحيتان :

اين (صبرى) من يذكر اليوم (صبرى)
بعد أعـــوام عزلـــة وشهـــــور

اسألوا الشـــعر فهـــو أعلم هـــلا
أكلته الاسمـــــاك طي بحـــــــور

في مسقى « سبيل » (أم عباس)

وهي المغفور لها بمباقادن والدة عباس باشا الأول والى مصر وصاحبة الأوقاف الكثيرة على التعليم ·

أسست هـذا على أس التقى (أم عبـــاس) ملاذ المعـوزين
ايها الظـــامىء قف نلت المنى في حمى جدة أم المحســنين(١)

---

(١) يشير بهذا الشطر الأخير الى ما هو معروف من أن المغفور لها بمبا قادن كانت جدة أمينه هانم الهامى والدة الخديوى السابق عباس حلمى الثانى ، وذلك من جهة الأب الهامى باشا حفيد الأولى ووالد الثانية ، وكانت والدة عباس حلمى تلقب (بأم المحسنين) لكثرة ما كانت تبذل من الحسنات للفقراء ·

شعره الغنائى

كان صبرى يتذوق الموسيقى وتطرب أذنه للغناء العربى الذى عاصره عند محمد عثمان وعبده الحمولى ، ولعـــل هـــذا التذوق والطرب هما أساس ما يفيض به شعره الوجدانى من عذوبة وألحان موسيقية بديعة ، فقد كانت أذنه الداخليـة تحس قياس الذبذباب والتموجات الموسيقية فى الشعر وكان يعرف كيف يجمع الألحان الحلوة بعضها الى بعض فتأسر النفوس وتجذب القلوب ، وكأنما أتيحت له جميع الأدوات لكى يحسن شعره الوجدانى فهو حينـا يرقى بمحبوبته فيجعلها علوية سماوية أو ملائكية ، وحينا يصور لوعات حبه وما يتلظى به قلبه من آلام ونيران ، وهو فى كل ذلك يصف حيانقيا صافيا رقيقا وهو يؤدى هذا الوصف فى عبارات شعرية حلوة تسند العبارة أختها وتحوطها بجرسها ولحنها العذب ٠

ولكى يؤثر تأثيرا عميقا فى قلب السامعين كان يختار عبارات أغانيه من اللغة العامية لتكون أكثر تأثيرا وقربا من نفوسهم بل اننا نجده أحيانا يخرج تماما عن اللغة العربية الفصحى ويختـار لغة الشعب اليومية فيؤلف منها الأغانى ، يريد لها أن يلحنهـا الملحنون وأن تجرى على لسان الشعب فى صباحه ومسائه وقد غنى له فعلا محمد عثمان وعبده الحمولى وهما من أئمة الغناء فى عهده ٠

وصبرى من هـــذه الناحية يعد أحد فحول الشـــعراء الذين أسهموا فى الارتفاع بمستوى الأغنية العربية الوجدانية وعملوا على تطويرها وتغييرها عما كانت فى عهده من معان مبتذلة سواء فى تصوير المرأة أو فى تصوير الحب نفسه ولذاته ، فقد أشاع فى أغانيــه نفس هذه الروح التى وصفناها آنفا وليس من شك فى أن أحمد شوقى أقتدى به فى أغانيه الوجدانيــة التى غنى بهــا عبد الوهاب فقد حاكاه محاكاة تامة فى معانيه ورقته وخفة روحه ٠

واستمع الى هذه الأغنية لصبرى :

الحلو لما انعطـــــــــــف أخجل ٠٠ جميع الغصـــون
والخد ــ آه ــ ما انأطـــــف ورده بغير العيــــــون

★ ★ ★

لمـــا بـــــدا لى الحبيب يشبه لبدر التمـــــــام
صار الفـــــؤاد فى لهيب فى الحـــــال وهام بالأوام

★ ★ ★

وحين رأى الحب فيـــه زاد والغـــرام اشتهـــــر
من العـــذول الســـفيه حـــــاذر وعنى اقتصـــر
حبيت أشـــــوف لى سبب أبنى عليـــه الكـــــلام
لـــــكن لأيت الطلـــــب بعيـــــد وصعب المـــرام

★ ★ ★

ارحـم يا سيد المـــــلاح مغـــرم ضناه البعـــاد
دمعه على الخـــــد ســـاح من حـــــر نار الفـــؤاد

يـــلى ابتليت بالهـــوى وصرت مغـــرم أسيـــر
خـــلى اصطبـــارك دوا حتى يهـــون العسير

★ ★ ★

الحب حالـــــه عجب يلـــذ فيـه العـــذاب
ذكـر الحبيب فيه طـــرب ودمـــع عينـــه شراب

وواضح أننا نجد في هذه الأغنية نفس الرقة التي وجدناها في شعره الناضج فهو يشكو من نيران الحب ، وهو يلوم العذول السفيه الذى كان سببا في قطيعة المحبوبة وهجـــرها ويناجي صاحبته ويناديها مستعطفا مسترحما ونيران الحب تلذع لذعا ومن طريف ما غنى له هذه المقطوعة (التى نظمها وهو طالب) .

يـا نـرجس الروض مالـك سلطات لحظـــك عــلى
اللى كوانى جمالـــك لـــكن سببهـــا عنى

★ ★ ★

لأجلك هجرنى منـــامى وفيـــك جفيت كـــل صاحب
ولأجل أربك ووصـــلك صـــاحبت غير الحبـــايب

✶ ✶ ✶

خلى صـــدودك وهجـــرك واطفى لهيبى ووجـــدى
ســـاعة وصالك وأربـــك أغـــلى من العمـــر عنـــدى

✶ ✶ ✶

بصـــدى انتم رضـــيتم وهـــان عليكم بعـــادى
وأنتم (١) أطعتـــم ودادى اللـــه يصـــبر فـــؤادى

---

(١) أطعتم الكلمة العامية للفظ قطعتم .

بدى أديك من دموعى وارسم عليهم أساور
وان كنت خايف عذولى ارخى شعورك ستاير

وكانت هذه الأغنية من الأغاني المشهورة التى غناها له عبده الحمولى .

★★★

ومن أغانيه أيضا :

أعرض لحسنك أو راء واكتب وأدون
وأبات صريع الآشواء واحسب وأضمن
دا هجر وصبابه وفراء يارب هون
وارحم ألوب العشاء داشىء يجنن

★★★

ومن أغانيه أيضا :

الوصل نساني العتاب وكان كتير وبعدما شفت العذاب هان العسير
وردت الروح فى العليل والرب أسعف بالجميل
شجن كثير ونوم أليل كن لى نصير

★ ★ ★

ومن أغانيه أيضا :

محبك فى هنا وسرور صفا له يوم صفيت الدهر
مليت البيت علينا نور سلامات (١) يا شئيئى البدر
سلامات يا منى الأحباب وأهلا يا فريد العصر
جعلت العمر نصه غياب عن المغرم ونصه هجر

---

(١) يا شئيىء ـ اللفظ العامى من شقيق .

وما ينسب اليه من المواليا قوله

في ظل أهداب عيونك ورد خـــدك آل
وحســـن يوسف ميراث لوجهـــك آل
والشمس ويا الأمر في حسـنهم لك آل
لوألت للصب آل : كل الملاح جنـــدى
ولى الجمال أجمعه من غير مشارك آل

★★★

ومن أغانيه أيضا ما نظمه تحية للسلطان حسين كامل

حيى الأهـــلة في الأعـــلام ويا النجـــوم شارات الفخـــر
وأرا السلام طـــول الأيـــام على أمر طالع في مصـــــر
غمرت ملـكك بالاحســـــان يبات يسابىء فيه أمـــــرك
حسين ، كده يكون السلطـــان الله يبـــارك في عمـــرك

ونظم أيضا اغنية في مدحه

في عــــابدين سلطـــان وفي السما بـــدر زاهي
شـــوف دا ودا بامعـــــان ان كنت تفهم وضــــاهي
دا فـــرع اسماعيـــل حاسب دا مولى المـــوالي
فين بدر وادى النيـــل وفين بـــدر الليـــــالي

ومن أغانيه المشهورة التي غناها المغني المشهور محمد عثمان :

أدك أمير الاغصـــان من غير مكابـــــر
وورد خـــدك ســـلطان على الأزاهـــــر

والحب كلـــه أشجـــان يا ألب حـــــاذر
والصـــد ويـــا الهجـران جـــــزا المخاطـر

★★★

يا ألب آدانت حبيت ورجعــــت تنـــدم
صبحت تشـكى مالا يت لك حـــد يرحـــم
صـــدأت أولى ورأيـت ذل المتـــيم
يا ما نصـــحتك ونهيت لو كنت تفهـــم

★★★

أعرض لحســـنك أوراء واكتب وأدون
وأبات صريع الأشـــواء وأحسب وأخمـــن
د أهجر وصبابه وفـــواء يارب هـــون
وارحـــم ألوب العشـــاء دآشيء يجـــنن

ولهذه الأغنية قصة طريفه وهى أن اسماعيل صبرى باشا كان مدعوا فى حفل خاص ، وكان من ضمن برنامج الحفل أن يقدم المغنى (محمد عثمان) وصلة غنائية ، وبينما كان يستمع اليه انتـــابه شـعور بالضيق والمضض ولم يرقه ما تغنى به من معانى مبتذلة ، وصور سوقية ، فسأله بعض جلسائه : هلا ينظم الباشا مقطوعة نستغنى بها عن تلك الأغانى الغير مناسبة فأجابهم الى ذلك، واشترط أن تغنى فى نفس الليلة ، فأجابه محمد عثمان الى شرطه وغنى بهذه الأغنية ولعل من هذه الحادثة ، يتضح لنا أثر اسماعيل صبرى البين فى رفع مستوى الأغانى الشعبية ، والصعود بها الى سمو الخيال وجمال المعانى ورقة الاشارات ، وهكذا بدأ يشـق للأغنية نهجا جديدا ، تظهر فيه خالصة نقية من الأوشاب والتفاهة

والغثاثة - بعد أن هذبها ورققها وبذلك كان اسماعيل صبرى رائد الاغنية الحديثة فى القرن العشرين .

وفي العشرينيات ، حينما ظهر نجم سيدة الغنــاء العربى . السيدة أم كلثوم فى سماء الفن الغنائى ، وبتوجيه أستاذها الشيخ أبو العلا محمد ، غنت لاسماعيل صبرى مقطوعتين وهما :

يا آسي الحي هل فتشت فى كبدى ص ١١٥ من هذا الكتاب
أقصر فؤاد فما الذكرى بنافعة ص ١١٥ من هذا الكتاب

وقد ورد هذا فى الكتاب الشامل لجميع أغانى سيدة الغناء . وكذلك أكده أصدقائى الذين سمعوا هذه المقطوعات تغنيها أم كلثوم فى أول مراحل حياتها الفنية . ولا توجد تسجيلات لهذه الأغانى معروضة للبيع للجمهور ، حيث أن الاسطوانات الخاصة بها يحتفظ بها هواة الأغانى القديمة لأم كلثوم .

اسماعيل صبرى والبارودى

عاد امام الشعر الحديث وقائده المظفر محمود سامى البارودى من سيلان فى أول سبتمبر من عام ١٨٩٩ بعد جهود المخلصين له وعلى رأسهم الامام محمد عبده ، وبعد أن قاسى مرارة النفى وعذاب الـ:ى وفرقة الصحاب ، وموت الأعزاء ، ونال ذلك من صحته ومن بصره الشيء الكثير .

وأقبلت مواكب الأدباء والشعراء من مصر والبلدان العربية ، ومن بقى من رفاق الجهاد تحج الى داره ، وتهرع الى كرمته ، تحى الزعيم العائد وتهنيء بالعودة ، وقد كانت عودته عيدا نشر البشر فى ربوع الأدب وأجواء العلم والشعر فى طول البلاد وعرضها .

فتسابقوا اليه ، يعيد حبل المودة من كان على معرفة به قبل النفى ، ويعقد أواصر الصلة معه أبناء الجيل الجديد ممن سمعوا عنه، وعرفوه قبل رؤيته ، من خلال شعره وجهاده ، وكلهم لهفة وشوق الى سماع قيثارته تعزف لحن اللقاء .

وتستقبل الصحف ذات الصبغة الوطنية البارودى استقبالا حارا فيكتب محرر المؤيد ، عاد محمود سامى باشا البارودى الى القـــاهرة عائـدا من منفاه ، والله أعلم لمقدار ما خامر قلوب أهله

وأصدقائه من الفرح ، بل وما خامر قلبه وامتزج بكل حواسه فيه عندما وطئت أقدامه تراب النيل ، بعد أن بلغ به اليأس منتهاه .

ثم يصف الكاتب هيئة الشـــاعر بعد عودتـه من منفـاه ، ويسترسل معه فيسأل عن رفاقه في جزيرة سيلان وهم أحمد عرابى ويعقوب سامي وعلى فهمي فيجيب .

« ان صحتهم جميعا سيئة ، وتتدهور يوما بعد يوم ؛ فعسى الله أن يفك الكرب عنهم ويشملهم بعطفه ، فيعودوا الى الديار » ، وكان كلما استطرد الحديث عاد الى ذكرى آلامه التى عاناها في منفاه خاصة بعد أن أصيبت عيناه فقال :

« ما أشد ما كنت فيه من الاكدار والأحزان ، وحيدا لا انسان تود الحديث اليه ، ولا أنيس تلذ محاضرته أو تطيب معاشرته وكان لى من مطالعة الكتب والصحف خير ما يتسلى المرء في وحدته ، ويأنس اليه مثلى فى غربته ، فلما أصاب بصرى ما أصابه فقدت كل لذة فى الحياة (١) .

ثم ينصح الأطباء البارودى بسكنى حلوان لعل هواءها الجاف ومياهها المعدنية تبله من مرضه وترد له مازاغ من البصر فى دار تجاور الشاعر أحمد شوقى ، ويلتقى شباب الشعر بشيخوخته . ويصف شوقي جاره نزيل حلوان فيقول :

« منكوب كريم اجتمع لشهوات الدهر فيه ما تفرق فى البرامكه من جاه يطويه ، ونعيم يذويه ، وولد يرديه ، ونور يطفيه ، وحسب وضاح يخفيه ، وحكم نافذ يحكم فيـــه ، جاورته بحلوان الشهور الطوال يشد بيتينا طنب ، وينتظم دارينا جدار ، فاذا الجار كريم ،

---

(١) المؤيد ، على يوسف ١١ سبتمبر سنة ١٨٩٩ .

واذا الشاعر عظيم • ما سمعته مرة عرض شعره على جلسائه ، ولا رأيته الا سقيما من الحياء كلما عرض شعره عليه » •

وفي حلوان كان يزوره اسماعيل صبرى وخليل مطران وغيرهم من أهل الفكر والفن والأدب وعشاق الشعر ، وكثيرا ما كان يعرض عليه صبرى خدمـــاته وفاء منه لامـــام الشعر ورائده في العصر الحديث ، وقد عرض بصلاته به بعد منفاه ، حرمانه من الاتصـــال به وهو في القمة من المناصب ، ثم رئيسا للوزارة في عهد الثورة العرابية وكان هو حديث التخرج من معاهد القانون بفرنسا ، يدرج في سلك المناصب القضائية بعيدا عن القاهرة وأجوائها •

وقد أفاد صبرى من اتصاله بالبارودى أيما فائدة ، وعرف منه كثيرا من أسرار الثورة العرابية الا أنه حيثما أشار اليه : تسجيل(١) مذكراته عن الثورة لفائدة مصر وأجيالها المقبلة ، أبدى نفوره من هذه الفكرة ، ولما رجاه أن يذكر سبب الامتناع عن ذلك قال (ان علمي بأن الغضب في طباعي : وخـوفي من أن يملكني عند بعض الذكريات ؛ فيبغى القلم على الرجال) وعند هذا الحد من الحديث صمت اسماعيل صبرى احتراما لرغبة الزعيم المجروح • ولم يفاتحه في هذا الموضوع نهائيا •

وفي ١٧ مايو سنة ١٩٠٠ أعاد الخديوى عباس الثاني الى البارودى ألقابه وأملاكه الموقوفة ، فتقبل الدنيا عليه بعض الاقبال بعد نفورها الطويل ، ويشكر البارودى لعباس ويمدحه بقصيدة من شعره •

---

(١) من رسالة لأحمد شوقي الى الدكتور صبرى السربوني سنة ١٩٢٣ — أنظر الشوقيات المجهولة لمحمد صبرى ج ٢ ص ١٧٥ (١٩٦٢) •

ويعود البارودي من حلوان الى داره (بغيط العدة) بباب الخلق في صيف ١٩٠٠ ، فيصبح منتدى الأدباء والشعراء وذوى المكانة . يأتون فيأنسون اليه ويأتنس بهم . ويستمتعون بحديثه ، ويستمع الى انشادهم ومناقشاتهم . ويرى في مجالستهم ما يأسو جراحه ، التى أدمت قلبه طوال سنوات النفي العجاف وكان على رأس رواد ندونه اسماعيل صبري وأحمد شوقي وخليل مطران وحفني ناصف وحافظ ابراهيم ومحمد ابراهيم هلال وحامد خلوصي وحسن حمدي وعبد المحسن الكاظمي ومصطفى صادق الرافعي من الشعراء والشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا (١) من العلماء . (٢) وعبده الحمولي ومحمد عثمان من أهل الفن . وغيرهم من رجال الفكر والعلم وعشاق الأدب .

وفي هذه الندوة أخذت مدرسة المحافظين في الشعر العربي ترسي قواعدها . تمد ينابيعها الى الأمة العربية كلها ، وتحول الشعر عن أبواب البلاط ، وتطلقه من قيوده الى الفسيح من الأجواء والأغراض .

ويلتقي في الندوة الزعيم بالرواد والأستاذ بالحواريين ، وكلهم يرنون اليه ، فقد كان زعيم النهضة الشعرية التى تحملهم على جناحها فيقرون له بالفضل أن مهد لهم الطريق . فأنقذ الشعر من عثرة الأساليب الركيكه . ورد اليه الروح العربية التى تعيش في كياننا وأحاسيسنا وبث فيه الحياة — حياة نفسه وروح عصره وقومه . فحال بين الشعر والسقوط الذى كان يهوى الى دركه ، وقدم للأمة العربية شعرا ملك عليها القلوب والأسماع بجزالته ونصاعته وبهجة الديباجة فيه . تنبعث منه الروح العربية الخالدة ، وتظهر فيه الشخصيه القومية البارزة .

---

(١) المنار مجلد ٧ جزء : ديسمبر سنة ١٩٠٤ .

(٢) أنظر الشوقيات المجهولة جـ ٢ ، صفحة ٤٦ .

كان رواد المدرسة ينهلون من شعر البارودى ومنبعه الأصيل قبل أن يعود وبعد أن عاد ، ثم تنفرد بهم شخصياتهم الأدبية ، فيسلك كل منهم السبيل الذى تدفعه اليه ملكته واستعداده ، وتهديه اليه بيئته وثقافته ، لكنهم جميعا كانوا يلتقون عند المصدر والمنبع فى «مدرسة المحافظين» تلك التى حافظت على تقاليد الشعر العربى فى المنحى والأسلوب ، من شرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ونصاعة التركيب ومتانة النسيج ٠

وفى أصيل يوم الاثنين الثانى عشر من ديسمبر سنة ١٩٠٤ وقفت ربة الشعر حزينة كئيبة تعزف لحنها الجنائزى والبارودى يسلم روحه لبارئها ، وودعته وداعها الأخير ، بعد رفقة دامت نصف قرن وخرج مشهده فى الثانية بعد ظهر الثلاثاء ١٣ ديسمبر سنة ١٩٠٤ من داره بباب الخلق وأم المصلين الشيخ الامام محمد (١)عبده وجاء الناس من كل حدب وصوب ، يودعون البارودى الوداع الأخير ٠ ويشيعون جثمانه ، يتقدمهم عشاق فنه وشعره ، وعارفو فضله وجهاده الوطنى وتلاميذه ومريدوه من الشعراء وعلى رأسهم اسماعيل صبرى ٠

وفى صباح يوم الأربعاء توافد جمهور كبير من الشعراء والأدباء على اختلاف الطبقات والمراتب عربا وافرنجا الى مدفن البارودى بالامام الشافعى ، وتقدم الشعراء والخطباء تباعا يقدمون الى الجدث الطاهر تحية الفناء الى البقاء ، ونبهوا الأصداء النائمة حوله فى بهو السكون الخالد بتعديد مآثره وترديد ذكره ٠ والقى اسماعيل صبرى قصيدة عصماء ، ولكنها بالأسف لم تصلنا ولم تنشر فى ديوانه ٠

---

(١) المقطم ، المؤيد ١٤/١٢/١٩٠٤ ٠

الخاتمة

لعل الكاتب في هذا البحث ، قد وفق بعض الشيء ، في اماطة اللثام ، عن شخصية الشاعر الكبير والقاضي النزيه اسماعيل صبري ، وكشف للجيل الحاضر ، بعض ما كاد أن يغلله ستار النسيان ، عن اثاره الأدبية والوطنية والاجتماعية .

والأشعار التي جاءت في هذا الكتاب ، مأخوذة جميعها من ديوانه المطبوع سنة ١٩٣٨ ، وهذا الديوان لا يشمل جميع ما نظمه الشاعر من شعر ، لأنه لم يكن معنيا بجمع أشعاره وطبعها في حياته ولذلك ضاع الكثير منه . الأمر الذى حجب قدرا كان سيفيدنا في هذه الدراسة وهو الوحيد من أقطاب المدرسة التقليدية للشعر الحديث وهم البارودي وحافظ وشوقي وصبري ومطران الذى قال الشعر لنفسه ، دون أن تفرضه عليه الظروف . كما كان الشاعر الثاني في هذه المدرسة ، الذى تهيأت له الظروف بحكم ثقافته العالية ، ومكانته الاجتماعية المرموقة ، ليصل الى مركز الوزير بل ليصبح رئيسا للوزراء ولكن وطنيته العالية منعته أن يهادن الاحتلال البريطاني أو يسير في ركابه . لذلك لم يظفر بشيء منها ؟؟ ..

امتاز شعره في الغزل والوطنية والتصوف ، كما لم يمنعه

مركزه القضائي الكبير من أن يسهم ولو بقدر متواضــــع في رفع مستوى الأغاني في عصره .

وقد آزر المصلح الاجتماعي الكبير قاسم أمين في دعوته لتحرير المرأة ، والامام الديني الكبير محمد عبده في دعوته الاصـــلاحية الدينية والاجتماعية .

وتعتبر شخصية الشاعر اسماعيل صبري من الشخصيات المثالية في العصر الحديث ، لا باعتبــار مواهبه الأدبيــة فحسب بل بانسانيته وامتيازه الخلقي ، فكان نسقا فريدا في الصفاء والوفاء والمروءة ، فما كان يطوي صدره على ضغينة ، ولا يحرك لســـانه بنقيصة ، ولا يقبض يده عن معروف ، ولا يعقد ضميره على عذر) فلم تدع له هذه الصفات الســـامية النادرة عدوا لا في نفسه ولا في الناس فعاش ما عاش وادع البال في ســـلام الحب وأمـــان الصداقة ...

ولما عاد محمود سامي البارودي من منفاه بسيلان عام ١٨٩٩ ، كان أول من خف لاستقباله وتهنئته وظل ملازما له حتى مات في ١٩٠٤/١٢/١٢ .

فتح أبهاء قصره في شارع القصر العيني لاســـتقبال الأدباء والكتاب والشعراء ، الكبار والناشئين ، ينعمون بعطفه ، ويتفيأون ظلال كرمه وحبه وعطفه وكم قضى بصالونه الأدبي من حاجات ، وكم ارقأ من دموع ، وكم جبر من كسور وضمد من جراح ، فلهجت الألسنة بذكره واستفاضت أخباره في كل الأنحاء .

كانت حياته ونشاطه في ميدان القضاء واجتهاداته في ميادين الوطنية والعلاقات الاجتماعية وأمجاده الأدبية كلهـــا خالصة لوجه الله والوطن .

المراجع

ديوان اسماعيل صبرى

تأليف أحمد الزين المطبوع عام ١٩٣٨

كتاب الأدب الحديث

للأستاذ عمر الدسوقى

شعراء الوطنية

لعبد الرحمن الرافعى

مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية

لعبد الرحمن الرافعى

محمد فريد رمز الاخلاص

لعبد الرحمن الرافعى

حافظ وشوقى

الدكتور طه حسين

ثورة الأدب

محمد حسين هيكل ص ٦٥

أحمد رامى

دكتورة نعمات أحمد فؤاد ـ ص ٩

شعراء مصر وبيئاتهم

عباس محمود العقاد

عصر اسماعيل جـ١

عبد الرحمن الرافعى

عصر اسماعيل جـ٢

عبد الرحمن الرافعى

الشعر والفلسفة

مقال حسن لطفى المنفلوطى : مجلة الكتاب عدد يوليو سنة ١٩٥٠ ص ٥١٣

اتجاهات الشعر العربى

مجلة الكتاب ـ مجلد ٤ السنة الثانية أكتوبر سنة ١٩٤٧

جريدة المؤيد

مقال على يوسف ١٨٩٩/٩/١١٦

الشوقيات المجهولة

محمد صبرى جـ٢ ص ١٧٥ طبع سنة ١٩٦٢

محمد عبده

تاريخ الأستاذ الامام جـ١ ص ١٢

مجلة ابولو

عدد سبتمبر سنة ١٩٣٤

احمد شوقى

تأليف د ماهر حسن فهمى

محمود سامى البارودى

د على الحديدى

حافظ ابراهيم

دكتور سامى الدهان ـ مجموعة اقرأ رقم ١٢٠

احمد حسن الزيات

وحى الرسالة جـ١

مجلة صدق الاخاء

رئيسها حسن عزت ـ عدد يوليو سنة ١٩٠٨

مذكراتى فى نصف قرن

أحمد شفيق باشا

مصر للمصريين

سليم نقاش

الثورة العرابية

عبد الرحمن الرافعى

المعلوم والمجهول

ولى الدين يكن

ذكرى مصطفى كامل الثالثة عشرة

علي فهمي كامل المطبوع سنة ١٩٢١

ديوان الشاعر

حافظ ابراهيم

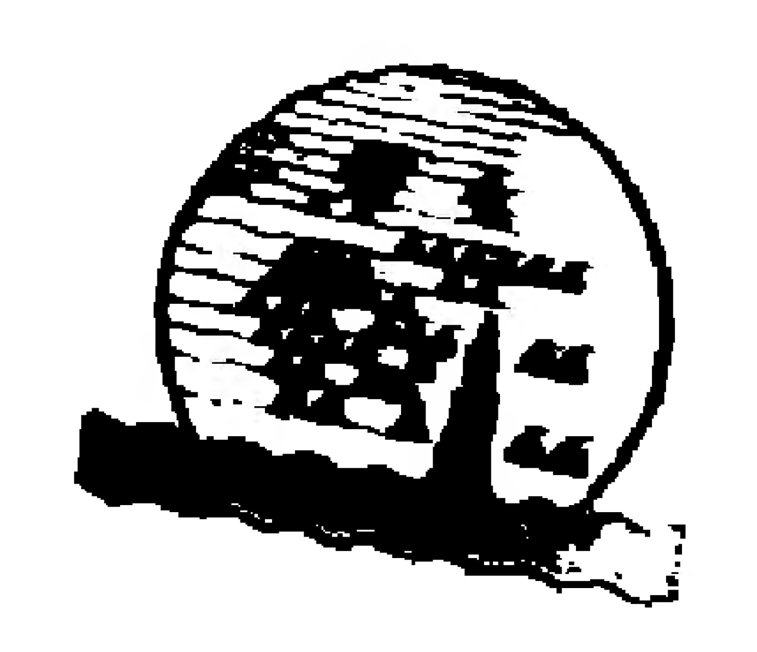
ديوان الشاعر

خليل مطران

ديوان الشاعر

أحمد شـوقي

فهـــرس



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٥/٧٣١٧

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠٥٢٤ ـ ٤